B E T O O L   K H E D A I R I

روايه
NOVEL

طبعة ثانية

بتول الخضيري







بتول الخضيري





غايب / رواية عربيّة
بتول الخضيري / مؤلّفة من العراق
الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
صورتا الغلافين الأماميّ والخلفيّ :
محمّد الشمّري / العراق
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
المطابع المركزيّة / عمّان ، الأردنّ

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٢٠٠٤/٤/٩٢٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة : ٢٠٠٤/٥/١٠٣٦

ISBN 9953-36-573-3

إلى الراحلين : أمّي وأبي

الفصل الأول

جاء في التقرير الطبي ومذكرة الشرطة أن أبي : مهندس النفط ؛ قد مات قبل أمي ؛ ربّة البيت ، بنصف ساعة . حدث ذلك أثناء سفرنا بالسيارة من بغداد إلى مقر وظيفته الجديدة في صحراء سيناء . أدلى شهود عيان بأن لفافة صغيرة طارت من نافذة المقعد الأمامي مع فرقعة لُغم منسي من بقايا حرب ١٩٦٧ . استقرت اللفافة على الرمل : أنا .

قال ضابط الشرطة : «سبحان الله ، الطفلة لم تخدش .» سلمني إلى خالتي . كنتُ في الشهر الرابع من عمري . ما تزال تحتفظ باللفافة والتقرير الذي يعتليه نسر في الدُرج السفلي في غرفة نومها الملاصقة لغرفتي .

زوجها لا ينجب ، مع ذلك رفض أن يُكنى باسمي حسب التقاليد . لم يرغب أن يسمى باسم بنت المرحومة اخت زوجته ، وأصّر أن يُدعى «أبو غايب» - الطفل الذي لن يولد . وافقت خالتي أن تُعرف بأم غايب لتردّ له فضله بتربيتي . لم أفهم حتى كبري اتفاقهما هذا ، لذا قررت بدوري أن أناديه «زوج خالتي» بدلاً من «عمو» عكس ما تجري عليه العادة .

أحيـانـاً ، وعندمـا نكون بمفـردنا ، يخـاطبني بصـوت منخـفض : «باباتي» ، كأنه شخص فقَد صوته ، وراح يجرّب أوتاره بمناداتي .

أتت بمكنسـتـهـا ، بصـمت هذه المرة ، وراحت تلاطف البـلاطات الساخنة حول قدميه العاريتين . قبضتها متشنّجة على العصا الخشبية ، تمص شفتها السفلى تحاول جاهدة ان تبتلع لسانها قبل أن يفلِـت .

لم يحرك ساكناً ، فأزاحت من حوله القشور البيض الرقيـقة . التصق بعضها بوبر المكنسة ، وبعض من قشور أمس سقط عنها . أما قشور بـقية الاسبوع فاستـقرت فوق تربة نبات متسلق يحاول أن يتشبث إلى أعلى ، منطلقاً بتـثـاقل مـن أصـيص خـردَلي مُـلقى بجـانـب الأريكة ، ووريقـاته الذابلة ترفع خضرتها بكسل نحو أصابع شـمس تعبث بستارة لا تعرف الهدوء .

عندما يرتمي زوج خالتي بتعبه على سطح الأريكة ، التي باتت تشبه لون بشرته مؤخراً ، تـنفـتـق جوانبهـا أكـثر ، مـثل أفـواه صـغيـرة تهـمس «بـَوْوو» بتباطؤ . ستُـطيل الكنـس ، وقبل أن يفـقـد أعصـابه ، سيحـشر إصبعه في شق الوسادة الوسطية ليبدأ بنبش الإسفنج ؛ أو ما تبقى منه . يُخرج نتفات رخوة تلتمس طريقها إلى الارض .

خالتي تكنـس .

اشترى لـهـا الأريكة في زمن الخير . كانت تتـمنى أريكة بَصَـلـيّـة . بـدلاً من أن يشـتريهـا بالأقـسـاط ، أرجأ سفـرة موسكو إلى الصـيف الذي يلـيـه لتـغـوص هي في أريكة جلد بلون الصنوبر وملمسـه . يمرر يده على

فخذها ثم يطبطب على قطعة الأثاث الجديدة المكتنزة ، يفتخر باقتنائه الإثنتين . كان راتبه يسمح بذلك . وبمناسبة عيد ميلادها جاءها بالأصيص ؛ كان لونه أصفر فاقعاً حينها . غنَّت للنبات وله .

بعد إطفاء شموع الكعكة ذهبَت إلى سوق الأقمشة في شارع النهر . اختارت ستارة فرنسية حليبية مطعّمة بعُقَد بنيّة ناعمة من خيوط نايلون لامعة ، كأن الخيّاط نثرها ببلورات سكر خام ذائبة التصقت على النسيج كيفما اتفق . قالت : «عندي ذوق ، أليس كذلك؟»

لم تكن مشكلة القشور قد بدأت .

مرّت سنوات عديدة على هذا الشباك الكبير . اليوم خالتي تزيح عنه الستارة ؛ التي انطفأت عُقدُها وتهرأت أذيالها .

صرخَت :

- يا إلهي! ما هذا السواد؟!

خرّت خطوط سود على جدران البيوت والأبنية والعمارات السكنية . أقلام بكثافات مختلفة ذابت من أعلى إلى أسفل . المدينة ترتدي بيجامة سجناء ، كتلك التي كانت تظهر في أفلام كارتون DISNEY قبل مجيء التلفزيون الملوّن .

يجيبها زوجها :

- المطر الأسود . لم أشأ إزعاجكما . يقولون إن بغداد تكحلّت اليوم . كحل مستورد من الحلفاء .

صرختها تتمدد :

- أي كحل هذا؟ سنموت!

التحقتُ بها لأُشاركها دهشتها . دخان قصف الأسابيع الماضية إتّحد

بمطر ليلة أمس فصبغ كل شيء بقضبان من محلول مقيت . مطر مفاجئ لم يحن موعده على مفكرة الأنواء الجوية المحلية . رائحته مزيج من زيت سيارات محروق ، وفأرة ماتت محشورة في دولاب قديم لم يشعر بها أحد حتى فاحت رائحتها .

قلتُ لنفسي : «LANCÔME ، ضد البَلَل!»

قال :

- إذا كانت الطيور ما تزال على قيد الحياة ، فسنحيا نحن .

تذمرَت بحركة من يدها :

- أنتَ وعصافيرك! من سينظف كل هذه القذارة؟

-أنت .

ثم أضاف :

- وأمانة العاصمة ، طبعاً .

تركتُ خالتي وزوجها . من كل شباك ألقي نظرة عبره يرتّد إليّ «أسود ، أسود ، مثل القير ، يقفز قفزات الخنزير .»

سأعدّ مغطس الماء الساخن لزوج خالتي . سيتبع التعليمات . يجب خلط قدح واحد من طحين الشوفان في الماء الدافئ . هذا المحلول يساعد على ارتخاء القشور عن الجلد وبالتالي انفصالها بسهولة . يجب أن يتذكر أيضاً ألا يفركها بقسوة فقد يزيد ذلك من الالتهابات .

في انتظار أن يغلي الماء في القدر ، سأسلق لنفسي هذه البيضة . أقشرها بسرعة قبل أن ينقطع نقاشهما . آخ! انغرست شظية من قشرتها الكلسية تحت أظفري . أخرجتها ووضعت البيضة المسلوقة الجميلة اللامعة في الصحن . جلدها رقيق يتعرق .

عادت القطة الحامل . تعثرتُ بها . انزلقت البيضة الملساء عن الصحن ، سقطت على الأرض ، انفتحت نصفين فتدحرج المُحّ الأصفر وتفتّتت في طريقها نحو رجل مقعد قريب . ارتطمت به ونامت نافثةً بخارها .

ضربتُ القطة على رأسها وأنا أكاد أبكي . إنها البيضة الأخيرة اليوم . نفختُ في وجهها : «حيوانة! حقيرة!»

لملمتُ مُحّة تمرغت في الغبار ، حاولتُ إرجاعها إلى محجر نصف البيضة المطاطي . حشرتها فيه . التهمتها . ارتجفت في فمي دون ملح .

أخذتُ جرعة ماء لأغسل به هذا الإحساس بأني ابتلعت لقمة عجينية من قَشّ بطعم البيض .

الكهرباء ستنقطع بعد قليل لمدة ثلاث ساعات . زوج خالتي يرفض أن يشتري أمبيرات من أصحاب المولِّدات الخاصة . سعر الأمبير الواحد المعروض في السوق حالياً ألفا دينار ؛ عشر أمبيرات تشغل المراوح فقط ، والأربعون أمبيراً يشغل الثلاجة والتلفزيون وربما مروحة واحدة .

كلما كانت خالتي تشغل مجفف شعرها ، كان المصعد يتوقّف ما بين الطوابق فينادي أحدهم :

- يا بيت أبو غايب ، طَفُّوا السَشوار الله يخليكم ، عصينا!

إنه الأستاذ النحيل من الطابق الأول هذه المرة . تركتُ حر المطبخ خلفي . مشبك النافذة لم يعد يسمح للهواء بالمرور . كانت خالتي ترشه بالماء كثيراً لترطيبه حتى امتلأت الثقوب بحشوات ناعمة من الصدأ . لحسن حظ الأستاذ أن المصعد توقف في طابقنا .

فتحتُ له باب الحديد . شفطَ من الممر نفَساً طويلاً . عمله مرهِق .

يعطي دروساً خاصة بمادة الاجتماع لطلاب الثانوية في داره بعد أن استُهلكَت سيارته . كلما انحنى لربط حذائه شعر بدوار وتمايل ، ولينقذ عينيه من الضغط العالي ، استبدل بأحذيته ذات الرباط أحذية لا تضطره إلى أن ينحني . بمرور الزمن قام ببيع أغلب أحذيته .

قال :

- شكراً دلال .

قبل أن تصبح خيّاطة ، كانت خالتي مُعلّمة ابتدائية للأعمال اليدوية . وبعد أن كان أبو غايب موظفاً في وزارة السياحة ورساماً هاوياً ، أصبح متقاعداً محترفاً ، مثل بقية زملائه . في شبابه كان يتمنى أن يكون رساماً فالتحق بمعهد الفنون الجميلة . لكن بعد سنتين اجتمع به أساتذته ليطلبوا منه ألا يضيع المزيد من الوقت قائلين له : «عينك ترى جمالية الفن الحقيقي ، لكن مع الأسف ، خطوطك ضعيفة .» احترق حلمه في أن يكون أحد فناني «جماعة الروّاد» الذين قادوا الحركة الفنية في العراق في الأربعينات . عندئذ اضطر الطالب المخذول إلى أن يقبل وظيفة دليل سياحيّ ، بعد أن تم إرساله إلى لندن في دورة لتعلم اللغة الإنكليزية .

كانت لا تتوقف عن ملاحقته قائلة :

- أنتَ الذي رفضتَ أن تعمل بالتجارة . ما هذا الوضع الذي نحن فيه؟

وكان يجيبها من مغطسه في الحمام :

- أنا الذي استشرتكِ في زمن الخير أن نحوّل بعض رواتبنا إلى الخارج ، ورفضتِ بشدة . قلتِ : «عيني ، كيف نطلّع فلوسنا برّة؟» ألم

تتهمينني بأنني أُهرّب دينارنا إلى بنوك أجنبية؟ مع العلم بأنّني كنت أفكر في أن نشتري ملكاً صغيراً نسافر إليه في الصيف .

كلما خاضوا في هذا النقاش انفتح أمامي كتاب «القراءة الخلدونيّة» للصف الأول الابتدائي «دار ، داران ، دور . نار ، نيران . دينار ، ديناران ، دنانير . . .»

كانت خالتي تغضب تصاعدياً :

- أنتَ تتكلم عن الدينار عندما كان ثلاثة دولارات بالتصريف الرسمي ، والآن عندما أصبح الدولار يقارب ثلاثة آلاف دينار ، تعاتبني؟

- نعم . فكل الذي كنت تريدينه هو أن يبقى النقد أمامكِ! بين يديكِ! صحيح أنّني لم أكن تاجراً ، لكن أخذتُ بنصيحة غيري ، ومع ذلك لم تقتنعي .

- ولكي تعاقبني بالطبع ، أصبحتَ تشتري كل شهر لوحة . هل كنتَ تعوّض شعورك بأنك لست رساماً حقيقياً؟

- فعلاً ، لستُ رساماً . لكن أعمال هؤلاء الفنانين أحاطتني طوال السنوات الماضية . أغوص في كل لوحة لأنسى . أتفهمين؟ لأنسى .

- وماذا استفدنا من لطخات ألوان على الجدران ، ها؟

- كنتِ تريدين الرواتب بين يديكِ ، أليس كذلك؟ وعليه ، حولتُها إلى لوحات ، وبذلك وفّقتُ بين رغبتكِ ورغبتي . أتمتع بها في حياتي ، وعندما أموت ، تفعلين بها ما تشائين .

أضاف بنَفَس ثقيل :

- من أين لي أن أتنبأ بهذا الحصار اللعين؟!

خالتي تتمشى ذهاباً وإياباً في الممر المزدحم باللوحات . صوتها أقرب

إلى ضربات متتالية على طبل مهترئ :

- سنة ١٩٨٠ اندلعت حرب ثماني سنوات مع جارتنا إيران . لم نكد نحتفل بوقف إطلاق النار حتى قررت الحكومة غزو الكويت سنة ١٩٩٠ فبدأت حرب الخليج . يا إلهي ، الأجانب يقصفونا ثم يُتوّجون عملياتهم بحصار غير معلومة نهايته! أيعقل ما يحدث لنا يا جماعة؟!

تقصدني وزوجها . تناوله قصاصة مقال ، خلفها صف من صور بورتريت لفنانين محليين . يرفض أن يقرأه فتقول :

- مصنع الزجاج أطلق آلاف الألتار من الغاز السائل إثر انفجاره .

أجابها وهو يتفرج من الشباك الكبير :

- أعلم ذلك .

- وقصفوا مصنع الأسمدة .

- أعلم ذلك .

بعد قليل أضافت :

- وعليه تسرب الأمونيا في النهر .

- أعلم ذلك أيضاً .

- سمعت أن كميات غير معقولة من أوساخ المجاري تصب في دجلة كل شهر؟

- سمعت .

تتوقف عند صورة أبيها المعلّقة ، أعني جدي ، أقصد المرحوم جدو . كان رأسها يجمد أمامه عدة دقائق وهي تمارس طقس : «آه أين زمانهم!»

تضع نصف سيكارة في جيبها لتدخنها مساء . تدمدم :

- زمن «الصاية» المزركشة التي كانت ترتديها أمي ونحن نتمشى على النهر . أيام الحلاوة والبالونات والأراجيح في العيد . ما أجمل حلق الفضة الذي أهداني إياه أبي عند نجاحي في الصف السادس . كان رنيناً

حلواً في أذني ذاك الذي يُحدثه مفتاح البيت المعلق بنفس حلقة مفتاح غرفتي الكائنة في الطابق العلوي . كنت أستقبل صديقاتي خلسة لندخن سكائر ROTHMANS . سألتهن كيف تعلمن سحب الدخان ، فقالت إحداهن : «بسيطة ، فقط رددي خلفي بشهقة : هه ، جاء بابا!!»

تبتسم خالتي للصورة ، تقول :

- أخفيتُ عنهم فصل التدخين .

هذا الصباح ، حملَت خالتي قطعة قماش ندية لتمسح بها القناع الأسود البارز في لوحة داكنة لوجه يشق طريقه إلى الخارج .

القناع يرعبني . فيه حفر فضية مجعّدة حول العينين والفم . الجبين المعدني يفكر . شرايينه البرّاقة تنبت حول الجمجمة . كانت خالتي تنظف ما بين عروق الألمنيوم ، وهي تتمنى لو أن زوجها يبيع تلك اللوحة قبل أن تكثر الشقوق حول الوجه فينفصل الرأس عن الخلفية .

عندما تقف أمامها ، وتنفخ بحدّة في الزوايا الضيقة لتطرد الغبار المتراكم ، يتجعد وجهها ؛ تشبه القناع . تشكو له : «بروتوكولات! بروتوكولات! ألا يعتبر تجويع المواطنين طريقة لا شرعية لا إنسانية عندما يُستخدم كإحدى أدوات الحرب . ماذا يفعلون بنا؟!»

القناع لا يجيب .

زوجها يخرج بحثاً عن عمل . تبتعد هي عن اللوحة بجسمها القصير المضغوط على شكل كمثرى . مؤخرتها عريضة وكتفاها صغيرتان إلى درجة أنها لا تستغني عن الكتافيّات ؛ تلك الوسادات الإسفنجية الناعمة المثبتة دائماً على أكتافها الضيقة . في إحدى المناسبات نسيَت خالتي أن ترتديها فسقطت حقيبتها عن كتفها . ضحك زوجها عالياً

وراح يناديها : «هيا يا عرموطتي ، لا تزعلي!»

أنا أطول منها ، مثل أمي المرحومة ، كما يقال . أنف خالتي ضخم . لا أحب أن أراها واقفة عند الشباك الكبير ترقب خروج زوجها من العمارة إلى الشارع . الشمس تسقط على وجهها وتلمع فوق أنف دهين أملس من الخارج يسمح لشعيرات ناتئة أن تتراءى من الداخل . تلعب بمنخريها كثيراً كأنها تحاول أن تعيد عجنهما إلى شيء أصغر . أليست هي التي قالت لي ، بعد مرضي ، إن شكلنا هو نصيب من الله؟

عندما كان زوج خالتي يعمل ، كنت أستمتع برحلات عمله أكثر منه . كان يأخذني معه إلى بلدان كثيرة وأنا صغيرة . مدريد ، باريس ، تونس . ولو كان يعلم أننا سنُمنع من السفر لربما كنا سنزور عواصم أكثر . لكنه كان في طريق العودة لا ينسى أبداً أن يقول لي : «يا دلال ، مهما تجولنا في العالم فسنبقى نحن الأصل . وطننا هو مهد الحضارة .» كان يكلمني في الطائرة عن الفنان العراقي الأول الذي سكن مستوطنات «تل الصوان» في الألف السادس قبل الميلاد . ثم يشرح لي مشاريع دائرة الفنون التشكيلية التي أصبح مسؤولاً فيها عن التنسيق ما بين مديرية المعارض الفنية والمتحف الوطني للفن الحديث . لكن مقاطعه المفضلة كانت إخبار المضيفات الأجنبيات ، بانفعال ، أن الإنسان عرف الكتابة لأول مرة في العراق على الرقم الطينية السومرية ، وهناك ولدت أول مكتبة في العالم ، وأول مدرسة ، وأول ملحمة ، و ، و . . . حتى يُقدّمن له العصير ليهدأ .

سأحتفظ بهذه الصور القديمة . كنت في العاشرة من عمري عندما أخذني زوج خالتي معه إلى الدانمارك لمدة ثلاثة أيام والتقط لي صورة فوتوغرافية أمام مدينة ألعاب TIVOLI . لقطة أخرى عند حورية البحر والأغنية تصدح : «كوبنهاغن ، كوبنهاغن ، أيتها المدينة الجميلة على البحر .» حدقتُ في الصورة . كنت أجمل من كوبنهاغن ، فمي المُعافى كان يلعق الآيس كريم قرب الأمواج .

بعد ذلك بسنتين اصطحبني أبو غايب لزيارة صديقه البروفيسور في جراحة التجميل في تركيا . فحصني ثم قال له : «إئتني بها بعد عدة سنوات ، لقد أُصيبت بشلل في وجهها ربما بسبب جلطة صغيرة . ليس هذا الوقت المناسب لاجراء عملية لها . ما تزال في طور النمو وشكلها سيستمر بالتغيير . إن أجرينا العملية الآن ، ستستمر حالة اللاتناسق لديها لأن العضلات في الجزء السليم من وجهها ستتابع نموها .»

في إسطنبول ، تعلمتُ أن أجتنب الآيس كريم . . . والتصوير .

خرجتُ إلى الشرفة أرقب الناس من بعيد . طوابير من رجال ونساء يحملون قسائم الحصة التموينّية ، ينتظرون الرز والسكر والشاي عند أحد مراكز توزيع الغذاء . من شدة الحر ، بدأ سراب رمادي يرتجف بيني وبينهم ، حتى تراءوا لي كُتَلاً أخذت تسيح تدريجياً بشكل طولي . كانت القامات تستحيل إلى ما يشبه تجمعات بدوّية ، في حالة ذوبان ، تنوي عبور الشارع لكن هياكلها مُسمّرة في مكانها لا تقوى على العبور .

حمامة بلون الإسمنت تحتمي في ظل سياج الشرفة لا تأبه بوجودي . أطفال المدارس يحضّرون للامتحانات . بعضهم سيقرأ على السطوح هذه الليلة وبعضهم الآخر سيقرأ على الجزيرة الوسطية تحت ضوء

الشارع . الأولاد يحلمون بساندويش فلافل وقنينة بيبسي . أما الفتيات فيحلمن باصابع شوكولاته . لا بأس ، سينجحن لقاء جورب نايلون من النوع الإنكليزي الفاخر يقدّمنه هدية للمُعلّمة . الاولاد سينجحون بقلم PARKER مسروق .

عدتُ إلى الداخل . كانت خالتي تصلي على سجادة من القش ، مرسوم عليها طاووس ، ورثتها عن أمها . لقد أصبحت تصلي كثيراً منذ أن تعرفت على أم مازن التي اقترحت عليها أن تتبارك بسجادة جدتي المعلقة على الجدار منذ زمن طويل . كانت كلما سجدت : «سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي الأعلى» باست الطاووس الأزرق من منقاره .

أنظر إليها ساجدة . في زمن الخير ، كانت تغسل شعرها الأشقر ثم تُغرقه في بلسم WELLAZID الألماني وتسرحه فيزداد لمعاناً وشقرة . أما الآن فلا أستطيع منع نفسي من أن أرى شعرها ، الذي يقتحمه البياض ، خيوطاً متهدلة من مانجا قديمة تصبح دهينة مضببة بعد أن ينقطع الماء عدة أيام .

ثمة بقعة على فوطتها من الخلف .

كانت خالتي ، في زمن الخير ، مغرمة باللون الأحمر وباختراع ساحِر اسمُه أحمر شفاه . غرفة نومها حمراء ، والستائر والفرشة والسّجادة . أحمرها المفضل يشبه الحمرة المُخرمّة للب «الرقّي» الإسفنجي عندما ينتهي موسمه . مصيبتها أنها تشكو من حساسية تجاه إصبع الحُمرة . في كل مرة تضع الحُمرة ، تعطس عطسة قوية بعد دقيقتين فترتبك أناقة الحُمرة على شفاهها ، وتضطر إلى أن تمسحهما لتعيد الكرة .

لكنها بالتدريب أصبحت أشطر ، حيث تفتح قلم الحُمرة ، قبل موعد

الخروج ، وتقربه من أنفها . تشمه بقوة . بعد دقيقتين تعطس . تنتظر قليلاً . بعد ذلك ترسم اللون على شفاهها دون تردد . تهنئ نفسها في المرآة بإيماءة خفيفة .

كانت خالتي تمر من أمامي ، وجهها كسلحفاة أكملت تواً شرب قدح من عصير الرمان الدسم من «جبار أبو الشربَت» . تتلمظ وهي تقول لي : «مع السلامة» . في احدى الأمسيات ذهبت إلى محاضرة أبو غايب في قاعة نقابة الفنانين . عرضَ صور عن آخر تنقيبات المؤسسة العامة للآثار : كنوز نفيسة ، معالم بنائية دفينةً ولُقى أثرية في الحواضر القديمة : نمرود ، نينوى ، الحضر ، المدائن . تركتني ، في غرفة نومها ، وحدي . خرجت مع زوجها ، بسعادة!

أما اليوم ، فهي تدّعي أن الحُمرة لم تعد مهمة في حياتها . تجاملني . أعلم جيداً أنها تبحث عن «الديرَم» ؛ ملوّن الشفاه العربي التقليدي المُستخرَج من لحاء شجرة الجوز ، بعد أن انقرضت مواد المكياج الأجنبي من الأسواق . لكنها لا تعرف ما كنت أفعل بأصبع الحمرة بعد أن تغادر .

عندما أصابني المرض ، إعوّج فمي . انسحبت شفتاي إلى يمين وجهي كأن أحداً شدّهما بخيط خفي ؛ ربما كان ملاكي الحارس ، الذي يسخر مني ، مربوطاً بي بواسطة هذا الخيط! حاولت أن أقلّد الأطفال الآخرين ، وأقنع نفسي بأنني طبيعية . لكن محاولة التصفير أخفقت ، وبكيت أمام مرآة تصدر لي صوت : «فِهت ، فِهت» ، بدلاً من صفير أنيق .

أرسم نفسي بإصبع الحُمرة . أهرسه على السطح الأملس . أحدّد محيط جسدي ابتداء من الرأس . تنقطع الكهرباء فجأة . ينطفئ الإطار الزيتي الأحمر . أترك وقفتي . تبقى خريطة جسدي معلقة وسط المرآة

في غرفة مظلمة .

أمس ، قضى زوج خالتي أكثر الأمسية وهو يحكّ . مرّت أشهر وهو يبحث عن تقارير علمية حول مرضه . أصابه هوس إيجاد أسباب الداء . كان يعتقد أن وسادته قد تكون أحد المحفزات ، وأن ريش الدجاجة يولِّد نوعاً من البق الذي يقرص وجهه أثناء النوم فيتلوث جلده ، ليجد نفسه في الصباح قد استيقظ وهو يشكو من التهاب جديد وحكّة رهيبة .

دعاني إلى تناول العشاء معه . راح يمضغ قطعة بطاطا طرية وهو يتحدث . نفض عن ثيابه بعض القشور ليمنعها من أن تسقط على الطاولة . قال :

- الصدفية مرض لا يمكن التنبؤ به ، يهجم على بشرة الإنسان سواء أكان امرأة أم رجلاً في أي وقت من الأوقات وفي كل الاعمار .

أبعدَ قشرة عن صحنه بطرف شوكة :

- أتعلمين أنني كنت أتساءل اليوم ، عند كبير عائلتنا ، إن كنتُ من أصل شركسي؟ يقال إن هذا الجنس هو الأكثر استعداداً للاصابة بالمرض .

سألته راجية ألا يطور نقاشه في اتجاه علميّ كما يفعل دائماً :

- وهل أنت شركسي؟

- لا . على كل حال ، التهاب الجلد هذا يولِّد فترات من احمرار وحكة وتكاثر قشور يابسة سميكة فضية اللون على الجلد . هل أزعجك بهذه التفاصيل المملة يا دلال؟

فكرتُ : أين خالتي؟ لماذا توكل إليّ مهمة الاستماع إلى مأساة زوجها؟ أم أن البطاطا لم تعد تعجبها!

قلت له :

- إذن ، كلنا من الممكن أن نصاب به .

ردد خلفي :

- نعم . كلنا بالتأكيد . مع العلم بأنه غير معد .

ناولني صحن بطاطا . هوت رشة ملح من أصابعه على قطعة خبز غامقة . راح يقضمها قائلاً :

- باختصار ، جلدنا يتجدد أسرع من غيرنا ، وفي المناطق المصابة يتجدد بشكل أكثر سرعة .

في هذه اللحظة ظهرت زوجته على عتبة الباب . مرّت بجانب الطاولة وعلّقت دون تردد :

- على الأقل يوجد ما يتجدد فيك!

ابتلعتُ . جمدت البطاطا على شكل بلعوم فخنقتني! ضربَت خالتي على ظهري وهي تخرج من المطبخ ، كأن شيئا لم يكن .

قال زوجها بنبرة مشفقة :

- خالتك المسكينة تعتقد أن الحصار هو مشكلتنا الوحيدة .

دون أن أتكلم ، وافقته الرأي ، مع أن مصيبتي أقدم منه بسنوات . هو ما زال يعالج صدمة أنه مصاب ، أما أنا فأتفرج من خلاله على سيناريو بداياتي . قال :

- من أين سأحصل على المزيد من الدواء؟ الصيدليات مقيّدة ببيع الأدوية العادية .

- عمّ تبحث؟

- إنها حبوب مصنوعة من مستحضر من مادة غضروفية تستخرج من القرش . ما أملكه سيكفي لعدّة أشهر فقط .

قلقه البدائي يذكرني بلوعة . انتظرت سنوات طويلة أن يأخذني إلى تركيا مرة أخرى . كان من المفترض أن تُجرى لي عملية تجميل . بقيت أنتظر ولا أحد يتحرك . الجميع مشغول بالحياة اليومية . ماذا عن فمي؟

لم تأبه خالتي بحالتي . كانت مشغولة بإعطاء دورات صيفية في التطريز . أبو غايب يخرج في سفرات إلى الشمال والجنوب يرافق فرقاً من أجانب وعلماء آثار ، صيفاً وشتاء . سيساعده ذلك على اقتناء المزيد من اللوحات . تكررت زياراته مؤخراً إلى سهل «شهرزور» ، الذي كشف عن موقع «عربت» ، فاستظهرت فيه سبعة أدوار بنائية تعود إلى العهود الإسلامية وبقايا قصر يرجح أنه المركز الإداري للمدينة . أتخيل أبو غايب وهو يعلن إن ذلك يشير إلى الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والسادس الهجريّين .

يعرف كل هذه الاحداث بتواريخها ولا ينتبه إلى مرور الأيام بالنسبة لي! أكد مراراً أن هاتف صديقه الطبيب في تركيا مفصول . يجب أن نذهب إلى عنوانه مباشرة . كل سنة يرجئ مشروع العملية إلى السنة التي تليها . ظل يفضل أن يدمج بين عمليتي وبين جعل السفرة رحلة سياحية لنا ، حتى قامت الحرب . عندها ، اكتشفنا أن العملية يجب أن تُجرى عندما يكون المصاب في سنوات شبابه ، لا بعد فوات الأوان .

أما «بعد فوات الأوان» فقد امتد عشرين سنة . حرب بعد أخرى في إطار من حصار محكَم على اثنتين وعشرين مليون نسمة من ضمنهم أهل عمارتنا . في الوقت الحاضر أصبح الطيران في الشمال والجنوب محظوراً . السفر ممنوع . تضخم مالي مرعب . فقر مدقع . تدهور في الاقتصاد . تهاوٍ للطبقات الاجتماعية . عطالة تفوق المنطق . كل هذا يحدث لأننا نملكُ ثاني أكبر احتياطي للنفط بعد السعودية؟

هذا ما يقوله الإعلام .

ربما كانا يشعران بذنب أقل عندما يوصلني أحدهما إلى نادي العلوية لأقضي نهارات عديدة في المسبح ، ويمضي كلٌ في دربه حتى المساء؟! يضحيان بجزء من الراتب لكي يعوضا سفرة تركيا بدفع أقساط النادي مدى الحياة! كان هذا النادي يمثل أحد المظاهر البرجوازية في المدينة . في صالاته الكبيرة كان الأعضاء يلعبون البليارد ، أو لعبة الحظ والمقامرة BINGO ، أو رمي النبال اليدوية ، وفي بعض أركانه كانت النساء تلعب لعبة الورق BRIDGE . كان النادي ملتقى لحفلات الشاي والمشويات وممارسة لعبة السفن المُحطّمة حول المسبح . وفي مكتبته كان البعض يمارس قراءة الكتب والصحف ، وكان المتزوجون يشاركون في مسابقة الرقص الشهرية . خالتي تحب أن تعلن لصديقاتها أن عائلتها منتسبة إليه ، وزوجها يذكر للجميع أنه قد تم بناؤه من قبل الإنكليز في العشرينات وأن آغاثا كريستي كانت تكتب في حديقته تحت شجرة وارفة .

كنت أحاول جاهدة أن أنشغل عن موضوع عملية التجميل بالسباحة .

الفصل الثاني

غيرتُ شراشف سرير خالتي . واجباتي البيتية واضحة . شرشف وسادة أبي غايب يجب أن يتغير كل يوم . أمصّ حبة حلوى على شكل مربع من نعناع حاد ، لونه أبيض مبقع بشظايا خضر ناعمة على جهتيه . شعرت أنني ألعق البلاطات البيض المبقعة بالأخضر ؛ تلك التي تغطي مدخل مستشفى الحيدري . قالت لي خالتي إن أول غرفة خرجتُ منها إلى الحياة هي غرفة رقم ١٨ .

في مجلة ألف باء اليوم صورة عن المستشفيات . بدلاً من أن تكون الصورة لمريض على فراشه في غرفة مستشفى ، كانت لقطّة هائلة ممددة على الفراش ، تنظر بازدراء إلى المريض وهو يدخل غرفته ليستلقي ، فتطرده قائلة : «بِشْت!!»

تجذبني مرة أخرى اللوحة المعلقة فوق السرير . أتأمل هذه العين الإنسانية التي رسمها دكتور أختصاصه : «أنف ، أذن ، حنجرة» . لا أملّ منها مهما غيرتُ شراشف السرير . تكلمني ، ملصقَةً على مساحة من ألوان متعادلة . كولاج متناسق كأنها عين بشرية ثقبت اللوحة لتراقب .

أتذكر ذلك الدكتور جيداً . كان أبو غايب يأخذني إليه عندما أُصاب بالتهاب في أذني . عيادته في ساحة النصر ، حيث يستغرق إيجاد موقف للسيارة أكثر من نصف ساعة . لا أحب دهاليز عيادات شارع السعدون المسمى باسم أحد رؤساء الوزراء السابقين في العهد الملكي ، والذي ينتصب تمثاله في أول الشارع . شرح لي زوج خالتي : «يُقال انه كان ضد الانكليز الذين حكمونا أربعين سنة . وعندما اتُهم بالخيانة انتحر .»

أقفز لأتجاوز بركة من ماء جاء الكنّاس ليزيحها بمكنسة كبيرة من سعف النخيل فخرط الأوساخ ليودعها في البالوعة المستطيلة القريبة . تُرى كم مواطن أسقط مفاتيح سيارته سهواً بين قضبان مثل هذه البالوعة؟

أجلسني الطبيب على كرسي جلد يدور حول نفسه . دخل في أذني وأنفي دون استئذان ، لكن الفم كان موضوعاً آخراً . يده الدافئة استأذنت قبل أن يرفع شفتي العليا أولاً . بعد قليل ضرب آلة معدنية على ذراع الكرسي . معدن يرتطم بمعدن فأجفل . قال : «لا تخافي وأريني أسنانك» . وضع طرف قطعة الحديد على أسناني فغاص رأسي في طنين . رحت أستنجد بزوج خالتي وأنا لا أرى منه غير ظهره .

هذا الصباح لوّث وجهه بمعجون حلاقة سولاف ، وعندما رن الهاتف ذهب ليجيبه . رئيس بعثة آثار المواقع الغربية يبشره على الخط عن نتائج التنقيب حول القبة الصليبية التي استظهرت مجموعة من المرافق المتعامدة مع أضلاع القبة ، كما شملت السور الخارجي لجامع الجمعة . شكره زوج خالتي ومر من أمامي فإذا بالرغوة تجف على وجهه وتتطاير في كل مكان كأنها ندفات بيض ترقص مثل فراشات .

سألني الدكتور : «كيف تشعرين؟» لم أجب . الطنين في أذني يزاحم أمنيتي أن يعود فمي كما كان . اللوحة أعلى رأسه مطبوع عليها

«الله» مؤطرة بإيحاءات وردية لغيوم قطنية على شكل شوكة رنّانة .

احتياجات السوق المحليّة هذا الاسبوع هي إطارات عجلات السيارات . الناس حائرون كيف يحمون سياراتهم . الإطارات تختفي من السيارات في مواقف البيوت الخاصة رغم الحراسة . هدأت موجة سرقة الـ OLDSMOBILE التي انتشرت في الشهر الماضي ، والتركيز الآن على السيارات اليابانية . الناس يبيعون سياراتهم قبل أن تُسرق .

قالوا إن أحد السارقين توفي أمس إثر محاولته سرقة سيارة كان صاحبها كهربائياً محترفاً ، وعندما أعيته محاولات العصابات للاستحواذ على سيارته ، مد لها في الليل سلكاً ربطه بكهرباء البيت . تكهرب السارق في الموقع ، وسلم الرجل جثته إلى أفراد الشرطة الذين جاؤوا مشياً على الأقدام بعد أن سُرق محرك سيارتهم أيضاً . جاءت سيارة إسعاف دون زعيقها المعهود ؛ الأدوات الاحتياطية مفقودة .

أهل العمارة يروون أن أحد سارقي الإطارات كان منهمكاً في فك إطارات سيارة ما . في هذه الأثناء اكتشف أن سارقاً آخر يفتح إطار الجهة الثانية . قال السارق للسارق الثاني الغريب : «اليمين لك ، واليسار لي ، ما تسوى نتعارك!» قلت لنفسي : «إشاعات ، ليس إلا» .

عوَق . البنية التحتية والصناعة تتضرران . نُسفت مولدات الكهرباء ، والمصافي ، ومشاريع البتروكيمياويات . شبكات الاتصالات طارت في الهواء ، وجسور سقطت في الأنهر ، ناهيك عن انبعاج الشوارع والطرق الخارجية السريعة . سكك الحديد دُمرت وعليها عربات محملة بالأغذية . مصانع الألمنيوم والنسيج والقابلوات الكهربائية والأدوية تُمحى من الخارطة .

في زمن الخير ، عندما كانت خالتي تسمع صوت سيارة الـ VOLVO البرتقالية بهدير محركها ذي البحة المميزة ، كانت تتهيأ لاستقبال زوجها . كان لحضوره اليومي ظهراً جلبة خاصة . الفرامل تزأر . باب الكراج يصفع بشدة . حذاؤه يطقطق . مفاتيحه تهتز وتقعقع باستمرار . يشرع بقراءة جريدة الثورة . تسارع هي بتحضير قدح العصير . تمسك بالقدح الذي برّدته ، برقة ، محاولةً ألا تُربك طبقة البخار البارد الذي كسا الزجاج . عندما يدخل أبو غايب ويجلس ، تأتيه بنعال البيت المريحة وتأخذ منه حذاءه مختفية بكل رضا ، كأنها تضع طقطقة حذائه الأنيق في جيبها .

تتسلم منه كيس المشتريات بابتسامة . تدرك أنه سيعلّق حول ترتيب الثلاجة . يتجادل معها كثيراً حول مشترياتها . يتهمها أنها مستهلكة غير واعية لأنها تشتري الأشياء الجميلة ذات الأغلفة اللماعة دون أن تتأكد من النوعية أو السعر ، وفوق ذلك ، يؤكد أنها لا تفهم في الترتيب ، فهي تكدس المشتريات بطريقة فوضوية . يقول لها : «ألا تملكين حساً بأهمية المكان الفارغ والمكان الملآن؟!»

أما اليوم ، فالثلاجة لم تعد تمتلئ ولا حتى إلى منتصفها ، ولم تعد السيارة في الكراج .

لم تعد تأبه أم غايب إن كان زوجها سيأتي أم لا ، فهي منهمكة بتلميع مجموعة أزرار غريبة . مهمتها الأخيرة هي جمع الأزرار لتتفنن بخياطتها أمام زبوناتها . نفدت علبة الملمع فسرقت قليلاً من مرهم أبي غايب الخاص بالصدفية . قرأت على العلبة : «لا يترك آثاراً دهنية» . وعصرت في يدها مقدار حبة فاصوليا قائلة : «هذا ينفع» .

لم تعد تبرّد له العصير ، فإذا توفرت برتقالتان في البيت ، وكان يجب أن تقتسمهما معه ، فإنها ، بدلاً من أن تعصر كل برتقالة في قدح ،

كانت تعصر الإثنتين معاً ثم تصب العصير في القدحين بالتساوي . هكذا كانت تتقاسم معه العصير وهي تكلم نفسها «أتبع هذه الطريقة لكي لا يميّز أحد أي البرتقالتين طازجة وأيهما قديمة» .

كل شيء مغشوش هذه الأيام من معجون الطماطم الذي أصبح خليطاً من بطاطا تعبانة ولون أحمرغير معروف المصدر ، إلى معجونات البناء . قبل يومين ، هبط بانيو بيت الجيران من الطابق العلوي عندنا . الرطوبة أكلت حمامهم ، وبسبب غلاء الأسعار لم يتمكنوا من صيانته . استخدموا مواد مغشوشة لم تتحمل ثقل البانيو فهبط . نصفه عندهم ونصفه يتدلى عندنا فوق طاولة الطعام . سقفنا يشترك مع أرضهم الرخوة . خالتي على وشك الانهيار .

بعد عدة محاولات مريرة ، اتصلنا بالسبّاك الكردي عزيز . سيأتي فوراً لإعادة الحمام إلى أصحابه . كاكه عزيز أغلق كل صنابير الماء في العمارة . إنه ضخم الجثة ، دمث الأخلاق ، شغول ، يرفض أن يتغدى قبل أن ينتهي من عمله ، ويَلفظ اسمه بلهجة كردية : «كاكا آسيس» .

استغرق التصليح عدة أيام . كان الماء مقطوعاً عنّا . خالتي ترفض أن تذهب لقضاء حاجتها في بيت الجيران ، تفضّل أن تفعلها في علبة صفيح تفرغها كل ليلة عندما ينام أهل العمارة ، حيث تنزل خلسة إلى الطابق الأرضي وترش بها الزرع .

أُدخلت شابة تسممت إلى المستشفى قبل أسبوع . سأرافق خالتي لزيارة أهلها . لن نركب تكسي خوفاً من أن يطلب ألف دينار . قالوا إن أبا

بريص انحشر في منديل للدورة الشهرية في أحد المحلات الصغيرة بعد أن أصبح صاحبه يبيع المناديل بالمفرد . دخل الحيوان الصغير في الشابّة ومرضت المسكينة . جاءت وزارة الصحة وأغلقت المكان بالشمع الأحمر . البائع في السجن وأم الفتاة تريد تعويضاً . مناديل حسناء ، مناديل سندريلا ، مناديل عذراء ، مناديل أبي بريص!

جلسنا في صالة الاستقبال . الشابّة في غرفة النوم والأم تقدم لنا قدحاً من الماء تعتذر عن التقصير وهي تنظر في الصينية أثناء التقديم . عندما ابتعدت عني ، وقع بصري على الحائط أمامي تتوسطه لوحة لامرأة ذات ملمس خشن كأنها جسد صلب من مادة محببَّة . بنفسجي ، وردي ، أزرق ، مربعات : ثدي في مربع ، ثدي في مربع آخر ، وجه في مربع ، وبقية الجسد في مربع . المرأة موزعة ما بين المربعات .

في طريق العودة ، خارج بيتهم ، رحت أتحسس جدار السور المبنيّ من الجبس المنثور . الفنان كان سيستمتع بالرسم على هذه المساحات . ضغطت على زر جرس عاطل ؛ دست على حلمة ثدي إحدى سيداته بإصبعي .

حقاً لا أرغب في العودة إلى شقتنا . خالتي ستوجع لي رأسي بقصصها عن الأزرار والكتّافيات . في الماضي كنا نُدعى بيت الأساتذة ، الذين يسكنون عمارة الأساتذة . الآن ، الخالة تجمع أزراراً لتنغمس في أقمشتها وخيوطها وأنا سرعان ما سألقّب ببنت الخياطة . أما أبو غايب ، أستاذ السياحة السابق ، فسيصبح زوج الخياطة .

تملك أعداداً هائلة من علب بلاستيكية شفافة مربعة تحتفظ فيها بأزرارها الغالية . ليس لأحد الحق في الاقتراب من ممتلكاتها . على كل

علبة لصقة صغيرة تحمل اسم محتوياتها . أزرار بلاستيك ، أزرار خشب ، أزرار معدن . لديها مجموعة غريبة من أزرار من العاج وأخرى من فلين مضغوط . أحياناً تكتب على العلبة نوع الزر : دمعات ، دوائر ، مكعبات ، قصبات . أو تكتب بخط واضح الزر المناسب للاحتفال المناسب : أعراس ، تخرّج ، عزاء .

ازداد تعلقها بهذه العلب عندما بدأ الناس بشراء الملابس القديمة . لم تعد تتوفر إمكانية شراء ملابس جديدة ، فدخلنا عهد الترميم والترقيع وتصليح الموجود . تجارة ملابس البالة أصبحت ظاهرة عادية جداً ، ورغم ذلك ، فالكثير من العائلات لا تمارسها إلا ليلاً لتتخفى عن العيون وهي تنبش بين قطع الملابس المستعملة .

الشباب يرتادون سوق اللنكة بعد المغيب . الملابس في قسم التنبيش مكدسة بعضها فوق بعض على أسرّة من حديد ، تنبعث من طياتها روائح أناس كانت لهم بيوت . بقية الملابس في قسم التعليق ؛ ينبعث من الثقوب ضوء فانوس أجرب ينفث رائحة نفط مستسلمة . رجل يصرخ بأعلى صوته : «تعال اخذ ببلاش ، انهجم بيته للفقر .»

خالتي تؤكد أن الحاجة أم الاختراع كلما ثبتّت أزراراً على ملابس الناس المستهلَكة ، وتفتخر أنها أصبحت مثل الجديدة . زوجها سئم منها مرة فجاءها بحفنة من بذور البطيخ ، قائلاً لها : «تفضلي ، جففيها ، اصبغيها ، واجعلي منها أزرارا .»

كانت خالتي تتوتر بسرعة من تعليقات أبي غايب فتتشنج كتفاها ذواتا الكتافيّات وتنتفخ الوسادات الإسفنجية ثم تبرز إلى أعلى . عندما يتجاوز حدود المزح معها ، خاصة عندما يناديها : «نِمنِم الناعم» ، ترمي في اتجاهه علبة أزرار فيها بطاريق زجاجية ملونة ، أو أسماك من السيراميك ، فتنكسر إحداها . تدّعي عدم الانفعال ، لكن نبرة صوتها

تتحول تدريجياً إلى هدير محرك طائرة عمودية تحلّق فوق سطح عمارتنا من بعيد .

يقول لها :

- غرقنا في الخرز والبُلَك والخيوط .

ترد عليه :

- أحسن من قشورك المقرفة التي تنسلخ كل ثلاث ساعات مع جدول انقطاع الكهرباء .

تضحك خالتي : «ها ها ها» لينحدر ضحكها بعد ثوان فيصبح «حا حا حا .»

انزلقتُ نحو المطبخ لأعّد فنجان قهوة NESCAFÉ . كنت أتأمل لحظات من صحو في رأسي بعد ليلة أمس . لم أتمكن من النوم جيداً . أنام دائماً على جهتي اليسرى ، أتمنى أن يتدلى خدي ، أثناء النوم ، عسى أن يعدّل ذلك قليلاً من اعوجاج فمي . عندما تعلمت في المدرسة أن في مركز الكرة الأرضية جاذبية هائلة ، تخيلتها مغناطيساً ضخماً بشكل حذوة حصان ؛ كم تمنيت أن يسحب ذلك المغناطيس فمي إلى وضعه الصحيح .

اشتريت علبة القهوة تلك ، قبل شهر ، من الممرضة إلهام ، التي تسكن في الطابق الثاني . تبادلنا ، فأعطيتها علبتَي فطر مقطع قبل أن تنتهي مدة صلاحيتهما .

غرفت بالملعقة حفنة كبيرة . في هذه اللحظة اقتحمتني عند الشباك الواطيء هبة هواء حادة فتطاير المسحوق من الملعقة وتهاوى على الطاولة المبللة قرب فنجاني . سقطت الحبيبات الخفيفة على السطح اللامع ، وراحت تذوب على شكل دمعات صغيرة بنيّة سريعة التحضير . حدّقت

فيها وهي تنتشر بانتظام فوق الطاولة . مسحتها ، أغلقت الشباك ، كانت ملعقتي تحمل حفنة أصغر هذه المرة .

جلست لأحتسيها بهدوء . خالتي وزوجها ما يزالان يتبادلان أزراراً وقشوراً بغضب .

رفعت سماعة التلفون لأتأكد ثانية إن كانت الخطوط المعطّلة قد أُصلحت ، فإذا بها مشتبكة . ما أكثر القصص العجيبة الغريبة التي نسمعها عبر الخطوط المشتركة . يصفها بعضهم بأنها أرخص الطرق لقضاء أوقات الفراغ .

سيدة تقول لصاحبتها :

- ابني هاجر .

- إلى أين؟

- وصل بالسلامة إلى نيوزيلندا .

تشهق السيدة المستمعة :

- ماذا؟ كيف ترسلينه إلى نيوزيلندا ، ماذا عن ثقب الأوزون؟ ألا تخافين عليه؟

- عيني ، هو اللي يطلع من ثقب صدّام حسين يخاف من ثقب الأوزون؟

أعدتُ السماعة إلى الجهاز .

الفصل الثالث

الحصار الاقتصادي يزحف في عمارتنا التي تطل على جامع الجندي المجهول من جهة، وعلى نادي العلوية من جهة ملاعب التنس. حيرتنا التقارير العالمية والأخبار المحلية. خالتي الصقت مقالاً على باب الثلاجة: «ما بين السادس عشر من كانون الثاني إلى السابع والعشرين من شباط سنة ١٩٩١، أسقط الحلفاء ثمانية وثمانين ألف طن من القنابل. أي ما يعادل سبع قنابل نووية بحجم قنبلة هيروشيما؛ وهذا يعني أن العراق قد تعرض إلى ما يعادل قنبلة نووية واحدة اسبوعياً خلال فترة الحرب. إنه قياس ليس له مثيل في تاريخ الحروب.»

في طفولتي، كانت تسكن الطابق العلوي عائلة يهودية لديها ثلاث بنات؛ كيلدا، إيريس، وفيليرين. كنت أحب إيريس لأنها تهرّب لي من الشرفة في الليل أصابع سحرية من عين الشمس. كنا نشعلها ونلوح لبعضنا بشموس صغيرة مع وشّة جميلة ورائحة بارود.

جدتها اسمها غرَمّا . في ابهام قدمها بروز من مادة قرنية ظلّ يكبر يوماً بعد يوم حتى فقدت القدرة على المشي . أما والدها موشي فكانت له شامة على رقبته من الخلف تنبع منها ثلاث شعرات تقوم غرَمّا بقصها له كل شهر . أتذكر تسللي كل يوم سبت إلى شقتهم لأفتح لهم الضوء أو أشعل لهم الغاز . قالت لها أمها بأن خالقهم ، وبعد أن أكمل خلق الكون ، جلس ليستريح واضعاً رجلاً فوق أخرى ، لذا فهم لا يعملون من مساء الجمعة وحتى مساء السبت ، ولا يطفئون الانارة ليلة السبت ، متجنبين القيام بعمل يشبه ايقاد نار . كانت تقول لي غرَمّا ذات الشعر القطني بعربية مكسرّة : « شِكراً ، شِكراً ، إن شاء الله ، الله يطفي ضَواكِ مثل ما طفيتيلنا ضَوانا» .

مرة لعبتُ مع إيريس تحت السرير . اكتشفنا علبة فيتامين C مفتوحة . أنقذنا منها أقراصاً مغبرة . وضعنا الأقراص الفوّارة في فمنا . كان مذاقها كدوائر صلبة محضرّة من خليط برتقالة طبية تيَبست في محلول 7UP . راحت تغلي على لساننا بمرارة مصدرة صوت فـِززز .

كان وداع العائلة بطعم أقراص الفيتامين تلك . فجأة هاجروا تاركين شقتهم لأستاذ في الكلية العسكرية . همست إيريس في أذني :

– ماما زعلانة ، ولا تريد الرحيل ، لكنهم سيأخذوننا إلى بلد اسمه اسرائيل .

احتفظتُ بآخر عود من عين الشمس في الدُرج بجانب شهادة وفاة والديّ .

أتذكر إيريس كلما مررت بتقويم قديم معلّق في الممر ؛ دعاية للخطوط الجوية العراقية . رمزها طائرة بيضاء مرسومة بشكل حديث يشبه شوكة سمينة مطبوعة بالعرض . المضيفة الجميلة تبتلع ريقها في الصورة لتقلل من ضغط الطيران على أذنيها الحساستين . أكياس القيء على يمينها

وتعليمات الأوكسجين على يسارها .

طائراتنا اليوم جامدة موزعة في مطارات بعض الدول العربية . أغلب طيارينا هاجروا ، بينما اشتغل الذين لم يتمكنوا من المغادرة في مطابخ مكاتب الخطوط الأرضية بعد أن تحولت إلى أكبر مركز لتجهيز الأغذية المحضّرة ؛ مع تحيات الخطوط بالأخضر والأبيض .

لم يكن للأستاذ العسكري بنات . كان يسكن وحده بلا زوجة . له حاجبان كثان بشعيرات مدببة ؛ مجموعة من بذور هندباء خيطت سوية وغرست في الجلد بإتقان على شكل قوسين يعتليان العينين . رجل أسود ، أصلع تقريباً . جلدة رأسه تلمع من بين نتف الشعر القليلة الموزعة بتناقض أعلى جمجمته ، كأنه غطاها بمساحات صغيرة من مسحوق فحم هنا وهناك . كان لا يكلم أحداً ، يقرأ كثيراً ، حتى في المصعد - في حالة اشتغاله . عدا تنفيذه للأوامر بأن يرافق العائلة اليهودية حتى باب الطائرة ، فقد كانت أحدى مسؤولياته المدنية هي تذكير الجميع بأن يعلقوا معالم الزينة البراقة في الممرات خلال الاعياد الوطنية ، وإيقاد شمعة أمام باب كل شقة بمناسبة عيد ميلاد الرئيس في شهر نيسان .

كان ذلك قبل أن يبيع شقته إلى أم مازن .

بمرور الزمن ، لم تعد عمارتنا عمارة الأساتذة ، بل أصبح الناس يطلقون عليها ، عمارة أم مازن . شاهدناها لأول مرة وهي تصعد السلم بصعوبة . قصيرة ، مربوعة ، رأسها مغلف بفوطة سوداء تلتحم بدشداشة سوداء وعلى كتفيها تتهدل عباءة سوداء . تشبه فَقمة سمراء تتحرك بتثاقل تحت طيات من قماش منطفيء . تحمل في يدها اليمنى مجموعة من أوراق ، وفي اليسرى كيس شفاف كبير يحتوي أباريق شطف

بلاستيكية ، مماسكها مثل آذان كبيرة ، وأفواهها التي مثل عصي منتصبة ، راحت تثقب الكيس . في منتصف طريقها صعوداً ، لم يحتمل الكيس ضغط الأباريق ، فتمزّق .

تدحرجت الأباريق الملونة وتقافزت من درجة إلى أخرى هبوطاً ؛ تيك تاك تاك توك تيك ، دون أن يصيبها أذى . نادت أم مازن بأعلى صوتها بلهجة ريفية جنوبية على سيدة في أسفل السلم : «بَدْرية ، لـمِّي الأباريج في دربكِ» .

اعتقدنا أنها تاجرة بضاعة بلاستيكية .

كان زوج خالتي يرفض أن أعمل لدى مستشفى الراهبات القريب من الشقة . أعلنوا عن حاجتهم لتوظيف عاملات تنظيف . قال : «لن تنظفي وأنا موجود .»

كنت سأمشي إلى هناك مروراً بتمثال كهرمانة بطلة قصة علي بابا . جفّت هذه السيدة النافورة منذ الحصار وأصبح الحرامية الأربعون ملوثين بصدأ أخضر . أتذكر عندما كنت طفلة صغيرة كيف أخذني أبو غايب لأتعرف على زميله مساعد النحات اثناء عمله على منحوتة أخرى اسمها شهرزاد مقطوعة من منتصفها ؛ لم يكن قد لحم جزءها العلوي بالسفلي بعد . استقبلنا المساعد في الاستوديو مرحباً بأبي غايب قائلاً : «أهلاً بصديق الفنانين أهلاً .» لم يجرح شعوره بوصفه «صديقنا الفنان الفاشل .»

صعدتُ سلماً لولبياً من حديد أسود . وقفت في منتصفه فأصبحت ملاصقة لجذع شهرزاد . يدها المبسوطة عندي . فتحة عينها كبيرة . التقطوا لي صورة تذكاريّة . أردت أن أتسلقها لأدخل في صدرها وبطنها .

سقطت مصاصتي في فجوة عينها .

لو وافق زوج خالتي أن أعمل في المستشفى ، لكنت قد اتخذتُ شارع أبي نؤاس المحاذي لنهر دجلة طريقاً لعودتي مشياً . كنت سأمر بتمثالَي شهرزاد وشهريار وهما يتهامسان . كنت سأتوقف عدة دقائق أتأملهما ثم أتساءل إن كانت المصاصة ما تزال في بطن شهرزاد . بعد ذلك كنت سأغادر خصوصيتهما وأبدأ باجتياز أرصفة قُصفَت فباتت مثل أكتاف مخلوعة .

لماذا يبدو لي كل شيء مرتبطاً بأكتاف خالتي؟! الأسبوع الماضي قالت لها سيدة عجوز :

- دخيل الله أم غايب ، ألا تستطيعين خياطة حشوات للصدر بدلاً من كتافيّات؟ بعضنا بحاجة لنفخ الأمام قليلاً!

أجابتها أم غايب :

- لا أعتقد أنّه سيكون لدي وقت . عندي كفنان ، بعيداً عنكِ ، يجب أن أنتهي منهما .

كانت تشير إلى الأب والابن اللذين انتحرا سوية بعد أن دخلت الحاجة بيتهما ، لأنهما لم يجدا عملاً بعد ثلاث سنوات من المحاولات .

تخيلتُ تلك العائلة قبل انتحارها بأيام تشبه لوحة صغيرة على جدارنا : رجال من قماش ، شمس من خيوط مستهلَكة ، خلفية حامضية ، وكثير من خواء .

تعلمنا في المدرسة أن الصوت ينتقل أسرع خلال الأجسام الصلبة . كنت أضع رأسي على الحافة الخشبية لسريري ، أقرض إصبع جزر وأحاول أن أسمع صدى القضم في جمجمتي . عكس أبي غايب الذي

يكره الأصوات .

فعلاً أصبح شارعنا لا يطاق ، فمنذ أن تحوّل ما كان في زمن الخير محلاً أنيقاً يدعى مركز بيع الأجهزة الدقيقة ، ليصبح هذه الأيام مركزاً لتصليح السيارات ، والمصلّحون الشباب يقودون سيارات الزبائن بأقصى سرعة ، ثم يدوسون على الكوابح لتجريبها . ولأن عمارتنا أقرب إلى نهاية الشارع ، فقد كان تجريب الكوابح عادة ما يتمّ أمامنا ، أما اللافتة المطبوع عليها «احذر مطَبّ» فلم تعد تنفع .

جنّ زوج خالتي من أصوات ، إإإي ي ي ، أو دمم ، التي تصدر من الورشات القريبة . نزل إلى الشارع وبيده فرشاة وصبغ أسود فشطب كلمة احذر وكتب على اللافتة «اللعنة . . .مطَبّ» . ما إن دخل وقد هدأت قليلاً ما بدت لي مفرقعات نارية في رأسه ، حتى جفلنا بعد لحظات معاً «طرااخ!» ، حيث صدم أحدهم مدخل العمارة .

خالتي لا تأبه لما يحدث في الشارع أو بمدخل العمارة ، فكل تركيزها منصّب ، منذ أيام ، على أصحاب الشقة العليا . اقترحت : «لماذا لا نزور الجيران الجدد؟»

قبل أن نغادر الشقة ، عدّلتُ لوحة قد مالت إلى اليمين بشكل ملحوظ . عادة ما أقوم بتعديل اللوحات وموازنتها بحد أفقي بعد أن تقوم خالتي بتنظيفها ، لأنها لا تحسن تعليقها ثانية على الجدار ، بل كثيراً ما تعلّق لوحة في مكان أخرى . كان هذا يزعج زوجها الذي يؤكد أن كل لوحة تنتمي إلى زاويتها الخاصة ، ويعامل اللوحات مثل أولاده ، وعندما يعلقها بنفسه ، يودع كل لوحة في عشها الملائم .

أبو غايب سيشخر بعد قليل في نومة الظهر الثقيلة .

بَدْرية ، خادمة أم مازن ، فتحت لنا الباب . لم يبدُ على وجهها أية علامات تعجب لزيارتنا كأنها في انتظارنا . سحنتها غير ممزوجة الألوان جيداً ، جبينها أغمق من بقية وجهها . تحت عينيها هلالان متعَبان من تجاعيد تشبه مطحون «نومي بصرة» . جسمها نحيف أو دشداشتها عريضة . قالت : «تفضلوا» ثم أدخلتنا صالة الجلوس .

كانت ثمة امرأة تنتظر ، فانتظرنا معها . السيدة جالسة أمامي ، شعرها البني بلون إطار اللوحة المعلّقة خلفها : أنه منظر طبيعي مرسوم بالألوان المائية . فستانها كالحقل في اللوحة ؛ الأخضر الغامق في طرفه الاسفل مُداس والأخضر الأفتح في الطرف الأعلى رطب . كانت تغفو في جلستها ولا تنتبه لدخولنا . تسند خدها السمين على قبضة يدها وتميل برأسها مرتكزة عليها لعدّة دقائق دون حراك .

عندما تكلمت بَدْرية قائلة إن صاحبة الدار ستلتحق بنا بعد صلاة الظهر ، استفاقت السيدة فجأة . قالت : «مرحبا» بعينين من نعاس وخد انغرس فيه نقش من حجر خاتمها .

بعد قليل سألتنا :

- هذه زيارتكم الأولى؟

أجابتها خالتي :

- نعم .

أزاحت السيدة عباءتها عن أكتافها :

- سترتاحون معها . أم مازن إنسانة فاهمة وأسعارها معقولة .

تبادلتُ النظرات مع خالتي . قالت المرأة :

- ما هي مشكلتك؟ أرجو ألا تكون مع زوجك مثلي .

أسئلتها أثارت فضولنا . لكنها مضت تقول :

- على كل حال ، لا توجد أسرار في بيت أم مازن . نحن نحب

طريقتها ، فهي تسمح لكل السيدات أن يستمعن إلى قصص غيرهن . نحن نجلس عادة على شكل دائرة حولها بينما هي تفتح الفنجان لكل سيدة بالدور . ستأتي الأخريات .

لم تكد تنتهي من جملتها حتى رن الجرس مرة ثانية لتمتلئ الغرفة بنساء يبدو أنهّن على معرفة ببعضهن ، أو بمشاكلهن .

سألت سيدة اسمها أم علي سيدةً أخرى اسمها أيضاً أم علي :

- أم علي ما بكِ عزيزتي؟

- اسكتي يا أم علي . تبخّروا .

- ماذا تبخر يا أم علي؟!

- أكثر من أربعمائة مواطن ؛ رجال ونساء وأطفال . أم علي ، لقد قصفوا ملجأ العامرية في الساعة الرابعة والنصف بعد منتصف الليل . قذيفة الليزر نسفت بوابة حديدية ثقلها ستة أطنان . تبخر الجالسون بفعل حرارة بلغت درجتها عدة آلاف درجة ولدّها الانفجار .

غطت أم علي الأولى شهقتها بيدها وهي تتحرك باتجاه الباب . نادت عليها أم علي الثانية :

- أم علي ، إلى أين؟

- إلى العامرية . لديّ أقارب في تلك المنطقة .

اندهشنا . استدارت خالتي نحو امرأة ، بدت هادئة ، وهي ترقب المشهد معنا ، فسألتها :

- لو سمحتِ ، ما بال هاتين السيدتين تتكلمان عن حادثة العامرية التي وقعت قبل سنوات عديدة ، وكأنها حدثت بالأمس؟!

قالت :

- سامحيهما . لقد أختل عقلاهما لفقدهما أعزاء عليهما في تلك الحادثة . أنهما تأتيان إلى هذا المكان مرة كل شهر لتعيشا المأساة مجدداً

دون أن تدركا ما تفعلانه . تظن احداهما ان في استطاعتها الركض إلى مكان الحادث عسى أن تتمكن من إنقاذ بعض ممن كانوا في الملجأ . مسكينتان ، تعيشان حالة مرضية هي أشبه بإعادة الشريط .

حضرت أم مازن . قد تستغني عن وزنها بأقرب فرصة أو سيستغني هو عنها . قالت : «السلام عليكم» فملأ ترحيبها حيّز الغرفة . شقتها بحجم شقتنا لكن جدرانها فارغة تماماً ما عدا اللوحة . أما عندنا ، فجدران بيت أبو غايب تكاد تكون مغطاة باللوحات الزيتية .

وجهها محاط بحزّ من فوطة تتأفف من الحر ؛ قماشها مُقصّب تربطها تحت ذقنها بمشبك على شكل ماس «فالصو» . ينبثق من منتصف وجهها الأسمر فم له شخصية خاصة . كبير ، في وضع ضاحك دائماً ، أسنان كبيرة صفراء ممدودة إلى الأمام كأن أحدهم حاول أن يقلعها بيده ثم عدل عن قراره ، تاركاً إياها بهذا الشكل البارز . عندها نقص في عدد الأسنان وزيادة في عدد الفراغات التي تتدلى منها لحميات بنفسجية .

نظرت إلينا قائلة :

– أهلاً بالضيوف لأول مرة ، لنحضّر الجلسة .

نادت على بَدْرية :

– هاتي القهوة يا بِدُور .

لم نقاطعها . جلسنا على الارض نحيط بها مثل بقية القابعات في عباءاتهن .

قالت وهي تنظر في وجه الجميع بتركيز ، لكن كأنها لا تنظر إلى أحد . صوتها يشبه تقصّف الخشب المحترق :

– أنا أساعد الناس بقابلياتي . لست قارئة فنجان ولا فتّاحة فال . لم أتدرب عند الغجر وكلامي غير محفور في الحجر . عندي مكرمة من رب العالمين ؛ أحس بمشاكل غيري ، لكن لا أتدخل فيها . عندي علاج

للنفس التعبانة وللروح الغرقانة .

اعتدلت في جلستها كأنها تعدل طيات شحم جلست عليها :

- أختي غازيّة أيضاً كان عندها هذه المكرمة ، لكنها أساءت استعمالها . نهضَت في أحد الصباحات فوجدت في يدها رسماً مطبوعاً لنجمة وقمر بلون مربى المشمش . كان من المفترض أن تعالج بها المرضى ، لكنها لشدة فرحها أصبحت تتكلم عن الرسمة وتعرضها على كل الزوار .

قاطعتها امرأة :

- من قال إن هذه معجزة؟ ربما هي التي رسمت النجمة والقمر بالحنة .

أجابت أم مازن :

- بعد شهر بدأ شعر ينمو في النجمة وسط كفها اليمنى ، كأن رب العالمين أعطاها الإثبات . فرحت المسكينة أكثر وصارت تتباهى بها حتى زال الشعر عن النجمة تدريجياً ، ثم اختفت الرسمة . ندمت أختي على أنها لم تحافظ على هذه الهبة التي خسرتها بسبب إعلانها عنها ، لذلك يجب أن نتعامل بيننا بكتمان وسرية تامة . يجب ألا يعرف أحد عن أعمالنا ، وإلا سيخرب الشغل .

عند باب الغرفة ، كانت بَدْرية تقول لخادمة أخرى مرافقة لإحدى السيدات :

- هل سمعتِ؟

- ماذا؟

- قصفوا البصرة . مستشفى ونادي ليلي ومقهى وعيادة ومكتب محامي صارت أرضاً مسطّحة . أما مركز توظيف الخدم فما زال قائماً ، إلا أن زجاجه تكسّر .

قالت الخادمة :

- الحمد لله ، بنت عمي تحتاج وظيفة .

شعَرت أم مازن أنني أتبادل النظرات مع خالتي ، وأمرت لنا بالقهوة ، فانتظرنا دورنا مع المنتظرات .

في هذه الأثناء ، ابتعدت إحدى السيدات عن الدائرة دون استئذان ، وراحت تهيء نفسها للصلاة على جهة . رشقتها أم مازن بنظرة سريعة ، عيناها مثل شقَين صغيرين فتبدو كل العين كأنها بؤبؤ عكر ضيق .

ستصلي السيدة دون سجادة . فرشت قطعة «كلينكس» قسمتها إلى قسمين . أحدهما أمامها لتضع رأسها عليه عندما تسجد ، والثاني وضعته في جيبها خوفاً من أن لا تجد «كلينكس» غداً .

كانت تنوي الصلاة بينما تنوي أم مازن فتح الفنجان الأول .

طلبت من شاربة الفنجان أن تنفخ فيه وتذكر الموضوع الذي جاءت من أجله . قامت أم مازن بوضع يدها على الفنجان لتحبس فيه همسات السيدة . اختفى الفنجان تحت يد «مدبدبة» . كانت الرصعات ما بين الأصابع تجعلها أشبه بيد مراهق سمين .

فتحت فمها :

- يقول الفنجان إنك تعبانة من موضوع خاص له علاقة بزوجك . إنه لم يعد يقترب منك أو يتقبلكِ ، صحيح؟

سارعت السيدة تجيبها :

- صحيح جداً . ماذا أفعل؟

- يجب أن تصبري . فهذه ليست أول مرة يرفضك فيها زوجك .

السيدة تنفعل :

- كان رائعاً معي حتى ضيّق علينا الحصار . بعد ذلك أخذ يهملني

تماماً . عندما أكلمه يدير وجهه إلى الجهة الأخرى .

سألتها أم مازن بنبرة جديّة :

- هل جربت حجاب المحبة؟

- بالطبع . لكنه لم ينفع .

- يجب عدم الحديث بالحجاب ومتى تم عمله ، وإلا بطل مفعوله .

- أعلم ذلك ولم أنبس ببنت شفة لأحد .

- طيب ، هل جربت شراب المودّة؟

- نعم . سقيت زوجي به دون علمه ، لكنه لم يتحرك .

-هل عندكم بنت جيران حلوة؟

- كلا .

سقطت الماسة فجأة عن فوطة أم مازن في الفنجان . توقّفت أسئلتها للحظات ، وراحت تعيد تضبيط الفوطة لتغطي لحية صغيرة بيضاء تحت ذقنها الشحمي .

استأنفت :

- مشكلتك سهلة ولا داعي لطرق أبواب السَحَرة . الفنجان يُريني إناء من شاي معتّق وقطرتين من لبن حامض ؛ هذه هي رائحة نَفَسكِ . متى هي آخر مرة قمت فيها بتفريش اسنانكِ؟

أحنَت السيدة رأسها بخجل :

- المعجون غالٍ يا أم مازن . المستورد مستحيل والمحلي مثل دهن السيارات .

- حلّك عندي .

راحت أَم مازن تعرض على المرأة معجون أسنان مستورداً لقاء علبة شفرات من نوع BIC ربما تستخدمها لحلاقة لحيتها الصغيرة .

لم نر صاحبة الخد المنقوش بعد ذلك اليوم .

تُرى هل تقرأ أم مازن الأخبار في القهوة؟ هل تبصر في الفنجان صليباً أحمرَ وأطفالاً جياعاً ينسون جوعهم بمص أصابعهم؟

اقتربت المرأة الثانية من أم مازن ؛ وعلى وجهها علامات توتر عميقة . كانت أصابعها ترتجف وهي تقدم فنجانها بعد أن همست فيه مصيبتها . بدأت أم مازن بالتحليل مركّزة في وجه المرأة فزادت من ارتجاف يدها .

قالت لها أم مازن بثقة :

- يوحي إليّ الفنجان أنك هنا نيابة عن غيركِ . إن صاحبة الفنجان في هَم وحزن ، تعاني شيئاً وتتأثر به كثيراً ، لكنها تخافه حتى لا تكون الملامة عليها أو الشماته بها . كما أرى نافورة ماء وصبية جميلة .

انهارت المرأة قائلة :

- نعم ، نعم يا حجيّة ، الصبية هي ابنتي ، والنافورة هي سبب فقدانها عذريتها وهي ما زالت في عمر الورود . إنها وحيدتي ، وقد ربيتها بعرق جبيني ودموع العين بعد أن قتل والدها في الحرب .

مسحت أنفها المحمَّر بردن فستانها ، ثم أكملت قصتها :

- في إحدى المرات زرنا أحد البيوت نؤدي الواجب . أرادت ابنتي قضاء حاجتها فدخلت إلى حمامهم الإفرنجي . لم نسمع بعد ذلك إلا صرخاتها ، وكانت الدماء تسيل منها . كانت قد أساءت استخدام مرحاض التشطيف الأجنبي فانبثقت نافورة الماء بكل قوتها فيها . فقدت عذريّتها في حمام الناس . ماذا أفعل يا حجية ، ماذا أفعل؟!

راحت أم مازن تتنفس بثقل ، وتتأمل طويلاً ، وهي تقرأ الفنجان بسرعة . دخل درس الرياضيات في جيبي ؛ إن المتغير ألف (تنفس أم مازن) له علاقة بالمتغير باء (تأمل أم مازن) ، وبما أن المتغير باء لَه علاقة بالمتغير جيم (قراءة أم مازن للفنجان) ، إذن فالمتغير ألف أيضاً له علاقة بالمتغير جيم . هكذا تعمل أم مازن ؛ نظرية التَعـدّي في الرَياضيات الحديثة .

كانت ترشقني بتلك النظرات الضبابية لكي أبتعد عن طريقها وهي تفكر .

خاتمها ، الذي يزينه حجر أسود ، يذكرني بخاتم الرجل الذي باع لي بعض الكتب أمس . تجولتُ في سوق السراي بحثاً عن بعض الروايات . عثرت على ذلك الـ«عمو» في شارع المكتبات الذي يتحول تدريجياً إلى شارع لبيع الخضراوات . تباع الكتب هذه الايام بمقياس المتر ، حيث تكدَّس عمودياً ثم تقاس فتعرَض بالجملة . تأملته للحظات من بعيد وأنا أتمنى لو يخططه أحد الفنانين من أصدقاء أبي غايب بقلم الفحم .

منظره لقطة أزلية لرجل كهل يشرب الشاي في أحد أسواق بغداد ، وهو جالس على صندوق خشبي . قدماه منفرجتان قليلاً ، وظهره يتحول إلى حدبة خفيفة وهو يمد رأسه للأمام ليرتشف شايه . كان قد صبه من الإستكان في صحن الإستكان ليبرد . الشفتان ترتجان إلى الأمام لترتشفا الشاي المُبرّد من الصحن . «الجرّاوية» أعلى رأسه . يرتدي سترة فوق دشداشته . اللحية بيضاء . لا يفكر بشيء سوى طعم الشاي .

عندما عدت إلى الشقة قرأت في الصفحة الأولى من كل رواية إهداءاً خاصّاً «إلى ابنتي الحبيبة سامية» . «إلى صديقتي الغالية نجوى» . «إلى أبي مع حبي» .

ندمت . كيف أشتري حاجات غيري من المحتاجين على الأرصفة؟!

سألت أم مازن السيدة المتأزمة :

- كم عمر ابنتكِ؟

- عشرون .

- إذن تسقينها هذه الخلطة من قرن الغزال والزنجبيل عشرين مرة لتهدأ نفسيتها . وعندما يتقدم لها عريس تأخذينها إلى قريب لي في منطقة رخَيتة حيث يجري لها عملية بسيطة . الكتمان واجب . هل ستكتمين السر؟

- طبعاً يا حجية .

- لا أستطيع أن أعطيك اسمه الحقيقي ، لكننا نطلق عليه «خفّاش الليل» . لا تزوريه إلا بعد هبوط الظلام . سيعالج عذرية ابنتك بإتقان فهو طبيب ماهر متقاعد . سيعوضها بغشاء من جناح الوطواط .

- أطال الله عمركِ .

- بالمناسبة ، لا تخافي أنت وابنتك من الأقفاص العديدة التي يحتفظ فيها بالوطاويط في مدخل البيت . إنه يستخدمها للعمليات فقط . لكن لا تؤجلي موعد الزواج بعد العملية أكثر من أسبوع . مفهوم؟

- مفهوم .

- توكلي على الله ، والدفع عند بَدْرية في المطبخ .

شرعت أم مازن تدوّن لها عنوان قريبها الدكتور ، بينما هي تتلولب في حديث اجتماعي مع الجالسات :

- كان والدي ، سنة ١٩١٢ ، يكتب بقلم القصبة ، والحبر كان خلطة من قشور الرمان منقعّة مع مسامير صدئة مضافاً اليها «الصخمان» من شمعة تحترق تحت شريحة قديمة من معدن . كان يكتب على صفيحة هي تَنَكة نفط ، ثم يلعق الأخطاء بلسانه لعدم وجود مسّاحات في ذلك الزمان . أما خطه فكان مذهلاً ؛ يذبح الطير دون دم .

كانت تهز رأسها يميناً ويساراً ، وتضيف :

- واليوم ، أجد حالنا مضحكاً ، إن العالم بأسره يحرمنا من أقلام

الرصاص لأطفال المدارس ، بحجة أنه يدخل في صناعة الأسلحة! ربما يجب أن أبيع سر خلطة والدي للناس في المستقبل القريب .

تعقّب إحدى الجالسات ، معصمها يدور حول نفسه فتتحرك يدها على شكل دائرة :

- الله يرحم أيام التعليم الإلزامي والقرطاسية المجانية والزي الموحّد .

ثم تسأل بتشوق :

- أم مازن ، هل لي أن أسألك من أين لك هذه القدرة على قراءة حال الناس في فنجان؟

- كنت في سن الثامنة عندما بدأت بقراءة الفنجان للكبار ، أرى فيه كتابة دون قهوة . القهوة حجة . عند فتحه كنت أسميّ باسم الله والرسول(ص) .

النساء يرددن خلفها كالصدى : « صلى الله عليه وسلّم» .

تعود إلى قصتها :

- عندئذ أبدأ بقراءة جمل وصور تدلني على مصائب أصحابها . أما السحر فقضية ثانية . أنا أتعامل بالخير وليس بالشر . أستخدم قراءة القرآن في عملي وأحرّم أية وسائل أخرى . أنا أحب أن أعاون التائهين عن الدرب ، الضالين ، المظلومين ، والذين تضيق بهم الدنيا لأي سبب كان ، خاصة التي فقدت زوجها تحت تأثير السحر من أطراف أخرى .

سألتها جالسة أخرى من الجالسات :

- كيف تفعلين ذلك؟

- أنا أبطل فعل السحر بتسليط النور الأبيض عليه . إن قوة الإيمان هي التي تتغلب على الشر . هم يستخدمون الجان ، ونحن نحارب أعمالهم الخبيثة ، طبعاً ، «وجعلنا لكل شيء سببا» .

النساء تردد خلفها : «صدق الله العظيم» .

تضيف أم مازن :

- ان الدنيا دوّارة يا أختي ، إن كنتِ غنية طول عمرك فلن تعرفي مأساة الفقير ، ولو كانت الدنيا كلها خيراً لما عرفنا كيف نحارب الشر عندما نتورط فيه . أليس كذلك؟

تجيبها النساء من كل جانب :

- فعلاً .

- طبعاً .

- صحيح .

تتعدل أم مازن مرة أخرى فوق طيات الشحم قائلة :

- كما إنني أقرأ الكف ، لكن في الفترة الصباحية حتى الضحى فقط . أرجوكم أن تعفوني من قراءته بكثرة لأنني أحرّم قراءة المستقبل ، «كذب المنجمون ولو صدقوا .»

تردد النساء بصوت واحد وبدون تفكير : «صدق الله العظيم .»

هل نظرَت في كفها هذا الصباح؟ خط العمر سينبئها أن معدل أعمار الناس هبط عشرين سنة للرجال وأحد عشر سنة للنساء ، بسبب تلوث البيئة بالإشعاع نتيجة قصف مركز الطاقة الذرية .

جاء دورنا . خالتي توترت للحظات ثم قالت :

- آسفون على الإزعاج ، نحن جئنا دون موعد لنتعرف على حضرتك . نحن سكان الطابق الثالث .

سألتها أم مازن :

- وهل يوجد ضير في أن يتناول أهل الطابق الثالث القهوة معي لأفتح لهم؟

اضطرت خالتي أن تهمس في الفنجان . كانت أم مازن تنظر إليّ طوال الوقت ، وكنت أنتظر ماذا سترى فيه .

قالت :

- بقع كثيرة ، وألوان تطير في الهواء .

كدت أنفجر من الضحك لكنني لم أجرؤ . وجه خالتي أصبح بحجم صحن فنجانها . استأنفت أم مازن :

- أنت انتظرت سنوات طويلة لتحقيق أمنية في نفسك لكنها لم تتحقق .

قلت في سري : «أحسنتِ يا أم مازن ، أدفأ ، أدفأ . . . سأرمي لك بدليل . صَدَف ، واحدتها صَدَفة ، غلاف اللؤلؤة ونحوه . الصَدَفيّات ، حيوانات رخوة لا عظام لها تعيش في الماء ، جلدها عضلي سميك . الصُدّاف ، داء الصدف ، مرض جلدي . المصدوف ، المُبتلى بالصُدّاف . وأنا ابتليت بهذه الزيارة . هيا يا خالتي ، أريد أن أترك هذا المكان فوراً .»

لكن أم مازن لم تضف إلى تحليلها سوى قولها :

- على كل حال فنجانك يطمس في بحر كبير وتغرق معه رموزه . زوريني مرة ثانية عن قريب وسأفتح لك مرة أخرى .

ثم أعلنت على الحاضرات :

- بالمناسبة ، أنا لا أستقبل الرجال ، أو المسيحيين أو نساء أخريات غير مسلمات ، بلا حرج .

قبل أن تنهي جملتها الأخيرة وجدت نفسي عند باب الخروج أجرّ خالتي من يدها . كف من السيراميك الأزرق معلّق في المدخل استوقفني . تسبح في الكف عيون كثيرة صغيرة في مركزها سبعة ثقوب . تحتها شريط من كلام بارز «من عيني وعين خلق الله . . . من عين أمك وأباك . . . ومن عين جار الحذاك . . .»

الفصل الرابع

خالتي تتنهد :

- وين كنّا . . . وين صرنا!

عادة تكون هذه جملتها الافتتاحية لمرحلة تذمر جديدة . تعلمتُ ذلك من زوجها ، فهو يدرك متى ستبدأ احدى حالاتها التي يطلق عليها نظام النَقّ . يؤكد أنها إنسانة لا تستطيع التأقلم مع الظروف ومصرّة على أن تعيش في الماضي . تعلمتُ منه أن أفهم أمزجتها ، بالإضافة إلى القليل عن الرسم . كان يضع زوجته في خانة «التعبيريين» عندما يحل عليه مزاحه النقدي . هي لا ترى حاجة إلى أن يعلمني الفن ، بما أنها ستحتاج إليّ لمساعدتها في خياطة الكتافيّات .

كنت أرفع ورقة من سلوفين ملون شفاف إلى عينيّ ، وأنظر عبر غلاف حلوى MACKINTOSH منقرضة إلى حيث تجلس : «خالتي ، أراكِ فستقية» . بصرها يتنقل ما بيني وبين قطعة قماش لإحدى زبوناتها تطرز عليها زخرفة عربية .

قلّ ما تغير مكان جلستها عندما تعمل . مقعدها مستقر تحت لوحة

رجل يشبه البوذا ، أصلع ومغمض العينين . ثمة شاقول بناء يتدلى فوق القديس . عندما ترفع وجهها باتجاهي تبدو كأن البوذا جالس على رأسها .

قلت لها :

- الممرضة إلهام من الطابق الثاني ستطلب منك أن تخيطي لها فستاناً .

- أما تزال ساكنة وحدها أم أنها وجدت من يسكن معها؟

- ما علاقة ذلك بالفستان؟

- لكي أقرر ؛ هل أعمل لها الأزرار من الجانب أم من الظهر؟

حدقتُ في الأرض تحت قدمي . تسلل كلام خالتي بين بقع غريبة الأشكال على البلاطات ، تخيلتها حيوانات من كوكب آخر . رأيت فيها تفاحة ثم سمكة . هذه البقعة على شكل وجه وتلك تشبه طائر الكناري . ولو استعرت تلك الدائرتين من البلاط المجاور ودمجتهما مع هذه البقعة المستطيلة تقريباً فسأحصل على سيارة مضحكة .

- الوحدة صعبة يا دلال . الحروب خطفت الكثير من الرجال . زبوناتي يشكين من ذلك . احداهن اعترفت لي أنها لشدة وحدتها تحب أحياناً أن تتخيل أن ستارة غرفة نومها ، عندما تعبث بها نسمة هواء ، تصدر حفيفاً هادئاً يجعلها تغمض عينيها . تتخيل أن هذا حفيف دشداشة زوجها القادم في ظلمة الغرفة إلى فراشها . مع العلم أنه توفى قبل سنوات عديدة .

بينما كانت خالتي تتحدث ، اشتقتُ فجأة لأمجد . كنا نلعب معاً في الصف الثاني الابتدائي ، وبعد عطلة نصف السنة جعلته خطيبي . لم أكف عن التفكير به منذ أن علق أبو غايب هذه اللوحة من نحت

برونزي على العمود المواجه لغرفة الجلوس .

أنا وأمجد كنا ننظر إلى العالم من خلال قاعدة قدح . بعد أن ننتهي من شرب عصير ماء الورد ، الذي تجهزه لنا أمه الجميلة نوال ، كنا نستخدم الأقداح كمنظار بحري ، فنرى بعضنا مشوهين ومقلوبين بأنوف هائلة مموجة . وعندما ننظر إلى أخويه التوأمين نضحك أكثر . ياسر ونادر لم يبلغا الثالثة بعد ؛ مخلوقان حليبيان يبتسمان لنا بوداعة من الطرف الثاني للأقداح . زوجان من عيون «بندقية» تومض وتلوح لنا . بعد ذلك كنا نركب دراجته في حديقة بيتهم .

لم يعد أمجد معي في الصف الثالث الابتدائي . ولم تعد أمه موجودة ولا التوأمان . ذكر الخبر في جريدة الجمهورية أن الطائرة المتوجهة من فيينا إلى بغداد انفجرت إثر ارتطامها بجبل في سوريا . هزأ طلبة الصفوف العليا بالمقال ، فتهامسوا : «لم ترتطم الطائرة بجبل بل هي عملية اغتيال مدبرة لوالد أمجد لأنه كان يعمل في المقاومة الفلسطينية» . تبع الخبر لائحة المفقودين في الانفجار . قرأت اسماءهم ، ثم جلبت قدحا لأقرأ الخبر مرة ثانية ، وثالثة ، من خلال قاعدته . أول توأمين عرفتهما في حياتي ينفجران . ياسر ؛ بُمْ . . . نادر ؛ بُمْ . . .

تذكرت كيف ضربتني ست سُهيلة معلمة اللغة العربية عندما مازحتُ أمجد مرة . الآن مات مع أمه الجميلة وأخويه . أنا سأضرب ست سُهيلة هذه المرة . رفضَت أن تشرح لي كلمة «اغتيال» وأمرتني أن أحدد من أسئلتي الكثيرة . لا تكف عن اللعب بصدرها القبيح من تحت قميصها في درس العربي . تتكلم عن حرف الجر وتجرّه . كان ذلك في السبعينات .

اللوحة جامدة متحركة . ملاك يطير في فضاء من برونز يحمل طفلين . الملاك سيدة تحتضن رأسين لطفلين على شكل ثديين . كل ثدي

هو رأس أحد الطفلين . شعرها من برونز يطير . كتفاها من برونز خلف كل كتف يلمع جناح . عندما تصل إلى هناك ستعطي لكل طفل رأسه وستبقى بلا ثديين . بعد قليل ستقطع جناحيها وتعطي لكل طفل جناحاً . سيطير التوأمان . سيحلقان ويتركان أمهما خلفهما تحتضر على جبل البرونز .

أتمنى لو يركب أمجد دراجته ويخرج من ذاكرتي مبتعداً .

يعود بي صوت خالتي إلى حيث نجلس :

- أما البائعة التي تمدني بخيوط التطريز ، فهي تخاف جداً من الوحدة إلى درجة أنها لا تضع بابوجها تحت السرير .

- لماذا؟

- لأنّها تتوهم أن ثمّة أحداً يرقد تحت السرير ماداً قدميه من تحت حافته . تقول إن الجزء البارز من البابوج يخيفها .

- لماذا لا تضعه خارج الغرفة قبل نومها؟

- تتخيل انه سيُسرق .

استأنفت بعد قليل :

- لديّ زبونة أخرى لا تكف عن احتضان وسادتها بكل قوتها قبل النوم حتى تدفئها ، ثم تترك الغرفة لتجلب لنفسها قدح ماء . عندما تدخل إلى الفراش ثانية تحتضن وسادتها المُدَفأة وتقول : «تصبح على خير حبيبي .»

- من هو حبيبها؟

- زوجها المفقود في المعركة .

قلت مازحة :

- لماذا لا نعـرض هذه المشـاكل على أم مـازن ، ربما عندها الحل أو العلاج لهن؟

سـقطت إبرة التطريز من يد خالتي ، وتدلت من خيط أحمر على حضنها . لمعت عيناها قائلة :

- والله فكرة يا بنت اختي!

يبدو أن خالتي لم تنم جيداً ليلة أمس . نومها خفيف عادة ، وأقل حركة في البيت يمكن أن توقظها . حساسة هي إلى درجة أنها توقّت أنفاسها مع أنفاس زوجها ؛ تحاول أن تشهق مع شهيقه وتزفر مع زفيره ، أولاً لكي تنتظم أنفاسهما معاً فتتمكن من أن تنزلق في إيقاع نومته ، وثانياً لكي لا تضطر إلى أن تشهق زفيره ، الذي يشبه رائحة تينة تأخر موعد قطفها فسقطت عن الشجرة على تربة متفسخة .

زوجها يتحسس بالمقابل من حساسيتها . يذكّرها ، باستهزاء من جسدها الضعيف ، كيف أصيب بالرشح في الشتاء الماضي لأنها فتحت باب المُجَمدة في شهر كانون الأول دون أن ترتدي ملابس تحتية «الفانيلّه» . في إحدى الليالي ، فتح زوجها باب الثلاجة الصغيرة في غرفة نومهما فأيقظها ضوؤها الخافت ، وسهرت حتى الصباح .

عاداتها مزاجية غريبة . عندما تضع علبة المناديل الورقية في الدُرج تؤكد أن منظرها غير لائق ، وأحيانا تضع جهاز التلفون خلف الأريكة لأنها تعتقد أن منظره يشوه تناسق الألوان في صالة الجلوس ، وعندما يرّن تقول له بصوت أجّش : «اسكت ايها المزعج .»

لكن اكثر شيء يفقدها صوابها هو قشور زوجها التي تتطاير في كل أرجاء الغرف . بعصبية تهز رأسها الذي لا يناسب كتفيها . أحياناً يتهيأ

لي أن رأسها كبير ، وأحياناً أتأكد أن مشكلتها هي صغر كتفيها . حتى دشداشة نومها لها كتافيّات ثخينة .

نحن لا نتشابه في هذه العائلة . العامل الوراثي الوحيد ، الذي يجمعني بخالتي هو إصبع قدمها الصغير . لا ينثني . المفصل مفقود بالولادة . قبل أن أخلد إلى النوم كنت أرفع ساقي إلى أعلى وأمد قدمي اليمنى ؛ أحنيها إلى الأمام وإلى الخلف . لكن ، مثلها ، إصبعي الصغير لا ينثني .

أما أبو غايب فله كتفان ضخمتان مثل أكتاف بطل سباحة . يحاول أن يرسم ، وهذا هو مدخل زوجته إلى مضايقته . بينما يتهيأ للرسم تبدأ بقلع شعر سيقانها بعجينة من السكر لتجذب انتباهه . بالرغم من ذلك ، يحاول الاستمتاع بموسيقى الفصول الأربعة . تجاهل حركتها لفترة ثم قال لها :

- التقيت بأم مازن في مدخل العمارة ، يا لها من مخلوقة غليظة! قالت لي بكل وقاحة إنها سترسل لي علاجاً لحالتي ، ونحن لم نكد نتعارف .

فأجابته خالتي :

- نعم يبدو أنها متمكنة في مهنتها . سمعنا أنها تعالج الكثير من النساء في شقتها .

- لا أرغب في أن أراكما عندها . قلبي لم يطمئن لها .

سألتُ زوج خالتي :

- هل سمعت شيئاً عن الطفل في البيت الملاصق لعمارتنا؟

- كلا ، لماذا؟

- يقولون إنه مات . اختنق بعلكة وهو يضحك . كان يتدافع مع اصدقائه فسقط على ظهره وابتلعتها قصبته الهوائية . سيارة الإسعاف وصلت متأخّرة .

- يا للخبر الفظيع!

- هل صحيح ما يقولونه من أن العلكة تستغرق أربع سنوات في الأمعاء حتى تنهضم؟

- ربما يا دلال ، لست متأكداً .

- وهل صحيح ما قالوه أيضاً من أن أمه ، لشدة فزعها ، تساقط النمش عن خدّيها؟

راح زوج خالتي يفرك جبينه بيديه . استأنفتُ :

- أما والده فهو في السجن لأنِ صديقه أخبر المسؤولين أنه يملك طبقاً لاقطاً لمشاهدة محطات التلفزيون عبر الأقمار الاصطناعية ، مخبّأً على السطح ، يركبه ليلاً فيتفرج على أخبار العالم عن طريق البرامج الفضائية . يقولون إن صديق الأب حصل على مكافأة لقاء مصادرة الطبق وأسلاكه .

- من أين لك هذه القصص؟ أليس من الأفضل أن تلهي نفسك بالرسم؟

قامت خالتي لتغلق التلفزيون ؛ تلاشت لقطة للرئيس وهو يقلّد مجموعة من ضباطه أنواط الشجاعة ، فانقطع صوت التصفيق فوراً .

اقترحت :

- أو بالتطريز .

بَدْرية تدق الباب . في يدها رسالة من أم مازن . قلت لنفسي :

«كيف تسمي ابنها مازن؟ ألا تعرف أن اسمه ، في القاموس ، يعني بيض النمل؟!»

كانت خالتي تقرأ بصوت عال :

- للجلد وأمراضه ، تؤخذ قبضة من الغلاف اللحمي الأخضر ، الذي يغلّف القشرة الخشبية لثمرة الجوز . تقطع ثم تغلى في ليتر من الماء حتى يذهب نصفها . تصفى بقماشة رقيقة ثم يضاف اليها ملعقتان كبيرتان من العسل . تحرك حتى تذوب وتمزج كلياً بالماء . يستعمل الحاصل طلاءاً لمعالجة شتى أنواع القروح الجلدية والجرب وداء الثعلبة واللثة الدامية .

وقفت الاثنتان بدهشة ؛ بَدْرية صُعقت لمنظر اللوحات التي تحيطها من كل جانب ، وخالتي صعقت لمحتوى الرسالة . كانت بَدْرية تقف تحت رسم لامرأتين بالحبر . إحداهما إلى اليمين تحمل على رأسها صحناً على شكل نصف هلال . إلى جانبها سيدة فوطتها عبارة عن مجاميع من أنصاف أهلّة تتهدل من تحت وجهها الدائري البني إلى الأسفل . ريفيتان تتبادلان نميمة تتساقط من الذقن فتملأ الفراغات بين كل هلال وآخر في طيات الفوطة .

قالت بَدْرية :

- ما على الرسول إلا البلاغ .

صعد صوتها الحافي معها على السلالم إلى الطابق العلوي .

فتح أبو غايب «بوستراً» لمّاعاً وفرده على الطاولة : فتاة جزعة في غرفة نومها تحمل على كتفيها رأس عجوز . حيّة صفراء تتسلل من تحت باب . عيون كثيرة مثل كرات زجاجية تتناثر في اللوحة . أنابيب نفط ممتدة إلى ما لانهاية . جندي يصرخ ارقاماً ، وشفتاه مكورتان تقولان NO .

اما باقي المقاطع ، فهي احتفالات كآبة وحمامات منتوفة .

نظر اليّ وقال :

- عنوانه الحصار .

أفلت البوستر من يده مرة أخرى ليعود إلى وضعه الطبيعي ملتفاً حول نفسه على شكل اسطواني . جاء زوج خالتي بسلة خياطة ليضعها على إحدى زوايا البوستر ، وعلى الزاوية الأخرى وضع تمثالاً صغيراً . في تلك اللحظة انقطعت الكهرباء . أضاء أبو غايب شمعة وتركها عند البوستر . جلست في مكاني أتفرج على الحائط أمامي . كانت السيارات تمرّ في الشارع فتُسقط اضاءتها على الجدار ، وأنا أُلهي نفسي بمساحات ضوء تمسح الجدار بين فترة وأخرى مع مرور السيارات .

ألقيت نظرة على خالتي وهي تحدق في الظلمة . لمّت خيوطها واختفت من أمامي . اقتربتُ من الشمعة . قررت أن أطفئها على غير العادة . حبست الهواء في رئتيّ وقلصت صدري فأطلقت نفخة قوية من أنفي بدلاً من فمي لأطفئ بها الشمعة .

الظلمة تمددت حتى الصباح .

صاح زوج خالتي من الحمام :

- هجوووم!

ركضتُ إلى حيث يقف . قال متفحصاً جسمه من كل ناحية :

- ما الذي يحدث؟ لقد أصيبت أذني .

وقفت أتفرج . قال وهو يفرك أذنه ويعبث بشعره :

- من الآن فصاعداً سأضطر إلى إرتداء ملابس فاتحة اللون لكي لا تظهر هذه القشور على القماش عندما تبدأ بالتساقط .

فجأة انفجر ضاحكاً ، كانت نظرة شيطانية تنعكس في المرآة .

سألني :

- دجاجة اغتسلت بشامبو HEAD AND SHOULDERS فماذا حصل لها يا دلال؟

- ماذا؟

- اصبحت تعطي بيضاً دون قشرة .

ناولني تقريراً طبياً . طلب مني أن أقرأ له الملحق . أغلقت غطاء المرحاض ، وجلست فوقه :

- أسباب المرض غير معروفة ، إنها حالة فردية تعتمد على بناء الجينات في جسم الإنسان ، لكن يرجح الأطباء أن القلق اليومي هو أحد المسببات الرئيسية . عادة لا يمكن التخلص من المرض .

لم نمكث طويلاً . ضرب الباب بقدمه ، جرني من يدي قائلاً :

- ضقت ذرعاً . هيا بنا .

- إلى أين؟

- سنشتري مَلِكة .

نزلنا إلى الشارع باتجاه كرادة داخل . كان يمشي كأنه في سباق ، لا يتوقف لأي سبب كأنه يحاول التركيز على الوصول قبل غيره ، أنه يقودني من يدي ممسكاً إياها بكل قوة ، سأتفرج على المارة .تساءلتُ : «لماذا تتصف أم العباية والقطة بالصفة نفسها؟! تبدأ بعبور الشارع ، وعندما تبلغ منتصفه تتذكر أن تنظر في الاتجاه المعاكس لعل سيارة قادمة . فتتفاجأ بأن السيارة قادمة بالفعل ، وبدلاً من أن تركض مسرعة لتكمل عبورها ، فإنها - لسبب ما غريب جداً - تشرع بالعودة إلى

الرصيف الأول الذي قدمت منه . وغالباً ما تدهسها السيارة .»

مررنا بمحل كان لبيع الحلويات . السكر مفقود ، لذا تحوّل إلى محل لتنظيف الملابس بالغسيل الجاف . يسمونه «درب التجار» . في هذا الشارع اختفى بليلة واحدة ، وبشكل عجيب عدد من تجار السكر والطحين . أتهِموا بتخريب اقتصاد البلد ، لاحتكارهم المواد الغذائية الأساسية ، وتلاعبهم باسعارها في السوق المحلية . بعد إعدامهم ، صدر عفو عام متأخر بحقهم!

عند بابِ الدخول لأحدى المصارف الفرعية ثمة طابور من موظفين يحملون رزماً من النقد المعروف بالطبعة السويسرية ينتظرون استبدالها ، ومن باب الخروج يحمل غيرهم أكياس تسوّق تختنق بكميات هائلة من رزم تم طرحها كنقد بديل صناعة محلية . ذكرتني النقود الحكومية الجديدة هذه بالأوراق الورقية الملوّنة التي كنا نستخدمها في طفولتنا في نادي العلوية . كانت فئة المائة فلساً بلون زهري ، وفئة الخمسين فلساً لونها أخضر . كنا نشبهها بنقود لعبة MONOPOLY .

بعد قليل مررنا بقاعة تذكرت أنها كانت معرضاً دائماً للرسم . لا توجد إمكانية لهذا النوع من الفعاليات حالياً لذا تحولت إلى محل لبيع زوامير وأجهزة إنذار . لا أحب أصوات أجهزة الإنذار الحديثة التي تُفزع سارقي السيارات والبيوت . أطلقت على هذا المحل اسم «شبطيط» ؛ كلعبة الأطفال حيث يقيمون مباراة للنفَس الطويل . الفائز هو اللاعب الذي يصيح «شبطيييط» لأطول فترة ممكنة .

بلغنا مشتلاً يختفي خلف صيدلية شبه مهجورة . خرج مهندس زراعي اسمه فتحي ، وأخذ يرحب بأبي غايب بحرارة . كان صوته يعاني ، وتنفسه مثل خشخشة . تخيلت رئتيه مجموعة من خراطيم ناعمة تمرر أوكسجيناً صلباً بدلاً من الهواء . جلسنا على مقاعد خشبية

واطئة وسط نباتات متنوعة .

سأله زوج خالتي :

- هل نبدأ؟

- نعم ، على الرحب والسعة .

نادى على زوجته ليطلب لنا شاياً :

- في البداية يجب أن تفهم الفرق بين مجموعة وأخرى . أولاً ، مجموعة النحل الأصفر تنتشر في حوض البحر المتوسط ، وتتميز بأن طباعها شرسة ميالة إلى التطريد .

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن النحل يخرج من مجموعته ليكوّن مجموعة أخرى .

- وكيف نستعيده؟

ضحك فتحي نافثاً صوته :

- لا داعي للعجلة ، هذه جلستنا الأولى يا أخي .

وصل الشاي . استأنف :

- أما مجموعة النحل الرمادي فتتواجد في شرق أوروبا ، ويمثل هذه المجموعة النحل القوقازي .

راح أبو غايب يتشوّق إلى المزيد ، وأنا أتفرج على زوجة المهندس بينما هي تزين شمعة ضخمة لعرسٍ شعبي . شرائط حمر براقة تلتف حول الشمعة تنتهي بتنورة من الكَشكَش المصنوع من نايلون أزرق فاقع .

- وبالنسبة لمجموعة النحل الأسود ، فهي تنتشر في شمال غربي أوروبا وشمال أفريقيا .

- ماذا تقترح؟

تركتُ مقعدي . اقتربت من زوجته . فجأة انطلق طفل يركض - ماداً يده - خلف دجاجة مسرعة ، كأنه يريد أن يدخل إصبعه في ثقب

مؤخرتها . شرحت لي أم الولد أنه كان يراقب والده ، الذي يملك زوجاً من طيور الفنجز الناعمة ، ولم تتمكن الأنثى من وضع بيضها ، فساعدها فتحي بأن وضع طرف إصبعه في مؤخرتها .

ابتعد ابنها راكضاً . قالت :

- على كل حال فرحنا بالبيض ،لكن نقص الكلس عند زوج الطيور جعلها تأكل بيضها . أما ابني المسكين فبات يعتقد بأنه لو وضع إصبعه في مؤخرة الدجاجة فإنها ستضع بيضاً على الفور . أنه يتمنى أن يأكل بيضاً . منذ مدة وهو محروم .

استمّر زوجها بالحديث مع أبي غايب :

- من السلالات الشائعة حديثاً ، سلالة النحل الكرنيولي . تكون شغالة هذه السلالة قوية والملكة نشطة في وضع البيض .

سعل الرجل على حين غفلة وبصق شيئاً في منديل أخرجه من جيبه الخلفي :

- تتميز هذه السلالة بقلة استهلاكها للعسل في فترة الشتاء ، وتتحمل البرد ، ولا تميل إلى السرقة .

أعاد المنديل المتكوّر إلى مكانه . رفع سبّابة رطبة باتجاه أبو غايب قائلاً بكل جدّية :

- كما انها معروفة بهدوء طبعها فهي لا تلسع إلا في حالة الدفاع عن مسكنها .

تتبعتُ آثار الطفل في التراب . وجدته يتبول في حفرة . لم يأبه لوجودي ولم يظهر أي إمارات حياء . نظر اليّ ممسكاً بقضيبه ، وقال :

- أمي قالت إنني شربت ماءً كثيراً اليوم .

ابتسمتُ . الدجاجة تهرب من فتحة في السياج الخشبي . التفت الطفل نحوي مرة أخرى ، قال مشيراً إلى عضوه :

- أبي عنده واحد كبير مثل هذا .
لم اجد تعليقاً غير كلمة :
- صحيح؟
أجابني وهو يعيده إلى فتحة بنطلونه المتسخ :
- صحيح ، لكن مال بابا عليه أهداب كثيرة .
عدتُ أدراجي . عندما أطال المهندس شرحه عن أنواع النحل شعرت أن التمساح القطني الصغير المطرز على ثوب أبي غايب بدأ يتثاءب .
أخيراً تصافحا :
- شكراً للمعلومات . سأعود إليك في المستقبل القريب .

رحت أتفرج حولي . الشمس تلعق المنازل في الخارج . ألسنتها الصهباء تلعب بين خطوط عبور المشاة البيضاء التي بدأت تمّحي من كثرة الاستعمال ، ولم يتم تجديد دهنها منذ سنوات طويلة .

شجر اليوكاليبتوس ، الذي يطلق عليه زوج خالتي «قلم طوز» ، يرمي ظلاله على لافتة مطبوع عليها «حضانة براعم الثورة» . تعلمنا في الحضانة نشيد «أنا جندي عربي ، بندقيتي في يدي ، أحمي فيها بلدي ، طاخ ، طيخ ، طاخ» . أتذكر بعد ذلك فترة المدارس والاطفال يدخلون صباحاً بملابسهم العادية ثم يخرجون منها بملابس الطلائع . الزي عبارة عن طقم خاكي عسكري مطبوع عليه خارطة الوطن العربي مكررة على السترة والبنطلون والقبعة . مع مراسيم رفع العلم كل خميس نهتف بصوت واحد : «فلسطين حرّة عربية» . قال لنا المدرسون ان الطلائع ستجعل منا فتيان وفتيات أذكياء وخاصة اذا أكثرنا من لعب الشطرنج .

وفي سن المراهقة تأتي مرحلة الالتحاق بالاتحاد الوطني للطلبة حيث

نتعلم ان أهدافنا هي «وحدة ، حرية ، اشتراكية» ، وشعارنا «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» ، مما سيهيئنا للالتحاق بمقرّات حزب البعث العربي الاشتراكي في مرحلة الشباب وبعد أن يتأكد المسؤولون الحزبيون من اننا آهل لذلك . ينبغي الالتزام بالاجتماعات ، وبالسرية التامة ، وحفظ أقوال الرئيس عن ظهر قلب ، ودراسة بنود المؤتمر القطري السابع ، لنصبح رجالاً ونساءاً ، ثم مواطنين صالحين في المجتمع .

كنت افضّل الكشافة ؛ زيّها أزرق ، ولم يعد يزعجني صبي اسمه عباس كنت أهرب منه في دورة الطلائع . كان يلاحقني أينما ذهبت ويسخر من فمي . لم أنته من خبثه حتى قررت أنني سأحوله إلى ابن فرناس .

تخيلته تمثال عباس بن فرناس المغروس على طريق المطار . صبي مستعد للطيران على قاعدة عالية . جناحاه من شمع وريش . سيطير ويرتفع ، ثم ستذيب الشمس جناحيه . سيسقط في موقف السيارات المؤدي إلى مدينة الشرطة ، وسأتخلص منه .

عندئذ سأتمدد مطمئنة على المقعد الخلفي في سيارة أبي غايب وهو عائد من المطار بعد إحدى رحلاته ، وسألهي نفسي بعّد أعمدة الإضاءة الكهربائية المصطفة ابتداءً بصالة القادمين وانتهاءً بجسر الجادرية . عندما أستلقي على ظهري في ذلك المقعد أتذكر معلمة الرياضيات التي تقول لي دائماً : «إذا لم تنتبهي يا دلال فسأعلقك بالمروحة .» تخيلت نفسي بالمقلوب أقرأ معادلة الجبر من لوحة الكتابة (أ - ب) . أكتشفت حينها في المقعد الخلفي للسيارة ان كل شيء ما عدا السماء يمكن أن يرى رأساً على عقب .

بعد مرور سنوات عديدة أدركت أن الذين يُعلقون من أرجلهم في المروحة هم الذين يتعرضون للتعذيب من أجل الاعتراف .

الفصل الخامس

الأزمة تولّد معادلات . هذا ما فهمته من زيارتنا للمهندس الزراعي فتحي . زوج خالتي سيشتري سلالة من النحل . سيربيها لنعيش من عسلها . لكن كيف سيموّل فكرته؟ من المبلغ الذي كان مرصوداً لتعديل فمي . الدولارات التي كان من المفترض أن تُجرى بها عملية تجميل لوجهي أصبحت سريعاً ذخر العائلة الوحيد .

المعادلة واضحة ؛ فمي لقاء بقائنا احياء .

رغم تحذيرات زوجها ، أخذتني خالتي معها لزيارة أم مازن . كان دخول شقتها مثل اختراق مجموعة من إناث يجلسن في غرفة شبه مظلمة . كأن منظر السيدات مرسوم على ورق الأشعة . نصفهن الأعلى إيحاء امرأة غير واضح ، والنصف الأسفل أقدام طيور برّية . بطاقة صغيرة على طاولة جانبية مكتوب عليها بخطّ اليد «ممنوع اصطحاب الذكور والأولاد فوق سن السابعة .»

أم مازن تعالج سيدة تشكو من أن زوجها لا يمارس معها . في البداية تسألها إن كان الزوج مريضاً :

- هل زوجك مصاب بالقلب أو السكر؟ كم عمره؟ هل كان شاباً نشيطاً؟

تدرس الحالة النفسية والعمر والوضع الاقتصادي . عندما تتأكد أن كل شيء صحي وطبيعي تقول ، كأنها تعلن جائزة في مسابقة :

- اذن ، المنطق يقول : الإغراء أولاً وآخراً . لا بد عندك نقص معين ، لذا أغرته سيدة أخرى وترك الدار .

تنهار المرأة بمرارة لهذه النتيجة ، لكن أم مازن تؤكد لها أن العلاج موجود :

- أنصحك أن تحرقي حفنة من فلفل في مقلاة مع الزيت ، وتقرأي اسم زوجك أثناء حرق الفلفل حتى يجف . سيتفلفل قلب زوجك عليك ، وستصيبه حرقة اشتياق ورغبة في العودة إليك . سيعترف بحبه لك بعد يومين .

سيدة عجوز تسترق السمع . فاجأتها أم مازن :

- وأنت ما هي مشكلتك؟ تبدين متشوقة .

- أنا أيضاً أريد أن يمارس زوجي معي .

- كم عمرك؟

- ستون .

- كم عمره؟

- إنه في الخامسة والستين .

- كم مرة يمارس معك؟

- مرة في الأسبوع .

ضربت أم مازن كفاً على كف قائلة :

- احمدي ربك الذي خلقك على هذه النعمة . كما يقول المثل : «إن كان صديقك حلواً فلا تأكله كله» ، تفضلي مع السلامة والدفع عند بَدْرية .

لم تعترض العجوز . ربما تحاول أن تسترجع في ذاكرتها وصفة حرقة الفلفل من السيدة التي سبقتها .

بجانبي شابة انغمست في قراءة جريدة . اقتربتُ منها بحذر لأشاركها محتويات المقال محاولةً ألا أضايقها . لم تنزعج ، وفتحت الجريدة على مصراعيها . دخلتُ في صفحاتها بامتنان . «عندما قُصفت البصرة في بداية الحرب قُتل الكثير في منازلهم . والكثير من الأهالي مات مختنقاً بسحابات الدخان . لقد غطى التلوث في هذا الموقع وحده أكثر من ميل مربع ونصف ، فقضى على النباتات والحيوانات ، متسرباً إلى المياه الجوفية .»

ترفع أم مازن فنجان إحداهن . تقول لصاحبته :

- أرى في فنجانك نافذتين وخوفاً .

- نعم . هذه هي نظارات زوجي الطبية . إنه متعلق بنظاراته بشكل عجيب يا أم مازن . يرفض أن ينتزعها حتى أثناء النوم .

تُبطئ أم مازن قراءتها وكأن فارزة ظهرت لها في الفنجان . تعتذر قائلة بأن طاقتها بدأت بالهبوط فتشرع بقرض بسكوتة MARIE ، وعند النقطة تقضم الباقي . تستأنف :

- زوجك مصاب بالخوف من الأرواح الشريرة .

- إنه ينام بها ويغتسل بها ويتزوج بها . تصوري . قال لي ليلة عرسنا إن أحد أسباب طلاقنا هي أن أضيع له نظارته .

تقف أم مازن لتذهب إلى الحمام . ينط كرشها من تحت دشداشتها فيتدحرج من أعلى تكوره فتات البسكوت ، شعرتُ للحظة بأنني سمعت

صوت ارتطامها بالأرض . تدهسها في طريق عودتها إلى مكانها لتكمل تحليلها .

- زوجك يشعر أن غيمة شر تلاحقه أينما يذهب ، وأن هذه النظارة تعطيه ثقلاً معيناً يمنعه من أن يطفو فيصبح جزءاً من هذه الغيمة الأبدية . لذلك يرتديها أربعاً وعشرين ساعة .

- ماذا أفعل؟

- تذهبين إلى بَدْرية ، التي ستعطيك خلطة إزاحة الغشاوة . عندما يشرب زوجك الشاي يصعد بخاره من القدح فيلتصق بزجاج النظارة ، أليس هذا ما يحدث عادة؟

- تماماً .

- إذن ، تضعين له الخلطة في الشاي لكي تلتصق مع البخار على النظارة ، وعليه يثبت العمل . ستهدأ مخاوفه قريباً .

لفتت انتباهي سيدة جاهلة توجهت إلى أم مازن وقد أكلت إبطها الفطريات . كانت ، لأنها لا تقرأ ، قد استخدمت منظف أخشاب تحت إبطها ، معتقدة انه معطر للجسم . رشة واحدة واحترق الإبط ، ثم جاءت أخرى تشكو إلى أم مازن تساقط شعرها .

قالت لها أم مازن :

- عيني ، شعرك يتساقط من الداخل وليس من الخارج .

فأجابتها السيدة بانفعال :

- لا والله أم مازن ، فقط شعر رأسي .

راحت أم مازن تتأفّف :

- كلا ، كلا ، أقصد أن هذه حالة نفسية .

هبطت طاقتها مرة أخرى . أتتها بَدْرية بحبة حامض حلو من المطبخ ثم طلبت من السيدتين أن تتبعاها . أم مازن رمت الحبة الملونة في فمها .

اصطدمت الحلوى بطرف سنها الأكبر محدثة تكة تبدو مؤلمة ، لكن بقية الفم اصطادها دون عناء . راحت تمتصها دون أن تطبق شفاهها . دمدمت بصوت واطئ : «لا تقرأ ولا تكتب وتضع معطر جسم!»

شعرتُ أن الأوكسجين بدأ يقل في الغرفة . كنت أتمنى ألا يعود أبو غايب إلى الشقة قبلنا ، إلا أن خالتي أصرت أن تعرض خدماتها على أم مازن بأن ترسل لها بعض زبوناتها للعلاج . لم أتوقع أبداً أن تأخذ اقتراحي مأخذ الجد . لكن ها نحن . كلٌ يبحث عن مصادر كسب العيش بأية طريقة . هل تعتقد خالتي حقاً أن أم مازن هذه ستدفع لها نسبة على فتح الفنجان؟! ربما تشكرها وتعطيها قراءات مستقبلية بتخفيض بسيط ليس إلا .

السيدة إلى يساري فظة إلى درجة أنني لو صرخت بها فسيرتّد اليّ صدى خشن كما يتهيّأ لي . كأن يديها مصبوبتان من طين حُر ثقيل . بَدْرية تدخل وتخرج بيننا باستمرار مثل كثبان رملية . لا تتوقف عن دندنة دعاية تلفزيونية قديمة لمسحوق صابون : «شروالك يا أبو زيد ما ينظف إلا بالتايِد» .

الستائر المغلَقة ، وهذا الحشد من النساء ، اللواتي تنبعث منهن رائحة جبنة إيطالية تخمرت ، يحول المشهد إلى مقطع من فلم فوتوغرافي لم يتم تحميضه بعد .

في الشقة شرح لي أبو غايب :

- لأجل التذوق يجب أن تعيشي اللوحة ، لا أن تنظري إليها فقط .

وقفتُ قبالة لوحة لجسد سيدة عارية بلون نوارس سَكْرى . كل جسمها كان عبارة عن وشم مغربي ، ترتدي عقوداً من خرز حول رقبة بلا

رأس . يقف وراءها رجل يمد رأسه من خلفها وينظر في داخل رقبتها المقطوعة . لكن لا شيء حيوي يحدث في هذه اللوحة . عكس الأحداث التي أصابت عمارتنا منذ قدوم أم مازن .

بسبب تردي الظروف الاقتصادية قلّ تحرك أهل العمارة في الخارج ، ولسبب ما زاد تحركهم ما بين الطوابق .

نادي العلوية يتدهور . تقلص عدد الاعضاء إلى حد الشكّ في أنهم سيستمرون بالنشاطات الثقافية والاجتماعية . تم إغلاق المسبح بعد أن بدأت الحَلفاء تنمو في شقوقه بسبب الإهمال .

بعد فترة أعلنت الإدارة أنها على استعداد لتأجير بعض الساحات الخلفية الشاغرة لأي جهة تنوي إقامة فعاليات لا تشمل البناء أو الحفريات . جاءت فرصة أبو غايب . سيستأجر إحدى ساحات التنس . خلف الساحة الأولى ثمة بستان من نخيل يتدلى من تحت سعفه تمر طازج .

أما ساحة التنس الثانية فقد استأجرتها الحكومة .

قبل أن أعبر معه إلى الجهة المقابلة ، مرت من أمامنا شاحنة مكتوب على جانبها «سريع الاشتعال» ومن الخلف «محروسة سبع الدجيل .» لم ينتبه لها أبو غايب وهو يفكر بالنحل لا غير . عندما سألته خالتي أمس ، لماذا لا يبيع هذا العدد الكبير من اللوحات التي يقتنيها ، قال لها : «أي مجنون يضع أمواله في قطع فنية في هذه الظروف؟!»

وصلنا إلى النادي فإذا بشاحنة أسطوانية أخرى تقف عند الباب الخلفي للمطعم ، يرتفع منها خرطوم سميك إلى حيث الخزانات على السطح . يتكئ أحد العمال على سطر أبيض مخطوط «ماء صالح

للشرب .» لم يعد ماء الحنفية ينفع . الجميع يشكون من أمراض معوية مؤخراً : الكوليرا والتيفوئيد .

لا أعلم لماذا أخذني أبو غايب معه ، فأنا أستطيع أن أرى كل شيء من شباك غرفتي . المسابح وساحات التنس والجدار الكبير ، الذي كان معرضاً للأفلام الأجنبية ، وحتى ملاعب الأطفال .

ربما اصطحبني ليؤكد لي أن مالي سيستثمر بشكل منطقي ، ولن يذهب سدى!

قالت إلهام من خلال دخان سيكارتها :

- لا تصدقي يا دلال قولهم بأن هذه هي حرب عسكرية ، فنحن المقصودون .

- عم تتكلمين؟

- أقصد النساء والأطفال . أعلم ذلك جيداً ، ولن أسمح لأحد بأن يقنعني بغير ذلك . المستشفى الذي أعمل فيها ملغومة بنساء مريضات وأطفال يموتون في أذرع أمهاتهم .

كانت تجلس أمامي ، ظهرها مستقيم ، قليلة الحركة عندما تدخن . بورتريت من وجه دائري أبيض.. أنف أوروبي مدبب . شفاهها رفيعة بالكاد تغطي أسنان أرنب . لا تكف عن وضع مرطب للشفاه بين كل سيكارة واخرى قائلة : «لكي لا يلتصق طرفها بشفاهي المتيبسة .»

لم أفهم لماذا تبذر كل راتبها على الدخان وتعلم اللغة الفرنسية ، حتى أدركتُ يوماً أنها تهدئ من روعها بالتدخين ، وتتعلم هذه اللغة لكي تواجه أمها الفرنسية - إن تمكنت من العثور عليها يوماً ما .

سألتها :

- لماذا لا تغيرين مهنتك؟

- ليس لدي خيار . أنا أسكن وحدي ، ولا أستطيع حتى أن أطلب مغادرة المستشفى للبحث عن عمل آخر . أين أذهب؟ الإيجارات عالية ، والمعيشة شبه مستحيلة ، ومع ذلك أحمد الله أنني لست مضطرة إلى إعالة طفل مثل كل النساء اللواتي ألتقي بهن يومياً .

وضعَت ساقاً فوق أخرى . كان الدخان يتسلل بين طيات شعرها الأسود المجعّد ؛ طبقات من شعر على شكل حرف «و» . عندما تهز رأسها إلى الخلف لتُبعد الدخان عن عينيها ، ترقص الواوات في كل اتجاه .

ارتني صورة أمها ، التي تركتها وهي رضيعة بنت ستة أشهر . لم تحتمل العروس الفرنسية فكرة أنها سترتبط بهذه الارض طوال حياتها بعد أن وعدها زوجها العراقي إنها زيارة مؤقتة للتعرف على أهله ، فتركته وتركت له ابنته . أخذت طلاقها وعادت إلى وطنها ، ثم تزوجت احد ابناء ملتها ونسيت كل شيء عن ابنتها . ورغم أن والد إلهام المحامي الناجح توفي بعد أن بلغت الخامسة ، فقد بقيت الأم غير راغبة في أن تتذكر شيئاً .

قالت :

- حالات الطوارئ تعيد لي ذكراها . أتساءل دائماً كيف تركتني لقدري دون رحمة؟!

- لماذا تفكرين بها إلى هذا الحد وهي حتى لا تسأل عنك؟

- لأنها أمي رغم كل شيء . أتفرج على الأهالي الذين لا يملكون حتى أراضي للدفن . أفكر بها في كثير من الأحيان خاصة عندما نأخذ جثث الأطفال الرضع ونرسلها إلى المحارق خوفاً من انتشار الأمراض .

سحبت نفساً ثقيلاً :

- مهما تدهورت الظروف ، فقلبي يعلم أنني سألقاها يوماً ما . أعلم ذلك .

قاطعتها :

- هل أستطيع أن آتي معك إلى المستشفى وأتبرع بالمساعدة؟

- لا أنصحك بذلك ، المسألة تحتاج إلى خبرة وقلب قادر على الاحتمال . البقاء تحت جناح خالتك أفضل بكثير . لا أتمنى أن تري ما يجري .

- أنا مستعدة لتقديم أية خدمة للأطفال .

- المشكلة هي أنه لا يوجد ما يساعدنا على إنقاذ هؤلاء . على كل حال ، ربما تربية النحل فيها وارد أفضل .

- كيف عرفت عن النحل؟!

- لا شيء يُخفى في هذه العمارة .

كانت مُحقة ، فحتى العم سامي ، من الطابق الرابع ، كان على علم بكل شيء ، رغم أنه لم يعد يتحرك من مكانه إلا عندما يأتي موعد غسيلِ كليته . إلهام تشرف على حالته الصحية وترافقه إلى المستشفى . احياناً ألتقي بها صاعدة إلى طابقه ، تقول ضاحكة : «اليوم عندنا غسل وتشحيم .» لا تتذمر من الاهتمام به فهو ، حسب رأيها ، واحد من ألطف نزلاء عمارتنا .

التقيته للمرة الأولى في شقته . كانت إلهام على عجل للحاق بعملها ، فطلبت مني ، في أحد الصباحات ، أن أوصل اليه بعض المسكّنات . طرقتُ الباب . بعد انتظار عدة دقائق ، فتح لي من يشبه الحفيد الرابع عشر لبابا نويل .

سألتُ بابتسامة :

- العم سامي؟

أجاب ، لكن ابتسامته لم تكن منحرفة :

– نعم ، العم سامي ، تفضلي .

علق عكازته على رسغه طالباً مني أن أتبعه . أجلسني على مقعد مريح ، وجلس هو على مقعد عال . بعد قليل دخل المطبخ ، جلب شاياً قدمه لي بعد أن وضع فيه ملعقة من سكر دون أن يسألني رأيي .

قال :

– تأخرتِ .

تعدلت في جلستي :

– آسفة ، لكن إلهام لم تعطني الدواء إلا هذا الصباح .

– لا أقصد الدواء .

نظرتُ اليه فابتسم :

– لا تنظري اليّ هكذا كأنني أخفتك . اهدئي وتمتعي بالشاي . أردت أن أقول إنني كنت بانتظار إنسانة مثلك منذ زمن بعيد .

– ماذا تقصد يا عم؟

لم يجبني . ترك مقعده قائلاً :

– اعذريني ، يجب أن أذهب إلى الغرفة المجاورة للحظات . بوسعك أن تتفرجي على بعض المجلات .

جر قدميه إلى الغرفة المجاورة . وقع بصري على دفتر ذي جلد نبيذي عاكس يستلقي على كدس من مجلات . على الغلاف مطبوع «يوميات أم رائد» . في الصفحة الأولى قرأت : «لقد دُمّر عشرون ألف منزل وشقة ومجمع سكني ، وقُتلت مائة ألف نخلة نتيجة القصف ، وسمعت عن سيدة أجريت لها عملية قيصرية بدون مُخدّر .» قلبت الصفحة وقرأت ما كتبته كاتبة اليوميات واصفة تسرب تسعين كيلوغراماً من مواد قاتلة للحشرات نتيجة انفجار مصنع مواد التنظيف المنزلية . وصفحة أخرى

تصف كيف تم قصف مصنع للبلاستيك ، حيث تطايرت في الأجواء حبيبات من مادة البولي إثيلين تتداخل بأصباغ وزجاج صناعي ، وكميات من شمع صلب وسائل ، وكرافيت أسود ، وإطارات مطاطية محترقة .

عاد بأقدامه الثقيلة فانزلق الدفتر إلى مكانه . أشار إلى قفص حديديّ صغير تلعب فيه فأرتان بيضاوتان . قال :

- أراكِ قد تعرفتِ على أصدقائي . الفأرة «مُخ» وزوجها الفأر «مُخيخ .»

انهالت عليّ كركراته ، ولم أستطع منع نفسي من مشاركته . قال :

- نعم ، اضحكي يا فتاة . تسلّي ، مثلما تسليني هاتان الكرتان من الفراء الدافئ .

مد يده في القفص يحاول أن يلتقط احداهما . ظلت أصابعه تلعب على أرضية القفص باحثة ما بين شغب الفأرتين . تخبطت يده على الحديد كأنها يد رجل أعمى تبحث في ظلمة . فجأة شهقتُ : «إنه أعمى بحق .» في تلك اللحظة صاد «مُخيخ» من ذنبه الوردي ، ووضعه في حضنه . راح يمسد له رأسه مثل صديق عزيز . قال :

- إنه مرض السكري . الأنسولين لم يعد متوفراً في البلد حتى ضرب المرض عيني . لم أعد أستطيع أن أميز الألوان ، صرت أرى الأشياء خيالات ، من أسود وأبيض فقط . أي لون ترتدين يا دلال؟

- أخضر .

- توقعت أنه أخضر .

- كيف ذلك؟

- تبلغني منكِ ذبذبات طرية .

الفأرة «مُخ» بدأت تقلق في القفص نيابة عني . العم سامي يزداد

هدوءاً :

- الممرضة إلهام كلمتني عنكِ . اقترحَت أن نلتقي ، وأنا سعيد بذلك .

- شكراً .

- هل تريدين اللعب مع «مُخيخ»؟

- لا ، شكراً .

- أنت فتاة مؤدبة . وهذا الفأر سيعود إلى مكانه ، أما أنا فيجب أن أذهب مرة أخرى إلى الغرفة المجاورة للحظات .

اختفى . تفرجت على الحيوانين يحتفلان باتحادهما . يتصافحان بذنبين وشاربين شفافين . عاد الرجل يركز نظره عليّ .

سألته :

- هل أجلب لك شيئاً من الغرفة المجاورة؟ ربما تحتاج إلى مساعدة؟

- بوسعك أن تساعديني في الغرفة المجاورة في حالة واحدة فقط .

- بالطبع ، ما هي؟

انفجر ضاحكاً :

- أن تتخلصي من غازات بطني بدلاً مني .

ربت على كتفي :

- ما ألعن القدر يا جارتي العزيزة ، الأمراض تقضي علينا بطيئاً . اعذريني لصراحتي .

ثم أضاف :

- ومع ذلك فقد تأخرتِ .

- عن ماذا؟

- سمعت أنك تتعلمين عن الرسم والألوان .

- نعم ، من زوج خالتي .

ارتشفتُ ما تبقى من شاي لأرحل . كان يستعد لتوديعي .
قال :
- أما أنا فسأعلمك أن للبشر ألواناً .

كان أبو غايب يتمنى أن يهاجر ويستوطن عند ضفاف البحر الميت . يؤكد أنه بحاجة إلى المعادن الطبيعية لعلاجه . بدأ يحك مرة أخرى . ينفض عن أكتافه قشرة رأسه وبعض القشور الناعمة التي تبدأ تتطاير من أذنه اليسرى .

يتأمل قشرة غرزها بطرف قلم رصاص . سألته :

- هل نستطيع معرفة سبب علتك؟

ضحك :

- اعتقدتُ إن البيبسي كولا يسبب القشرة ، لكننا ، منذ سنوات ، لم نتناوله لعدم توفره ؛ إذن أستطيع إلغاءه من اللائحة .

- أنا أسألك بكل جد .

- وأنا أقول لك بكل جد إن الشراب الذي أتناوله ألذ من البيبسي . إنه محلول الجيلاتين . يجب أن أشرب نصف أونس من الجلاتين المخلوط بالماء ، يومياً ، دون هوادة ، ليزداد نمو الأظافر ويقوى اللحم تحتها خوفاً من الإصابة بصدفية الأيدي . يقولون إنها مؤلمة وتصيب اللحمة التي ينبت فوقها الإظفر .

- ماذا تقول؟

- نعم ، هذا ما أقول بلا مبالغة . إن كانت الصدفية مرض القلق النفسي ، فها هي تفعل فعلها . الإنسان معرض أن يصاب بالمرض لأنه يعيش قلقاً معيناً ، ثم عندما يصاب به يزداد قلقه بسببه ، وهكذا . إنها

دائرة مغلقة .

- يا إلهي .

- تصوري أن الوقاية الوحيدة هي عدم القلق!

أخذ يتمشى ذهاباً وإياباً أمام احدى لوحاته ، توقف عندها وراح يغوص فيها قائلاً :

- كيف تعتقدين أننا نستطيع أن نقيس الجمال؟

- إن كانت الاشياء غير منحرفة ربما تكون أجمل .

- آسف يا دلال . أرجوك ، حاولي ألا تكوني حساسة معي في دروس الرسم . إن تذوق الجمال أفضل من فهمه .

- كيف تتوقع مني أن أتذوق ما حرمت منه؟

- سأعطيك مثلاً . قد يكون اللون الأصفر قبيحاً إن كان معلقاً في الهواء وحده ، أما داخل لوحة معينة ومع ألوان اخرى فقد يكون جميلاً جداً .

توجهتُ إلى لوحة صاخبة بألوان تنفجر من بركان يتوسطها . أعطيت ظهري لمركز البركان .

- الآن قل لي ، هل تجعلني هذه الألوان أجمل يا زوج خالتي؟!

الفصل السادس

وصلت إليّ مجلة من الطابق الرابع . العم سامي يبعث لي ما يفرغ من قراءته ، أو بالأحرى ما يفرغ الآخرون من قراءته له . قلبتُ صفحاتها بانتظار أن يغير أبو غايب ملابسه لنخرج معاً إلى النادي . العنوان الاول : «بعض الدول الأوربية تحقن الطماطم بكروموسومات سمكة لتصبح للطماطم صفة عدم الانجماد .»

نادى أبو غايب من غرفة النوم :

- ما هي آخر الأخبار يا دلال ، ماذا يقولون؟

قرأت له العنوان الثاني بصوت عال : «الولايات المتحدة تدّعي أن الحرب ، التي شنتها في الجزء الأول من سنة ١٩٩١ ، كانت حرباً نظيفة ، حيث استخدمت أسلحة ذكية لا تخطئ أهدافها .»

يضحك أبو غايب قائلاً :

- نعم ، صواريخ بارعة ، فهي تتوقف للحظات عند الإشارة الضوئية ، ثم تستمر في طريقها للتفجير .

بعد قليل يضيف :

- فعلاً اسلحة ذكية ، فقد قصفت مراكز الاتصالات ، ومراكز تنظيف المجاري ، ونسفت مولدات الكهرباء ، وطبعاً لم تنس أن تقضي على مشاريع تنقية المياه . بذكائها حرمت شعباً بأكمله من الماء النقي .

- أما هذا المقال فيتناول آخر صرعات هندسة الجينات . انظر إلى هذه الصورة . أذن بشرية زُرعت في مختبر على ظهر فأرة .

- يريدون زراعة آذان؟ حقولنا مليئة بأطراف بشرية من كل نوع . ناس تزرع أطرافاً وناس تولد دونها!

أخذ يمشط شعره . قال :

- بالمناسبة ، هل سمعتِ بقصة الذباب المجفَف المعروض في السوق؟

- أهذه مزحة؟

- أبداً . عند باب مستشفى فيضي توجد مجموعة من شباب يبيعون ذباباً مجفَفاً مغلفاً في أكياس مكتوب عليها «علف» .

ما بين الشقة والنادي ، أخذ أبو غايب يشرح لي بانفعال بعض الصفات المورفولوجية لمهنته القادمة . إن المسافة من سكنه إلى عمله الجديد عبارة عن رصيف ، شارع ، رصيف . بذا وفّر الكثير من مصاريف المواصلات .

المصعد لا يعمل . نزلنا السلالم مشياً ، راح يقول :

- إن النحل يعيش معيشة اجتماعية وهذا ما جذبني إليه يا دلال . إنه يتعايش على شكل مجموعات ، كل مجموعة تعرف بالطائفة ، وتسكن في مسكن خاص يعرف بالخلية .

- ما رأي خالتي في كل هذا؟ هل وافقَت؟

- خالتك لا تحب الحيوانات ، فكيف ستعترف بتربية حشرة؟

- إذن ، ستعترض .
- إنها لا ترى النجاح إلا على شكل نقود .
- وهل ستجلب هذه الحشرات المال الذي ترجوه؟
- الوقت وحده سيثبت ذلك .

مجاري الشقة الأرضية طافحة . قفزنا معاً فوق بركة من أوراق خس عفنة . قال :

- على كل حال دعيني أكلمك عن حياة الطائفة التي تنقسم إلى الملكة ، والذكر ، والشغالة ، وتحيا على أساس توزيع العمل بين أفرادها .

هبطت قدمه في الماء الراكد فتوقف لحظات يضرب حذاءه بالأرض ليزيح رغوة قذرة . على الرصيف القريب من العمارة ، تعلمتُ أن الملكة كبيرة الحجم عند مقارنتها بأفراد الطائفة المختلفة . أجنحتها قصيرة بالنسبة لطول الجسم ؛ هنا تذكرتُ خالتي . لها آلة لسع منحنية تستعملها ضد غيرها من الملكات . خلال عبور الشارع ، دار الحديث حول الذكر ؛ جسمه أقل طولاً ولا يلسع . عند الرصيف الثاني المؤدي إلى النادي ، شرح لي زوج خالتي أن الشغالة لها خرطوم لجمع حبوب اللقاح في أرجلها الخلفية .

مسؤول المسابح سلّم أبو غايب مفتاح ساحة التنس رقم واحد . اختفى عن الأنظار مجتازاً أكداساً من خشب وفلين وأنابيب مياه لم تركب بعد . أبو غايب لا يضيع وقته . لقد استأجر الساحة لأمد طويل ، تلافياً لمشكلة إخلاء المكان ، لئلا يضطر إلى نقل الطوائف من مكان إلى آخر .

- يجب أن نفكر إلى مدى بعيد قدر الإمكان يا دلال .

فتح الباب المرتفع من مشبك من أسلاك غليظة يمدح جودتها :

- شغل إنكليز .

دخلنا الساحة . وقف في منتصفها . فتح ذراعيه جانباً كأنه يعرّف نفسه في عمل مسرحي ، استدار نحوي قائلاً :

- ها هو مَنحلنا .

تفحّص سياج الساحة وهو يذرع محيطها . طولها مناسب ، عرضها مناسب . مشبك السياج فيه فتحات على شكل بقلاوات متوسطة الحجم ، مما سيسمح للنحل بالطيران من وإلى الموقع دون معوّقات ؛ ثم أشار إلى بستان النخيل الواقع خلف جدار النادي :

- ومن هنا سنجمع الرحيق .

لم تدخل خطته دور التنفيذ بعد ، وأبو غايب بدأ يتكلم عن نفسه وعن النحل بصفة الجمع . سألته :

- هل يكفي أن يجمع النحل غذاءه من التمر؟

- تحت النخيل أيضاً توجد مصادر أخرى للرحيق وحبوب اللقاح ؛ أشجار الفاكهة وتحتها محاصيل الخضراوات .

راح يتأكد من عدد الألواح الخشبية التي طلبها . يتفحص بقية المواد . ينفخ بقوة في أنبوب بلاستيكي . ذبابة خضراء فسفورية خرجت من الطرف الآخر . ضربت قدمه بمجموعة من حبال مكدسة على الجانب . تأملها قائلاً :

- لكن مع بستان النخيل عندنا مشكلة ، إذ يكثر فيها الدبور الأحمر ، وهو من ألدّ أعداء النحل .

عندي شعور أن خالتي تراقبنا . رفعتُ بصري إلى أعلى . ها هي في غرفة نومي تتفرج على تحركاتنا من الشباك . ستقلّب كتب النحل وإرشادات التربية ، ثم سترميها جانباً متذمرة : «مضيعة وقت . كان

الأجدى أن نفتح محلاً لبيع الأقمشة .» ربما كانت على حق ، لكن على حد قول زوجها : «الوقت وحده سيثبت ذلك .»

أخذ مفهوم الوقت يختلف لديهما . هي تفهم الوقت على شكل موسمين ؛ واحد للخياطة الشتوية وآخر للخياطة الصيفية . أما هو ، فالوقت بات ، بالنسبة له ، موسماً لجمع الرحيق ، وموسماً لفرز العسل .

تركنا نادي العلوية بعد أن حدد أبو غايب موقع العمل ، مصادر الغذاء ، والعدو .

تصادقتُ مع صوت الثلاجة . شيك- تنفصل . شوك- تعمل . إنها فعالية القطعة الثنائية المعدن التي درسناها في الفيزياء . تتمدد فينفصل مولّد الثلاجة عن الكهرباء . تتقلص فيعود الاتصال . أما المصباح الصغير الذي يضيء آلياً عندما أفتح بابها فلم يعد يعمل . في الليل كنت أضطر إلى استخدام شمعة احياناً لأتبين محتوياتها- القليلة .

لم أعد أراقب ساحات التنس من المطبخ ليلاً ، ولم نعد نتناول ، كما تعودنا ، طعاماً دسماً بعد المغيب . بررت خالتي ذلك بأن العشاء الخفيف يساعد على نوم هادىء خفيف ونهار خفيف في اليوم التالي . بعد ساعات طويلة من التحمل ، بالطبع! بذا أصبحت الثلاجة قطعة من الأثاث قليلة الاستعمال ، تصدر أصواتاً رتيبة .

أنا بدوري سأحتاج إلى يوم خفيف لأواجه مدرّسة الفيزياء غداً . لا أحب العلوم . ضعيفة أنا في فهم منطقها هذا . تؤنبني دائماً لأنني لا أرى منطق الأشياء . هي التي لا تفهمني . تشرح أرخميدس : إن وزن الجسم الغاطس = وزن الجسم − وزن الماء المُزاح . تقول ، مُزاح ، مصرّة على أن تثبت نظرها على فمي .

أنظر إلى اسمها المَصوغ من ذهب أصفر حول رقبتها . الأكراد يحبون الذهب . قرأت «بَروين» . أضفت لها اسم الأب «بَروانة» . بعد قليل جاء اللقب «عائلة البَنكة» . في سري انتقمت «وجدتها»!

استمر رفضي للعلوم طوال سنوات الثانوية . فيما عدا اللغات والاجتماعيات والفنون ظل النجاح في الدروس الأخرى محنة . لم أفهم الهندسة . قياس مساحة مثلث قائم الزوايا = نصف القاعدة × الارتفاع؟ كنت أفضل أن أرسم وردة في المثلث ، أو أكتب فيه أغنية .

إلا أن درس الأحياء كان الاستثناء الوحيد من لائحة العلوم . فقد كنت مأخوذة بحياة الأميبا ، وحركة الأقدام الكاذبة ، ودورة نمو الجنين في الرحم . لم أفهم كيف نقيس سرعة الضوء ، لكن قضيت فترات طويلة في دروس البحث في الأحياء تحت المجهر ، كانت تلفظه المدرّسة «ميكرسكوووب» .

لم أشارك بقية الطلبة في التهافت على الأجهزة المكبِّرة التي يتم احتجازها من الأسبوع السابق . أما أنا فجهازي يختلف تماماً عن الآخرين . كان عبارة عن طاولة واطئة من الزجاج . كنت أرمي عليها الحيوانات والحشرات المطلوب دراستها ، ثم أستلقي تحت الطاولة واضعة يدي خلف رأسي أتفرج . أتأمل حركاتها وتصرفاتها .

مرة انهمكتُ في تأمل ضفدعتين رطبتين متلاصقتين . الضفدعة تنفخ في أذن الضفدع . لحمتان مكتنزتان بلون طحالب مُعَتّقة تلعبان فوقي على لوح شفاف ، تعتصران لزوجتهما في فضاء من عدم .

كانت تلك أول مرة أتمنى فيها أن أكون ضفدعة .

خالتي مشغولة بترتيب غرفتها الجديدة . حيّز صغير أقرب إلى

الدولاب يقع بين المطبخ والحمام . كان في أيام الخير مخزناً للأغذية يدعى « قُبّة الكَيل» . أما اليوم ، فهي تطلق عليه «بيت الأزرار» . أخرجَت منه أدوات رسم وضعتها تحت السرير من جهة أبو غايب ، ليصبح الدولاب مُلكاً لها وحدها ، ثم تكالبت علب الأزرار فوق الرفوف .

انفعلَت أمس لخبر محاولة سرقة بيت الجيران . ذهبَت لتتفقد أحوالهم ، فذهبتُ معها لأتأكد إن كان النمش قد تساقط حقاً عن وجه سيدة الدار مثلما سمعتُ من بقية الأطفال في منطقتنا . زوجها ما زال في السجن ، وابنها دُفن مع علكة عالقة بقصبته الهوائية . علمنا ، فيما بعد ، أن السارق كان راغباً بسجادة إيرانية يبدو أنه رآها منشورة في سطحهم . لكنه لم يكن يعلم أنها غُسِلت للتو وتشبعت بالماء فتعذر عليه حملها .

أنهت خالتي الزيارة على عجل . عند باب الخروج تقابلنا مع شرطي شاب قادم لأخذ شهادة السيدة حول تفاصيل السرقة . وقفت خالتي أمام الرجل ، الذي يرتدي بدلة زرقاء كالحة يُزينها خط من أزرار فضية مطبوع عليها شعار دائرته . تسمرّت خالتي أمام منظر الأزرار كأنها مُدمنة . لم يفهم لماذا تحدق فيه . تخيلتُ أنها ستمد يدها باتجاه صدره ، وستقطف الأزرار من بزته وتعود بها راكضة إلى الشقة . ستضعها في علبة شفافة وستثبت عليها لصقة كُتب عليها «شرطة» .

طلبت مني أن أساعدها في تنظيف أغلى قطعة على قلبها : ماكنة الخياطة . مرت من أمامي كلمة SINGER بالذهبي وهي تدفعها على عجلات . سنلمّعها معاً . ناولتني علبة زيت ، فهوت قطرة من فتحة متآكلة أسفلها . تهيأ لي أنها سقطت على ظهر عنكبوت هرب سريعاً من

تحت الماكنة .

قلت لها :

- أعطَينا العنكبوت مسحة زيت .

- سدّي الفتحة بإصبعك كي لا نخسر المزيد . لا أملك غير هذه العلبة . أمَتأكدة أنت من أنه عنكبوت؟

- يتهيأ لي .

- تُرى ما قصة العناكب هذا الأسبوع؟!

- ما قصتها؟

- كنتُ عند أم مازن قبل يومين . جاءتها امرأة عندها رهبة من العناكب تطلب العلاج . لم ندرك أن بعض النساء الأخريات حاقدات عليها لأنها ضرّة إحدى صديقاتهن ، فشرعن يُغرِن عليها بالازعاجات . قالت إحداهن : «عيني ، لا أعلم ما بالي اليوم . مزاجي عنكبوتي .» فأجابتها أخرى : «ولا يهمك ، ستعطيك أم مازن خلطة سحرية ؛ كوتي كوتي عنكبوتي ، يا خوفة روحي روحي .» فجأة تتدخل ثالثة لتقول : «فتحت كيس طحين أمس ، وكدنا نتسمم جميعاً ، فقد انتهت صلاحيته . كان مليئاً ببيوت العنكبوت ، يعني طحين معنكَب!»

- ماذا فعلت أم مازن؟

- لا شيء . فقط سامحت المرأة بأجرة الفنجان ، لأنها خرجت تركض باكية .

قلت لخالتي :

- الماكنة فيها صدأ هنا وهناك .

أجابتني كأنها تنهرني :

- ماذا تتوقعين ، من اين أجلب لها قطع غيار؟ كل شيء يتلف بطيئاً .

ثم أضافت :

- نعيش زمناً حتى الزجاج فيه سيصيبه الصدأ .

صهيل . أبو غايب يعدّل لوحة خيول . أنها تستجيب لهجوم الحلفاء . تصطف خلف بعضها وتعطي ظهرها للشرق . جذوعها تشبه براميل مخططة كأنها ترتدي سجادة شعبية بمثابة سرج . ترقب بذعر قذائف اليورانيوم المنصّب القادمة من دبابات أمريكية . رقابها تارة زرقاء وتارة حمراء ؛ دم ودم فاسد .

الخيل تعدو في مكانها ؛ دق الحوافر يخرج من افواه تتخبط غاضبة .

أما خارج اللوحة فممنوع الغضب . لم يعد لي الحق بذلك . انحراف بسيط في الفم ، من الله ، إنه لا شيء بالنسبة إلى أمراض مميتة ، يصنعها البشر . كان عليّ أن أتناسى مصيبتي وسط المصائب التي تدور حولنا . شرحَ الأطباء : حين لا يصل الدم إلى الدماغ يسبب ذلك جلطة . كنتُ صغيرة . اعترتني حُمّى ، ثم جلطة صغيرة . جُليطة . إذن ، لم يصل الدم إلى الجانب الأيسر من دماغي بما أن فمي مسحوب إلى اليمين .

فجأة هبط في الشرفة ضجيج على شكل ضربات طبول وغناء بشع . مددت رأسي أطلّ على الباحة في مدخل العمارة لأتبين الأمر . كانت سيارة بيك آب رثّة تحمل عازفي المَزّيقا الشعبية تلعب أيديهم على دفوف متسخة وهم يرددون : «يا حيّة يَم راسين ، طُبي بجدرهم ... سِميلي

أهل البيت ، بس لا ابنهم . . .» ثمة رجل يحتضن سطلاً ويرقص في الباحة منادياً بأعلى صوته : «يا أم مازن ، كيف نشكرك ، يا أم مازن؟»

لم أصدق ما رأيته عندما تبينتُ محتويات السطل . ديدان!

كان هؤلاء أهل المسقي بالسم المسحور ، الذي عالجته أم مازن بالمراسلة . كانت قد نصحتهم أن يأخذوا ثمار الورد الجبلي التامة النضج ، فتُنشف ، وتُنزع بذورها ، ويبقى على ما فيها من وبر ، ثم تُهرس جيداً ، وتُعجن بالعسل ، ثم تُكوّر كرات بحجم حبات الباقلاء . حبتان لنحيلي الأجسام والأولاد ، وأربع حبات للكبار ذوي الأجسام الضخمة . تؤخذ ابتلاعاً دون مضغ ، صباحاً على الريق . وماذا كانت النتيجة؟ سطل من إسهال ذي ديدان ، اثباتاً لنجاح خلطتها وامتنان أهل المُبتلى .

تخيلتُ أم مازن في الطابق العلوي ، تلوح لهم بيدها من شرفتها . شكلها يشبه بوريس يلتسن تم تغميسه في مسحوق الكاكاو .

خلال الأسبوع ، كانت خالتي تراقب سير الأمور في ساحة التنس . الأرض تُحرث ، تسوى ، تُقسم إلى مساطب توضع عليها الخلايا ، وأحواض يزرع فيها زهر يهواه النحل : عباد الشمس . تم تبليط الطريق إلى المنحل وتوصيله لغرفة الخزن وحجرة الفرز لتسهيل نقل الأدوات والصناديق والعاسلات على العربة اليدوية .

لحماية النحل من الريح ، زُرعت مصدات من الجهتين الشمالية والغربية ، فوقفت أشجار الطّرْفاء لهذا الغرض . الخطوة التالية كانت تهيئة المياه العذبة . انتشرت أحواض متفرقة متصلة بأنابيب المياه زُودت بعائمات من الخشب والفلين ليقف عليها النحل ويشرب الماء .

زوج خالتي مبتدئ ، لذا اشترى ثلاثين طائفة فقط ، للتجريب .

طلب من زوجته أن تخيط له ملابس النحّالة . أكد لها ضرورة أن تكون محكمة لا ينفذ النحل منها ، وأن تعطيه حرية في العمل ، وأن تكون من قطعة واحدة فاتحة اللون ، ثم اضاف : «دون كتافيّات رجاء .»

بعد نهارات عديدة من تحضير المنحَل ، جلستُ مع أبي غايب الذي كان يقضي أمسية راحة في الشقة . كانت ساقه قد أصيبت أثناء العمل . بدأ جرحه يندمل ، فأخذ بالحك القاسي . كان لا يستطيع أن يمس الجرح ، فيقوم بالحك حوله بيد حكّاك خبيرة لا تفلت أيّاً من أصابعه على الجرح . قال :

– تربية النحل ستفيدني . إن التعرض المعتدل للشمس هو نوع من العلاج بالأشعة .

– بشرط ألا تصاب بضربة شمس .

– أو أن يلدغني النحل .

سألني :

– هل انتهت خالتكِ من خياطة البدلة الواقية؟

– تقريباً .

تنهّد وهو يحك :

– أتمنى لو نتمكن من خياطة بدلات واقية للجيش . الحلفاء يستخدمون النابالم لحرق الجنود .

– ألا توجد وقاية ضدها بالمرة؟

– كيف يا دلال؟ أتعلمين أن النابالم المطوّر أشّد فتكاً من أيّ سلاح آخر . مادتها تغطي مساحات عريضة ، حيث تقذف كرات هلامية تفوق حرارتها الثمانمائة درجة مئوية . يتعسر إطفاؤها ، ويصعب إزالتها عن لحم البشر .

تخثَّرت المعلومة في رأسي . قصدتُ غرفتي . استلقيت على سريري دون أن انتزع جاربيّ ، أفكر . ملمس الغطاء الناعم أخذ يتحول إلى سطح شائك لقشرة جوز هند مُشعِرة . الكهرباء انقطعت . كأن ظلمة الغرفة ملأت حتى الحيّز في حذائيّ .

يجب أن أنام . غداً عندي موعد مع العم سامي .

سألته :

- من هي أم رائد؟
- زوجتي المرحومة .
- البقية بحياتك .
- تعيشي .
- وأين رائد؟
- معها .
- آسفة . البقية في حياتك .
- تسلمي .

لم يبد عليه أي انزعاج من تساؤلاتي :

- هذا هو دفتر مذكراتها؟
- نعم . وقد أصررتُ أن أستمر بمتابعتها ، وأن أدوّن أحداث الحصار كما كانت تفعل . كانت تلهي نفسها بكتابة اليوميات ، وتختمها عادة بدعائها المفضل «يا عذرا ، انتِ أدرى .»
- ماذا حدث؟
- عندما قُصف مبنى المخابرات ، هوى بيت الفنانة المرحومة ليلى العطار ، ووجدوا زوجتي وابني تحت أنقاض الجدار المهدّم . لقد كانت في

زيارة قريبة لها ، في الجوار ، بكل بساطة .

رنّت عبارة «بكل بساطة» في أذني . سألته :

- أقُصِف بيتها عمداً؟

- لماذا؟

- سمعنا أنها صنعت لوحة الفسيفساء لوجه الرئيس بوش على عتبة فندق الرشيد ، الذي يرتاده الكثير من الأجانب ، ليدوس على وجهه الداخل والخارج .

- لا أعلم مدى صحة هذه الادعاءات .

ثم استمر بالحديث :

- كانت زوجتي توثق يومياتها بالكتابة ، وأنا أوثقها بالصور .

- هل كانت صحفية؟

قال بشيء من الاستخفاف :

- لا . كانت ربّة بيت بسيطة ، ترعى ابنها ، تدوّن مخاوفها على الورق ، وتسهر على طلبات زوجها المصور المهم .

صفن قليلاً :

- كم اعتقدت نفسي مهماً يا دلال؟!

- كيف؟

- كنت أعتقد أنني سيد الكون بفني . آمنت حقاً أنني مميز بفضل كاميرتي ؛ الآلة التي لا تكذب ، حتى بدأتُ بقراءة يومياتها .

ما أكبر أذنيه ، كانتا ترتجفان وهو يتكلم :

- أليس غريباً يا جارتي العزيزة ، أنني ، عندما كنت أُبصر ، كنت أعتقد أن عيني ترى ما لا يراه الآخرون؟!

هز رأسه :

- قتلني غروري . تخيلت أن الحقيقة عندي فقط ؛ في علبة تسجل

اللحظة دون زيف .

مسح لحيته البيضاء القصيرة :

- مشكلتي أنني كنت كما يقول المثل ، «أحمل السلّم بالعرض» . أخطأت عندما اعتقدت أنني وصلت إلى مرحلة الكمال بفني حتى أصبحت متعالياً على البشر ، خاصة على زوجتي . لكنني لم أفهم ذلك إلا بعد فوات الأوان .

- بعد أن رحلت ، رحمها الله؟

- وبعد أن فقدت بصري .

ثم اضاف :

- سنوات طويلة من التصوير ، ولم أر ما أراه اليوم!

لم أرغب في مقاطعته . استرسل :

- الرؤيا تتحول من الخارج إلى الداخل .

- ماذا تقصد؟

- كنت أرى ما يدور حولي وأسارع إلى التقاطه بكاميرتي ، أما الآن ، فأرى ما يدور في داخلي فقط . اقتربت من نفسي أكثر ، وأصبحت أفهمها . في السابق كان مقياس فهمي لنفسي هو اعتقادي بأنني ناجح في عملي . عندما نظرت في الداخل اكتشفت أن للبشر ألواناً مثل هالة مغناطيسية تظهر هذه الألوان على سطح البشرة ، وتحيط بنا أينما ذهبنا . بعض الناس حسّاسون تجاهها ويرونها ، وبعضهم الآخر لا يشعر بها .

- لماذا طلبت مني الحضور يا عم؟

اختفى عدة دقائق في الغرفة المجاورة . عاد يحمل جهازاً مسجلاً :

- لأنك حساسة . الإنسان المحروم يملك هذه الحساسية .

ناولني الجهاز طالباً أن أضغط على الزر . انبثق صوته من السماعة الصغيرة :

- كيف يموت الإنسان مبتسماً؟ قُصف الجنود بقنابل عنقودية . ساعات من مفرَمة بشرية . في الصباح ، تحولت مساحات كبيرة في الجنوب إلى ساحات خردة تتناثر فيها سيارات مدنية وعسكرية . دُمرت ، تفجرّت وتحولت إلى كتل متشابكة من خيوط حديد . بعض سائقيها احترقوا في أماكنهم . تفحّم أحدهم في التو ، ولم يبق منه غير طقم أسنانه المبتسم للكاميرا .

طلب مني أن أُطفىء الجهاز ، فاختلط صوته الطبيعي بصوته الصناعي :

- هكذا أكتب . أسجل ما أريد ، ثم أطلب من أحدهم خدمة نقله من الشريط إلى الدفتر . عادة يساعدني الأستاذ من الطابق الأول لقاء أجر بسيط .

قام إلى الغرفة المجاورة مرة أخرى . عاد يحمل كيساً من قماش :

- هل ترغبين في أن تكوني مدوّنتي؟

- يعني «عارضحالجي» بكلمات أخرى .

لحيته تضحك معه . سألته :

- لقاء أجر بسيط؟

قال وهو يفتح الكيس :

- لا . لقاء هذه .

أخرج كاميرا سوداء قديمة . تحسسها مثل عاشق :

- لا يمكن أن آخذها منك يا عم .

- لن تأخذيها ، بل ستتعلمين من خلالها .

قبل أن أعترض أجلسني أمامه :

- ستلتقطين الحياة كما ترينها انتِ ، وليس كما يراها أو يريدها الآخرون لك .

رفع يده :
- الدرس الأول ؛ لا تأخذي أية صورة إن كنتِ غير مقتنعة بالزاوية . بضغطة زر واحدة ستجمدين لقطة من الحياة إلى الأبد ، لذا يجب أن تقتنعي بها كلياً قبل أن تجمديها .
- لست متأكدة إن كان لدي ما أود ان أجمده إلى الأبد .
تجاهل رفضي واستمر :
- هذا يعتمد على الموقع الذي ستكونين فيه . ستدركين ، في الدرس الثاني ، أن التصوير ليس مسألة احتراف تقني فقط ، إنما يحتاج كذلك إلى قليل من الحظ . يجب أن تكوني في المكان المناسب وفي الوقت المناسب . اقتنصي الحمامة قبلَ طيرانها وإلا ستكون الصورة التي التقطتِها عبارة عن عش فارغ .
وقفت ، فتابعني بنظراته كأنه يراني :
- يا عم . لماذا أنت مصّر؟ سأدون لك ما تشاء ، دون أجر ، لكن لا أرغب في أن أكون مصوِّرة .
- وماذا ستفعلين في حياتكِ ، هل ستصبحين خياطة ، أم مربية نحل؟
- سأكمل دراستي .
- هروب مناسب .
- الدراسة ليست هروباً!
- جيد ، لكنها لا تجلب الخبز في ظروفنا هذه . هل ترغبين حقاً في أن تصبحي مدرّسة تتقاضين أربع دولارات كراتب شهري مثل الأغلبية؟
رحت أتفرج على الفأرتين تتدحرجان فوق بعضهما . قال :
- راتبكِ لن يكفي لشراء طبق بيض .
اقترب مني . نظراته تخترقني . وضع الكاميرا في يدي . شعرت

بثقلها :

- أما الدرس الثالث ، فيؤكد أن الاحتراف التقني ، والحظ ، لا يكفيان . يجب على المصور أن يأخذ القرار بنفسه . يجب أن يخرج إلى العالم ، ويبحث بنفسه عن اللحظة .

تحسستُ العدسة والأشياء الناتئة من الجهاز :

- يجب ، يجب ، يجب . يا عم سامي ، مللتُ محاولات أهل العمارة ، كلٌ يرغب في أن يعلمني مهنته . سأنتهي «سبع صنايع والبخت ضايع» .

- يا دلال . لا تكوني سلبية . إن العمر كله لحظة . تمتعي بها .

نزلتُ السلالم . لم أتوقع أن شخصاً آخر سيعرض عليّ مهنته أيضاً في المستقبل القريب . أنه المالك الجديد للشقة الأرضية . اسمه سعد .

الفصل السابع

- فُقنا السودان .

- كيف؟

- لقد تم تدمير بلدنا . إن نسبة وفيات أطفالنا فاقت النسب في السودان .

جلسة إلهام المستقيمة إتخذت شكل كرسي . تَنهدَتْ :

- أتمنى أن أهرب من المستشفى بسبب منظر الصغار وهم يحتضرون .

ناولتها ولاعة لتشعل سيكارتها . قالت وهي تتأمل الجمرة تستعر سريعاً :

- أطفال الجنوب يلعبون ببقايا شظايا القصف . إنهم ضحايا اليورانيوم المنضّب في مواقع الغارات الجوية من البصرة إلى كربلاء إلى بغداد .

مدَت يدها في كيس ورق . أخرجَتْ اللعبة التي كنت قد تبرعتُ بها لقسم الأطفال :

- خذيها . لقد مات . كم تعلقتُ به . لم يبلغ الثامنة بعد . نزف

حتى الموت . أدركت ذلك عندما ظهرت نقاط حمر على خدّيه دليل نزيف داخلي في الأمعاء . وهناك أطفال آخرون ينزفون من الفم ، والأذن ، والشرج .

أمسكَتْ بالسيكارة بيد ، وبلعبة القماش باليد الأخرى . كان زوج خالتي قد جاءني بها من احدى رحلاته القديمة . اسمها RAGGEDY ANN . وجهها من قماش ، وعيناها مطرزتان بخيط أسود بعد أن قلعت خالتي الأزرار التي كانت مثبتة بمثابة عيون لها . خاطت الزرَّين فيما بعد على فستان سهرة لإحدى زبوناتها .

كانت إلهام تبدو مرهقَة . تعبث باللعبة . تكلمني ، وهي تسحب الخيط الأسود فتفلّ العينين المطرزتين تدريجياً دون أن تشعر . صوتها مُثقَل :

– خدمتي في مستشفى البصرة ، قبل سنتين ، بدأت تعطي ثمارها .

– عمّ تتكلمين؟

– عن الثمرة المفاجَأة .

ناولتني اللعبة . وقَفَتْ . شرعَت ترفع ثوبها . كشفت عن صدرها . بروز أحمر على ثديها الأيمن . عصرَته . ركضتُ باتجاهها أصيح وبيدي منديل :

– يا إلهي يا إلهام ، ما هذا؟!

أخذَت المنديل ومسحَت به البروز . راحت دموعها تنهمر . اقتربتُ منها :

– ماذا تفعلين؟!

– قالوا في المستشفى إنه دُمّل .

– كيف أصبتِ به؟

تجاهلَت سؤالي :

- أي دُمّل يخدعونني به!

- وما علاجه؟

- لا علاج له يا دلال . إنه سرطان . رأيت ما يكفي لأعرف الفرق . يبدو جاء دوري .

أعادت تركيب مشد الصدر ، وهي تلعن أمها :

- أُراهنكِ أنها جالسة في مقهى باريسي تتناول شوكولاتة ساخنة في هذه اللحظة .

لم أستطع الربط بين ما أراه وبين سيدة لا أعرفها في فرنسا . لم أجد ما أقوله غير :

- دعيكِ منها . هيا ، لنخرج قليلاً .

لم تجف دموعها وهي ترتدي ثوبها . اقترحت عليها أن نذهب بنزهة ، فلم تعترض وتبعتني .

تركنا خلفنا لعبة قماش دون وجه .

أخذتنا أقدامنا باتجاه شارع أبي نؤاس بمحاذاة نهر دجلة . عضلات شفتيها تنقبض وتنبسط وهي تدخن بإيقاع عصبي ؛ كابوس ، واقع ، كابوس ، واقع . ترشف حالتها إلى رئتيها كأنها تحاول تصفيتها . استوقفتنا شهرزاد قبيل المغيب ، يذوب قرص الشمس في يدها المفتوحة . تنحسر سحنة نحاسية عن جسد شهريار الممدد وهو يغفو على قصص جاريته . جلسنا على مقعد خشبي نتأمل التمثالين وهما ينفضان تدريجياً ضوءاً من نعاس زعتري .

التزَمت إلهام صمتاً طويلاً قبل أن تقول :

- ليتني مثلها .

مشيرة إلى التمثال :
- أشبهها طبعاً ، من ناحية أن قشرتها الخارجية صلبة . برونز من الخارج ومجوفة من الداخل .
أضافت :
- أتعلمين كم غريب الشعور بأن تكوني هيكلاً مليئاً بالفراغ؟ هواء يدخل وهواء يخرج .
جلستي توازي فخذ شهريار الهائل . لا أدير رأسي تجاهها خوفاً من مقاطعتها :
- لكنها محظوظة في الوقت نفسه . لو كان عندي رجل ربما ما كان ليحدث ما حدث .
- لا أفهم .
- لم أشعر بالدمّل طوال فترة نموه . كان يكبر وأنا مشغولة بعملي . لم يخطر ببالي أن أتحسس جسدي بحثاً عن أورام . ليس لدي الوقت حتى لأن أتحسس .
قالت مستهزئة :
- هذه هي فوائد الرجل .
رفعت يدها فارتفع كتفها :
- حتى أثناء الاستحمام أستخدم ليفة ثخينة ، يبدو أنها منعت الاتصال ما بين يدي وبقية الجسد .
رمت رأسها إلى الوراء قليلاً :
- آسفة يا دلال . ربما أنت صغيرة على هذا الكلام . أعلم أنك لم تدخلي الجامعة بعد . لكن ، قد لا أكون هنا عند الاحتفال بتخرجكِ .
- لا تبالغي ، ولا تقلقي .
قطعَت اتصالها بالغروب لتحدق بي :

- ورم طوله أربعـة سنتـمـتـرات وعـرضـه ثلاثة سنتـمـتـرات لـيس مبالغـة .

وضعَت ذراعها حول كتفي . ابتسامة حمراء رفيعة وجدت طريقاً إلى وجهها الأبيض :

- أما قلقي يا جارتي البريئة ، فيتجسد في انتظار ورقة من إدارة المستشفى بأنني مفصولة عندما تكتشف حقيقة الموضوع .

- لماذا يطردونك من العمل؟

- لأن المرض سيتعبني .

أتعبتها الجملة مقدماً :

- الخطوة الأولى ستكون عملية .

- عملية؟

- بالطبع . من سيعرف تفاصيل الداء أكثر مني؟ أما الخطوة الثانية فستكون العلاج الكيمياوي .

- أيجب أن تأخذي هذا العلاج المكروه؟

- ليـست المسـألة أيجب أم لا ، المسـألة هي من أين سـأوفـر كلفـة العلاج والعملية؟

لعبَت بواوات شعرها الأسود :

- على كل حال ، كيف سأذهب إلى الدوام دون شعر وأهداب؟

لم تجد جوابها عندي .

بدأت ظلمة طازجة تتداخل بوريقات أشجار الحديقة العامة ، حيث كنا نجلس . سألتني :

- بمناسبة الحديث عن الدوام . ماذا ستفعلين بمستقبلكِ؟

- سأصنع سلة مهملات ناطقة .

انفجرَت فيها ضحكة غير متوقعة . شفتاها تشكلان حلقة من مطاط

مُمَغّط ترتعش :

- ماذا قلت؟!

أخرجتُ لهَا مقالاً من مجلة وعي العمال من جيبي . قرأتُ لها :

- أبدت إحدى بلديات شمال بريطانيا استعدادها لوضع سلال مهملات ناطقة في أنحاء المدينة تقول «شكراً» بمعدل كل خمس دقائق . وهي تهدف إلى تشجيع الجمهور ، ولا سيما الأطفال ، على رمي النفايات في الأماكن المخصصة لها . ويدار جهاز التسجيل في سلال المهملات بواسطة بطارية مثبتة داخلها .

أخذَت المقال من يدي وفمها يزداد مطاطية . قلتُ لها :

- أعجبتني الفكرة .

- أنت ضالّة يا بنت .

- وما رأيك بالجهاز الذي يثبتونه ، في بعض الدوائر الحكومية في أوروبا ، ليبث شحنات سالبة في جو الغرف ، ليطرد الخمول عن الموظفين؟

نظرت اليّ وهي تشعل سيكارة أخرى . قلتُ :

- أما جهازي المفضل فهو ما اطلقتُ عليه «الدلاّية» . إنها أجهزة منصوبة على أرصفة المدن الكبرى تدلّ على المكان الذي ترغبين في الوصول إليه . تُظهر خارطة مُضاءة يرافقها صوت جميل يعطيكِ الاتجاهات .

مدت إصبعها باتجاه إشارة ضوئية ، منحنية عبر الشارع ، ترمي ظلها الثلاثي على رصيف مختف تحت مياه راكدة . تطفو ثلاثة أقراص متكدّرة من حلوى بلوّرية ؛ رمان ، عنبر ، نعناع . قالت :

- بما أنك مولعة بالمدينة وأحوالها ، أليس الاجدى أن تجدي حلولاً لمناظر مثل هذه أولاً؟ على كل حال ، أعلم أنك تمزحين ، وقد ألهيتِني فعلاً عن مصيبتي . شكراً .

رددت خلفها :

- شكراً ، وبعد خمس دقائق شكراً ، وبعدها بخمس دقائق شكراً ، ثم . . .

قاطعتني :

- يا دلال ، آن الاوان لأن تفكري بجديّة . كفاكِ من المجلات والمقالات عن أوروبا .

- ماذا؟ لا تقولي لي إنك ترغبين في أن أتعلم مهنتك مثل البقية . التمريض؟

- لا .

بدأ خشب المقعد بإزعاجنا ، فتعدلت في جلستها :

- كنت سأقترح عليك تعلم اللغة الفرنسية .

- لماذا ، لأبحث عن أمك المفقودة؟

راحت تضحك :

- كلا أيتها الشريرة . لكن اسمعيني . سيأتي زمن ستعود فيه الدول الغربية إلى بلدنا لترميمه . في المستقبل القريب سنحتاج إلى مترجمين . بإمكانك أن تهيّئي نفسك لتترجمي العقود التي ستوقّع مع الأجانب لإعادة بناء البنية التحتية للوطن .

- ولماذا الفرنسية بالذات؟

- لأن الكهرباء ستكون في رأس اللائحة ، وسمعت أن الشركات ستتحرك في هذا الاتجاه ؛ ولأن التعليم ما يزال مجانياً في الجامعات الحكومية رغم الظروف ، فاستغلي الفرصة ؛ ولأنك تحبين المطالعة ؛ ولأنني أستطيع أن أعطيك مبادىء اللغة وأساعدك في الدراسة .

ثم أضافت :

- انتبهي إلى دخول فرق التفتيش عما أسموه بأسلحة الدمار

الشـامل . فـريق الامم المتـحـدة UNSCOM هم أول الأجـانب الذين سيحتاجون لمترجمين فوريين . لن يتركهم رجال الأمن يصولون ويجولون بدون مترجم معتمد محلي . يجب أن تتعلمي مصطلحات علمية كثيرة تخص أسلحة نووية وكيمياوية وبيولوجية .

– خالتي ستزعل . وزوجها يتوقع أن أربّي معه النحل . لكن سأفكر في الموضوع .

نهضنا لنغادر . عندما وصلنا إلى الإشارة الضوئية المائلة ، استدرت لألقي نظرة على البقعة التي جلسنا فيها . أخذ المتنزه يتلاشى في المغيب وضوء النهار ينطفئ شيئاً فشيئاً على امتداد الكورنيش ، حيث كان يلتقي الصيادون في زمن الخير . رجل يقف بجانب مجموعة من سمك مسقوف . السمك مفتوح من ظهره وأحشاؤه بلون الفراولة . السقّاف ينظر إليّ بعينين زرقاوين دون بؤبؤ . أقدامه تظهر من تحت الدشداشة ، له قدم يمنى على اليمين وقدم يمنى أيضاً على اليسار! يبدو لي في حالة تعثر أبدية .

بعد عدة أيام ، طلبت مني إلهام أن أرافقها لزيارة أم مازن . قالت :

– قد أجد عندها مهدئات طبيعية . نومي يزداد اضطراباً .

في غرفة الانتظار ، كانت تجلس سيدة تمسك بكيس وهي تشدّ عليه حتى تكاد تحضنه ، تحوم حولها طفلة كثيرة الحركة تُخرج من فمها علكة وردية ، وتعجنها على شكل مربع مسطح ، ثم تبتسم واضعة إصبعها في فمها لتحشر العلكة ، في فراغ يتوسط لثتها ، بمثابة سن . ظلت الصغيرة في الغرفة بينما دخلنا عند أم مازن .

لم تكن جلسة فناجين هذه المرة . تناولت السيدة شرشفاً أبيضَ من

الكيس ، وفرشته على حضنها ، قائلة :

- ابنتي اكتشفت هذا الشرشف مخفيّاً تحت شرشف آخر على فراش والدي .

- أين والدتك؟

- منفصلة عنه تعيش في بيت ثان .

- ومع من يعيش؟

- مع زوجته الجديدة . بعثتُ ابنتي لزيارته حسب طلبه ، فهي حفيدته الوحيدة ، وقد جاءت لي بهذا الشرشف .

راحت أم مازن تدمدم وهي تقلبه :

- إذا عُرف السبب بطل العجب .

على قطعة القماش رسم أصفر لجسم حمار رأسه آدمي وله أذنان طويلتان ونظرة حزينة . فوقه تجلس امرأة جميلة سيقانها تتدلى على ظهره . سألَت :

- بلا حرج ، هل هذا يشبه رأس والدك؟

خفضت السيدة عينيها :

- نسخة شبه الأصل .

- والمرأة؟

- زوجته الجديدة .

تهز أم مازن رأسها :

- كيدهن عظيم .

السيدة صاحبة الشرشف تنتظر تحليل أم مازن التي تضيف :

- يبدو أنها متمكنة ، مكراً ومادة ؛ تحاول أن تستغل زوجها .

- ماذا تقصدين؟

- انه حجاب السيطرة ، مرسوم بماء الزعفران . يكلف مثقال الزعفران

هذه الأيام أربعة آلاف دينار . زوجة والدك تعرف مهنتها جيداً ، وهذا يعني أنها تسيطر على والدك مثلما يسيطر الإنسان على الحيوان ، مع احترامي .

– إذن ، هكذا أقنعته أن يتزوجها على أمي .

– غير مستبعَد . على كل حال ، سأعمل لك حجاباً مضاداً من دهن الورد غير المرئي . سأثبته خلف قطعة القماش ، ثم تطلبين من ابنتك أن تعيده إلى مكانه في زيارتها القادمة لجدها . أضيئي له شمعة قبل الفجر بساعة ، واقرئي له «سورة البقرة» سبع مرات . بعد ذلك أحرقي ، على نار هادئة ، حفنة من الملح باليود حتى يتبخر ، ثم ارمي الملح المتبقي خارج داره .

رفعت أم مازن يدها :

– أهم ما في الموضوع هو أن لا تكتشف زوجته ما فعلنا ، فهي خبيرة . هذا النوع من النساء باستطاعته أن يحوّل حفنة من قمح إلى نمل فارسي ، بتلاوة عدة أسطر من كلام مقلوب .

بدا الذعر على السيدة . قامت أم مازن من مكانها وفي يدها الشرشف . توجهت إلى المطبخ ، وهي تقول :

– عذراً ، بعض الحجابات اختصاصي ، فبَدْرية لا تقرأ ولا تكتب . لقد تعبت معها حتى علمتها كيف تميز بين الأعشاب من ألوانها ورائحتها وملمسها .

لـمّت كرشها في دشداشتها ، تستأنف :

– استيعابها ثقيل ، لا تعرف حتى كيف تقرأ الساعة وتعتمد على أذان الجامع القريب الذي يقسم لها اليوم خمسة أقسام . لكنها أمينة مع ذلك . سأعود بعد قليل .

في هذه الاثناء ، جاءتنا خادمتها بالشاي المغلي بالهيل .

عادت أم مازن . قبل أن تطلب منها المهدئات ، سألتها إلهام :
- أم مازن ، كيف أصبحت متمرسة في هذا المجال؟
- الحاجة .
سلمت الشرشف للسيدة ، وتسلمت كلفة الحجاب ، ثم قالت لها :
- تفضلي وخذي إبريقاً مجانياً من بَدْرية في المطبخ . هذه هديتنا بمناسبة حلول رمضان قريباً ؛ صياماً مقبولاً .
غادرت السيدة ومعها الشرشف ، وإبريق بلاستيكي أزرق ، والطفلة ذات السن الوردي .
استأنفت أم مازن ، ولم يبق في الغرفة غيرنا :
- كنتُ في الخامسة عشرة من العمر عندما فقدتُ أبويَّ . كان عندي أخوة يجب أن أربيهم وأنا لا حول لي ولا قوة . أمي المرحومة كانت طباخة في أحد مطاعم شارع الرشيد . عرض عليّ أحد التجار الذين يرتادون المطعم أن أعمل معه . قلت له : «لن أسمح لنفسي أن أكون دلالّة» . قال : «هذه تجارة عامة ، والرسول (ص) بارك التجارة» . اقنعني ، فدخلت المهنة .
كانت ، وهي ترتشف الشاي من بين كلامها ، تصدر ورَوَرة مميزة :
- استيراد وتصدير مع الكويت . تعاملنا بالملابس ، أدوات السيارات الاحتياطية ، البامية ، الصابون ، السمسم ، الصوف . بعد ذلك اشترينا محلاً مشتركاً في سوق الحريم . هناك تعرفت على تاجر هندي اسمه مرجان . علمني كيف أبطل مفعول بعض أنواع السحر لقاء أن أقرأ له مستقبله في فنجانه .
أخرجَت منديلاً أسود من جيبها ، وراحت تنفخ فيه بكل قوتها :
- آه ، قتلني هذا الرشح .
نادت على بَدْرية لتأتيها بكبسولة مضاد حيوي . ابتلعتها على عجل

دون ماء . علقت الكبسولة بلهاتها . ارتبكت أم مازن ، فتجشأت . نفثت دخنة خفيفة بحجم فمها من مادة الكبسولة البيضاء . ذهلتُ وإلهام لمنظرها . كان مسحوق الدواء يتطاير في فمها وهي تشهق . جاءتها بَدْرية بقدح ماء . أغلقت فمها مثل بوابة ثقيلة لتبتلع أكبر كمية من الماء جرعة واحدة . بعد قليل بصقت أوعية الكبسولة التي انفتحت قرب بلعومها ؛ النصف الأخضر أولاً ، ثم نصف الكبسولة الأبيض . راحت تتعوذ من الشيطان الرجيم دون توقف ، وتَدْعو على مصنع أدوية سامراء .

قالت لها إلهام :

- سلامتك أم مازن . سآتي لك من المستشفى بحبوب سهلة الابتلاع .

قالت لها أم مازن بعد أن هدأت :

- بما أنك ممرضة ، كيف يمكن أن أخدمك؟

- سئمنا في مهنتنا من الأدوية . أنا في حاجة لعلاج طبيعي . اشعر بإرهاق وأرق .

- في هذه الحالة ، تأخذين كيلو من السكر ونصفه من الخميرة . تذوبينها على البارد في لترين من الماء ضمن وعاء زجاجي تسدّينه باحكام ، وتصبرين عليه أسبوعاً للتخمير . في اليوم السابع تفتحين الوعاء ، وترمين فيه قبضتين من البراعم المزهرة لعشبة إكليل الجبل المجفف . تسدين الوعاء ، وتتركينه يستحلب طوال شهر كامل . بعده ، تصفّينه وتعبّئينه في زجاجات تُسَدّ حلزونياً . تحفظينه للاستعمال عند الحاجة . سيخدمك سنة كاملة . أما الجرعة ، فتأخذين ملء فنجان شفة قبل الأكل ثلاث مرات في اليوم .

نادت على خادمتها :

- هاتي عشبة إكليل الجبل وكيس خميرة .

أخذت إلهام المواد :

- شكراً حجية .

كانت أم مازن ترشقني بنظرة . سألتها إلهام :

- وماذا حدث لمرجان؟

- الله يذكره بالخير . اختفى . عاد إلى الهند على ما أعتقد ، ففي سنة ١٩٩٠ ، عندما اشتدت علينا الأزمة ، تركنا محلاتنا كما هي ، وبسبب شرائنا بضاعة من الكويت أصبحنا مطالَبين بمبالغ ضريبية هائلة فُرضت على كل الذين تعاملوا مع الكويت . فرّ شريكي في تلك الفترة ، وتوجهت أنا إلى هذا العمل .

استدارت نحوي :

- أنت قليلة الكلام .

- ليس لديك علاج لي .

- ليس ضرورياً أن تأتي إلى هنا لتتعالجي . نستطيع أن نتحدث في مواضيع أخرى .

تخرج من أم مازن طاقة شعرت أنها تخترق كتفي الأيسر . تطلب مني أن أجلس مقابلها لكي ننظر في عيني بعضنا . لم أشعر بارتياح .

- مثل ماذا؟

- مثل العسل . سمعت أنكم على وشك أن تجنوه .

- تقصدين نفرزه .

- نعم ، نعم ، هذا ما أقصده . أتعلمين أنني أستهلك عشرين كيلوغراماً من العسل شهرياً ، أقرأ عليه الحجابات ، وأستخدمه في أغلب أنواع العلاج؟

لم تستهوني طريقتها في خلق حديث معي . نبرتها جافة وبؤبؤها غائم :

- زبوناتي- عفواً ، أقصد صديقاتي- يثقن بي لأنني أستخدم العسل الأصلي فقط . أنا أفهم في العسل . لا أحد يستطيع أن يغشني في هذا الموضوع .

ذهبت إلهام تتحاسب مع الخادمة . انطلقت أم مازن :

- «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربكِ ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .»

راحت الخادمة تردد في الممر :

- صدق الله العظيم .

أفكر فيما يقوله أهل العمارة عنها . عندما تملّ ، في الامسيات ، تطلب من بَدْرية أن تأتيها بالجمبارات : أربعة صحون صغيرة من نحاس معلقة بحلقة مطاطية ترتديها على السبابة والإبهام من كل يد ، وتبدأ بالعزف ؛ جم جم جا جا جم جم جا ، وبَدْرية تعطيها إيقاعاً خلفيّاً بضربات منتظمة بالدق على هاون حديد .

أضافت :

- حتى البدو ومنذ أربعة عشر قرناً عرفوا فائدة النحل .

قلت لنفسي : «يجب أن أعرّفها على أبو غايب .» كأنها قرأت أفكاري! قالت :

- سلمي لي على زوج خالتك ، وخالتك طبعاً ، وأخبريه أنني مهتمة بشراء أول وجبة عسل ينتجها .

بعد قليل صاحت على بَدْرية :

- الغداء جاهز؟

- نعم حجية .

تطلب مني وإلهام :

- ابقوا معنا . طبخنا رز بسمَتي نخب أول . كبير وحبته كاملة غير متكسرة يصطف في الصحن مثل عين الوَزة .

اعتذرنا عن تلبية دعوتها . تركنا شقتها وهي تقول لخادمتها : «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .» تخيلتُ بَدْرية من خلف الباب تهز رأسها بالإيجاب .

أبو غايب يتقمص دور مُزارع . يرتدي اليشماغ ، ويأخذ صورة فوتوغرافية من أجل أن تصدر له هوية فلاحين . يقول لزوجته :

- لقد قُدّرت الأضرار بسبب الحصار ببلايين الدولارات . لقد عدنا إلى عصر ما قبل الصناعة ، لذا فالحكومة باتت تشجع الفلاحين لتسند الاقتصاد .

- ما لا أفهمه هو ، لماذا قصفوا جوامع ومدارس ودور معوقين وملاجئ للمدنيين . ما علاقة ذلك بالاهداف العسكرية؟

هز رأسه يوافقها :

- والإحصائيات تقول إن خمسة عشر من كل مائة من الشعب فقط بإمكانهم شراء الغذاء من السوق بالاسعار الحالية .

اضاف :

- كنا نستورد سبعين في المائة من حاجتنا للغذاء . الآن حرمونا من البذور ، والحلقة تكتمل بضرر الثروة الحيوانية بعد أن قصفوا المختبر الوحيد للبيطرة واللقاحات ضد الأمراض . عدا عن تخريب أنظمة الري والنقص في الأسمدة ومبيدات الحشرات .

رفع حاجبيه قائلاً :

- وأزيدكِ للشعر بيتاً ؛ لقد منعت الأمم المتحدة من خلال لجنة الإشراف على الحصار وصول الخيوط التي تستخدم في خياطة ملابس الأطفال بحجة أنها تدخل في الصناعة . كما منعت الأقمشة المستخدمة في تكفين الجثث قبل دفنها ، تصوري! يمنعوننا من صناعة النسيج كأنه سيهدد أمن المنطقة!

قامت خالتي من مقعدها :

- كارثة!

- بالطبع كارثة .

- أقصد ، دون خيوط وقماش ، كيف سأعمل؟

في اليوم التالي ، قررت خالتي أن تذهب إلى السوق العربي مبكراً ، لتشتري أكبر كمية من الخيوط الملونة والأقمشة المتنوعة . جمعت كل النقد الموجود في الشقة ، وتركت زوجها في نومته المتأخرة ، لعلمها أنه أخذ دواء مركّزاً للصدفية فيه نسبة عالية من مادة منومة ، ولن يستيقظ بسهولة .

جاء الماء . سآخذ حماماً مطولاً . سمحتُ للقطرات النقية أن تنزلق فوق شعري ووجهي . أصابتني وشّة لذيذة عندما انحرفت قطرة منها ودخلت في أذني . وقفت جانباً لأدع اقتراحات أم مازن تنزل مع الماء في المجرى . السطح الخشن للصابونة النابلسية القمحية يفرك لي جلدي فانتعش . لم أستخدم الليفة ، بل تحسست جسدي بحذر بحثاً عن أورام .

يجب أن أوفّر بقية الماء لغسل الملابس ظهراً . رغم رغبتي في المزيد ، أغلقت الصنبور فوصلني الشخير المزعج لأبي غايب . توجهتُ لأغلق باب غرفة نوم خالتي فأحصر غطيطه في الداخل .

وضعتُ يدي على مقبض الباب . إنه غارق في الشخير والحر . طرف

الشرشف منحسر عن جسده العاري ، وهو ممدد على ظهره . أودعت ثلث جسدي في الغرفة لألقي نظرة خاطفة ، لكنها ، طالت قليلاً . شيؤه ؛ يشبه فأراً صغيراً ، أعمى ، مسلوقاً ، مجعّداً ، ملموماً أسفل بطنه . فجأة تحركَت القدم اليمنى ، فوجدت نفسي بلحظة ، في غرفة الجلوس ، عند الشباك الكبير .

مثلما تعلمتُ فيما بعد ، طرق تخزين العسل ، خزنتُ تلك اللقطة في ذاكرتي لمدة سنتين - في درجة عشرة مئوي .

الفصل الثامن

- صعبة . صعبة .

لم يرق لي صوته في الوهلة الاولى . كانت نبرته وكأنها زبدة هولندية سائحة :

- نحتاج إلى عملة صعبة .

استمر الرجل يقول للأستاذ من الطابق الأول :

- ومع ذلك ، لن نخرج من هذه الأزمة بسهولة .

أجابه الأستاذ :

- صحيح . لكن ، على الأقل أنت صاحب مهنة حرة .

- لكنها غير مغطاة بمواد «النفط مقابل الغذاء» .

لم ينتبها لوجودي بعد أن عبرت الشارع تجاههما . كنت أرقب ظهريهما يتمدّدان ، وهما يتعاونان على تعليق لوحة مزخرفة ، مخطوط عليها «حلاقة سعد للسيدات» .

بعد أن تعارفنا ، قال :

- إذن ، أنتِ دلال . حضرة الأستاذ أعطاني نبذة مختصرة عن أهل

العمارة .

- وأنت حلاق يا سعد؟

عدل ياقة قميصه ، كوّر شفتيه قائلاً :

- كوافيير .

- مبروك المحل .

- نصف محل في الحقيقة ، فأنا سأسكن في النصف الخلفي من الشقة .

قال الأستاذ :

- موقع استراتيجي . ستجد زبونات كثيرات هنا .

عبر بعدي طفل ، يشبه الأستاذ بنحافته ، يرتدي سروالاً ممزقاً وتحت إبطه مجموعة صحف . سارع الأستاذ بأخذ جريدة وأعطاه ما في جيبه ، قائلاً :

- سلم لي على أمك يا حمادة .

سألته :

- هل تعرفه؟

هز رأسه :

- كنت أعرف والده . كان رئيس تحرير مجلة ثقافية . وفي إحدى جولاته في قرية حلبجة لتغطية المنطقة التي تعرض فيها اخواننا الأكراد لقصف كيمياوي ، أصابته سحابة صفراء . تقيأ ثلاثة أيام حتى مات . والآن ، ابنه يبيع الصحف ليعيل أمه .

تمعن حمادة في فمي ، ثم قبّل قطعة النقد وأخذها معه ، عائداً من حيث أتى . اختفى في ممر جانبي عند مطعم «وهبي» الذي كان اسمه «WHIMPY» ولكن بعد أن أصدرت الحكومة قراراً يمنع استخدام الاسماء الغربية للمحلات والمطاعم اصبحت كل المشاريع التجارية تحمل اسماءاً عربية .

نظر إليّ سعد . عيناه مثل مقطع عرضي من حبّة زيتون أسود دهنيّة . قال :

- أكدت منظمة UNICEF ان نسبة وفيات الأطفال الذين هم تحت سن الخامسة زادت إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل حرب الخليج .

رفع يده إلى رأسه ليزيح غرة سوداء عن جبينه :

- هل سمعتِ في حياتك عن كآبة أطفال! أغلب هؤلاء خسروا اقرباءهم واصدقاءهم إثر الانفجارات ، وأنقذوا بعضهم من تحت انقاض الأبنية المتهدمة .

في تلك اللحظة نزلت أم مازن السلم تلهث ، بَدْرية تسرع خلفها حتى تكاد تصطدم بها . توقفَت حيث كنا ، وأخذت تحلل سعد .

- مرحبا .

قال لها :

- مرحبتين .

- أنت الجار الجديد؟

- نعم .

- سمعنا أنك مزيِّن .

أجابها سعد بالفرنسية :

- كوافيير .

- عندك حنّة أصلية . . .

ثم تضيف بلهجة جنوبية :

- يا سيد ، هل قلتَ كافور؟

تبادلتُ كركرة مع الاستاذ من الطابق الأول للهجتها الريفية وهي تلفظ كافور ؛ هذا العشب الذي يُغلى مع الشاي في الجيش ليحدّ من

الرغبة الجنسية لدى الجنود ، أو هكذا يُقال .

راح سعد يداعب غرته بأصابع ناعمة ، مبتسماً :

- مخلوطة بالقهوة التركية .

- أريد كيلو .

- تفضلي عندي الأسبوع القادم .

- زاد فضلك . سأرسل لك مساعدتي . سنذهب للمزاد .

- أي مزاد ، لطفاً؟

- بعيد عنكم ، توجد مجموعة من العوائل بدأت ببيع ممتلكاتها خارج بيتهم قبل أن يبيعوه . يقال إن الأرصفة مكتظة بمجوهرات ، وأدوات مطبخ ، وسجاد ، وملابس .

تنهدَت :

- كل شيء للبيع .

نطّت بَدْرية من خلفها قائلة :

- حتى أبواب الخشب يا أم مازن .

وافقتها سيدتها :

- أي نعم ، حتى أبوابهم المقلوعة . الخير يخيّر ، والشر يغيّر .

عدلت عباءتها قبل أن تعبر الشارع باتجاه موقف الباص الذاهب إلى شارع الكفاح . ابتعدتا . كان سيبتلعهما الظل المقوّس لنصب الجندي المجهول لكنه لم يعد موجوداً . لقد هُدم في هذه الساحة وتم بناؤه في منطقة أخرى غير سكنية . وعليه ، ابتلعهما ظل منارة الجامع .

التقيتُ بخالتي تخرج من الشقة . قالت :

- جئتِ في الوقت المناسب .
وضعَت مجلة BURDA في يدي بينما هي تقفل الباب . سألتها :
- إلى أين؟
- رافقيني إلى طبيب الأسنان . التهب ضرسي ، لم أعد أحتمل الألم .
أقرب عيادة كانت بجانب المعهد الفرنسي ، على مبعدة عشرين دقيقة مشياً . تذكرت ما قالته لي إلهام عن أنني أضيع وقتي بقراءة المجلات ، ثم شرحت لي أن معجنات «الميلفييه» ، التي كنا نتناولها في زمن الخير ، تعني بالفرنسية «ألف ورقة» ، فخورة بهذا الاكتشاف .
قطعنا الشارع الذي يقع على جانبيه فندقي «ميريديان» و«شيراتون» . اجتزنا البيت ، الذي احترق قبل فترة لأن أهله خزنوا البنزين ، خوفاً من السرقة ، تحت التراب ، لكنه تسرب ، فانفجرت حديقتهم . بعد عشر دقائق أخرى انعطفنا عند السلالم المؤدية إلى المعهد المغلق بسبب الحصار . فتح لنا الباب الطبيب الشاب ، الخريج الطازج ؛ الأرخص حالياً .
غرفة الانتظار هي غرفة العلاج نفسها . فتاة تنتظر أن ينتهي الطبيب من أسنان أمها . خالتي تحاول أن تريني كيف نطبع باتروناً لفستان صيفي من الخطوط الخضر المتقاطعة على صفحة الباترونات في منتصف مجلتها العزيزة . لم أكن أركز على انفعالها ، وهي تحاول أن تتجاهل ألم ضرسها .
كنت أرقب الفتاة ، التي تحاول تثبيت كماشة هائلة في شعرها ، وتصر على تثبيتها دون جدوى ؛ شعرها المسبل ينزلق من بين أسنان الكماشة . تزعجها ذبابة ، وبدلاً من أن تترك ما في يدها لتطرد الذبابة عن وجهها ، تشرع بالنفخ عليها لتبعدها وهي ما تزال تعبث بشعرها . رأسها يدور في كل الاتجاهات . ترفع ذراعها وتمسح كرة الشعر الكثة تحت

إبطها بورق تواليت أخرجته من حقيبتها .

المصباح القرصي ، الذي يضيء فم المريض ، فيه ثلاث شمعات كهربائية . اثنتان لا تعملان وواحدة تبعث ضوءاً ضعيفاً . جاء الأخ الأصغر للطبيب بيده مصباح يدَوي . وقف خلف أخيه الخريج يوجه له الإنارة حسب الحاجة .

أما مقعد المريض فعبارة عن كرسي جلد مخلوع من سيارة قديمة تحوّر بيد ميكانيكي فنان إلى مقعد خاص بعيادات طب الأسنان . لا يرتفع أو ينخفض ، لكنه يتحرك إلى الأمام والخلف بمساعدة المريضة التي يجب أن تمد جذعها هنا وهناك .

بعد قليل اكتشفنا أن جهاز تعقيم أدوات العلاج ، هو فرن صغير من أيام الخير كان مخصصاً لشواء الدجاج ، والتعقيم ضد الميكروبات يتم بواسطة سرنجة بلاستيكية - تطفو في كأس كانت وعاءا لجبنة الابطال - مليئة بمحلول من ماء حنفية وديتول . الطبيب يرش المحلول في فم المريض ويطلب منه أن يبصق في سطل منبعج .

السيدة مسمرّة في الكرسي . شيء ما يؤلمها . فجأة ، دخل أصغر اخوة الطبيب وناداه :

- تلفون ، عليك .

سأله :

- ناعم لو خشن؟

- ناعم .

ترك فم مريضته مفتوحاً ، واختفى .

هربنا قبل أن يعود .

عند الثالثة ظهراً ، في اليوم التالي ، دخل أبو غايب الشقة مرتدياً

بدلته الواقية . كان قد قضى الصباح بفحص النحل . جلس على الأريكة وشرع ينتزع آلات لسع انغرزت في قفازيه الجلديّين الرقيقيين . هرولت خالتي بأتجاهه ووضعت منفضة سكائر على الطاولة أمامه . قالت :

- اجمَع فيها ذنبات النحل ، ولا تُسقط أيّاً منها على الأرض .

انهمك أكثر وقال :

- يجب أن أنتزعها كلها ، لأن بقاء قسم منها سيهيّج النحل بسبب رائحتها ، ثم يجب أن أغسل القفاز جيداً ، وأن أدهنه بالزيوت النباتية لحفظه ليناً ومرناً .

- ليس النحل فقط هو الذي يهتاج لهذا المنظر .

نظر إليها رجل الفضاء من خلال قناعه . شكله أسطواني مصنوع من قطع خشبية تتصل بعضها ببعض بواسطة أشرطة جلديّة ليتمكن من طيّ القناع عند عدم استعماله . قال :

- النحل يهتاج ، لأنه حساس!

لم أميز نوع نظرته تلك ، فلون الشبك الخشبي ، الذي يغطي وجهه ، قاتم . لقد اختاره هكذا حسب التعليمات التي تؤكد أنه يجب أن يكون غير قابل للصدأ أيضاً .

أرخى ياقة البدلة ، وحل الخيوط الموجودة في نهاية القناع . قالت له :

- وما هي أخبار حبايبك؟

- كل شيء على ما يرام .

رفعت حاجبها عالياً بينما كان يرفع عن رأسه القناع . وضعت رزمة نقد أمامه . قالت :

- أقترح أن توقِف المنحَل قبل أن نخسر المزيد من المصاريف .

- هل جننت يا امرأة؟

- لا ، لكن يبدو أنك ستُسلق بصدفيتك تحت الشمس ، ولن نصل

إلى نتيجة .

- الوقت وحده سيثبت ذلك .

- ليس لدينا وقت . حالتنا تتدهور باستمرار .

- لسنا الوحيدين في هذه الأزمة .

بدأ بطَيِّ القناع ووضعه على الأريكة . سألها :

- من أين لكِ المال؟

- من عملي طَبعاً .

ثم أضافت :

- الذي يولد نقداً سريعاً .

- من جراء خياطة أكفان؟

- لو كنتَ سمعت كلامي ، لفتحنا محلاً للأقمشة ، ولحاربنا مستوى الفقر هذا . لو كنتَ سمعت نصيحتي ودخلت تجارة السيارات المستعمَلة أو السكائر ، قبل سنوات عديدة ، ما كان حل بنا الذي حل .

رفع قفازاً ذابلاً في وجهها :

- لو ، لو . . . لو زرعناها ما اخضرّت .

- مهنتي ستنتصر في النهاية ، سترى .

تناول زوجها الرزمة عن الطاولة ، ورماها في حضنها قائلاً باستهزاء :

- يا حاملة الرحيق .

مر من جانبها وهي تتبعه بنظراتها :

- ستفشل .

عند باب المطبخ استدار ، وقال لي :

- كما شرحت لك يا دلال هذا الصباح ، إن النحلة تمتص الرحيق بواسطة لسانها ، فكلما كان اللسان طويلاً ، استطاع النحل أن يتعمق في الزهور إلى أماكن الرحيق .

أشار لي بيده أن أقترب منه ، وقال :

- خالتكِ تعتقد أنها ستجمع رحيقاً أكثر إن طال لسانها ، وعلا صوتها .

قلت لنفسي : «الله يستر . اليوم هي الملكة ، وهو الذكر» ثم تداركت : «مما يترك لي دور الشغالة .»

بعد ساعتين هدأت الشقة . ذهبت خالتي لتبحث عن طبيب أسنان مخضرم ، بينما عاد زوجها إلى الجزء الخلفي من النادي . وقفتُ عدة دقائق عند شباك غرفة نومي بعد أن تركت على السرير مقالاً مُترجَماً عن العِبْرية «كيف تربي ضبعاً ضاحكاً في بيتك» . رحت أرقب تحركات أبو غايب في الأرض المستطيلة المؤطرة بأسيجة من أسلاك ، وأنا أفكر : يوماً ما سيكتب مقالاً «كيف تربي النحل في ساحة تنس» .

المنحَل يتخذ شكله النهائي . تم تجهيز المخزن ، وحجرة الفرز لتخزين الإطارات التي يبني عليها النحل العيون السداسية ، والأدوات ، والطرود التي تستخدم كصناديق سفر للنحل ، والأقراص الشمعية ، وصناديق التبخير ، والحاضنات .

بحثت عن واجباتي في كتيب أخضر تعتليه صورة نحلة صغيرة . زوج خالتي يعلم جيداً أنني أفضّل ملاحقة الحشرات على نقل باترونات الملابس بواسطة الورق الشفّاف من مجلات نسائية . تقول لي خالتي بمتعة : «تضعين الورق الشفاف على هذه الصفحة ، وتتابعين الخطوط المطبوعة حسب الحرف والرقم ، ثم ترسمين الخطوط المطلوبة بقلم الرصاص ، وبذا نحصل على تفصيل جميل لفستان أو تنورة .» أما أنا فلا أميز تفصيل الكتف عن تفصيل الورك .

قرأتُ «تعتبر الشغالات الطبقة العاملة داخل الطائفة ، أما الملكة فهي أُم النحل ، وأما الذكور فانها تلقح الملكات العذارى» .

أغمضت عيني وتخيلت أنني شغالة . عندما تتطور الغدد عندي سأبدأ بإفراز الغذاء الملكي وسأقوم بتغذية اليرقات الحديثة وتغذية الملكة به . وضعت يدي على رقبتي أتحسسها ؛ لكن تذكرت أن الغدد من المفترض أن تكون أسفل البطن . تمددتُ على السرير استمر بالقراءة «الرحيق عبارة عن محلول سكري يحتوي سكريات ثنائية ؛ كلوكوز و . . .

رن الهاتف بجانبي . رفعت السماعة وأنا أقول : «فركتوز» . . .

صوت إلهام من الطرف الثاني سحبني فجأة إلى عالمها . ارتجافة في نبرتها :

- تأكدت مخاوفي . انه ورم خبيث .
- كيف تشعرين؟
- ضائعة .
- أين أنت؟
- في المستشفى .
- هل سيطردونك؟
- ليس بعد . سأحاول أن أكتم السر ، وأرتب العملية مع مستشفى ثان .
- متى؟
- في أقرب فرصة لكي أباشر العلاج بعد ذلك .
- أنت خائفة؟
- ليس من العملية ذاتها . لكن كيف سأحصل على المبلغ ، وكيف سأعتني بنفسي بعدها؟
- أنا سأساعدك .
- شكراً دلال . ساعدي نفسك وعائلتك أولاً .
- أقصد سأعتني بك .

- تباً . لا أحتاج إلى عطف .
سكتت لحظات كأنها تسحب نفساً من دخانها . قالت :
- آسفة ، لم اقصد أن أثور في وجهك . ما أحتاج اليه هو المال لا أن أزعج غيري بحالتي .
- هل أفاتح زوج خالتي ، ربما لديه اقتراح؟
- لا ، لا أرغب في ذلك .
- نستطيع ان نبدأ جمعية للتبرع باسمك .
- بالتأكيد لا .
- ماذا ستفعلين؟
- الله كريم .
أضافت :
- على كل حال ، ماذا تفعلين؟
- أحاول أن أفهم عالم النحل .
- اذن قررت أن تساعديه؟
- لا ، لكن إذا اضطررت لاختيار مهنة ، فلن أكون خياطة . أفضّل أن أسقى الخضراوات ، وأخلصها من مخاطر الباذنجان البري الطفيلي ، وأن أكافح الصراصر الألمانية .
- تتعلمين سريعاً . ماذا عن الدراسة؟
- لا أعلم .
- سيأتي اليوم الذي ستعلمين فيه ما تريدين .
ضعف الاتصال بيننا فتضاءلت جملتها . تناولتُ قطعة صغيرة من ورق طباعة الباترون لأمسح بها الحائط قرب السرير . جعّدتُ الورقة الشفافة بقبضتي ، وحاولت أن أمحو رشة صغيرة من دم بني ؛ كانت قبل ليلتين بعوضة سمينة مزعجة . سألَت :

- هل انت معي على الخط؟
- نعم .
- سنتكلم عندما أعود .

أستأنفت القراءة في الكتيب الأخضر : «النحل من الحشرات النظيفة جداً ، و لا يموت داخل الخلية ، فعندما يشعر بدنّو الموت ، يخرج خارج الخلية ليحاول عدم ترك أقذار داخلها ، فنشاهد النحل يرافق الذي سوف يموت برقصة خاصة إلى الخارج تكريماً لهذا النحل الذي يشرف على الموت» .

مع هبوط المساء ، دخلت خالتي الشقة . واضح أنها أنفقت نقدها على مخدّر . قلعوا لها ضرسها . رحت أرقب فمها الـمُخَدّر المسحوب إلى جهة . أخيراً ، لو نزلنا إلى الشارع معاً فسيسألها الناس إن كنتُ ابنتها ، ومن يدري ، فقد تشعر بأمومتها!

جاءتني خالتي بقصة ساخنة من العيادة . سرقة بالرِهان . حاولت أن تعدل فمها وهي تحكي لي كيف تحدى أحدهم جماعة ما بأنه يستطيع أن يسرق دارهم وهم جالسين فيها . تحدوه وانتظروه في المكان والوقت المحددين . ذهب الرجل إلى الشرطة يخبرهم أن أهل البيت يمارسون أموراً جنسية غير قانونية . اعتقلت الشرطة المجتمعين على الفور ، وأخذت الجميع للتحقيق . فدخل الرجل المراهِن دارهم ، وسرقهم مثلما وعد .

ثمة تماثيل على الرف أمامي راحت تتحرك مع حكاية خالتي . أشكال بدائية لنساء ورجال تبدو وكأنها تحتضن بعضها ؛ تماثيل متحابة من رمل ، وأخرى من صخر ينمّ بعضها على بعض .

الفصل التاسع

أيامنا تدور حول نفسها مثل ختم أسطواني سومري ؛ غزال ، بعده غزال ، بعده غزال ، بعده غزال . . .

أهل المحافظات أصبحوا يطلقون على بغداد «باريس المنوّرة» . علمنا أن السليمانيّة وأربيل في الشمال تعاني من فترات انقطاع يومي للكهرباء بما يؤثر على المرافق الصحية وماء الشرب . أما دهوك فليس لديها سوى مولّد واحد للكهرباء مخصص لأحد المستشفيات . وسمعنا عن أهالي مدينة البصرة ، في الجنوب ، أن عشرة آلاف مواطن شُردوا بسبب القصف ، وأصبحوا يسكنون الآن في مبانٍ غير مكتملة البناء بلا ماء ولا خدمات . أطفالهم يلعبون في برك مياه راكدة تغطي الشوارع .

إلهام ودخانها لا ينفصلان . قالت :

- يبدو لطيفاً .
- نعم ، على ما يبدو .
- إذن ، أنت ايضاً تعرفت عليه؟
- نعم . أعتقد بأنه سيجذب عدداً لا بأس به من زبونات ، فهو

يحب الأحاديث الاجتماعية .

- ما علاقة الأحاديث بسعر اللحم؟

- اللحم؟ عم تتكلمين؟

- عن اللحّام الذي فتح محلاً صغيراً ليس بعيداً عن عمارتنا .

- اعجبتِ بلحّام؟!

- لا ، أعجبت بمحله . أطلق عليه اسم «ملحمة كِلكامِش» .

أخذت ضحكاتنا تشق ضباب سكائرها ، قلت لها :

- وأنا أتكلم عن سعد .

- من؟

- الحلاق ، أقصد الكوافيير ، في الطابق الأرضي .

- لطيف أيضاً؟

- لنرَ .

المصعد يعمل منذ عدة ساعات فقط . استخدمناه على مسؤوليتنا . قالت :

- كان مهندساً مدنياً . لم يجد عملاً فقرر أن يبيع اللحم .

- أم مازن تقول كل شيء للبيع .

- قال لي إن معظم المشاريع الهندسية المدنية قد تجمدت لعدم وجود وسائل الصيانة ، كما أن المناطق الخضراء بدأت تختفي بسبب ظاهرة قطع الناس الأشجار لاستخدامها وقوداً .

- كيف سيديم سعد محله!

كان واقفاً عند الباب يودع سيدة قزمة ، شعرها مثل عش منشّى ، تلوح له بيد صغيرة فبرقت من أصابعها خمس دوائر من طلاء الأظافر الأسود ، وهي تغني له مغادرة :

- باي باي من بونزاي .

قال لنا :

- تفضلن .

وأضاف ونحن ندخل :

- هذا هو الاسم ، الذي تطلقه على نفسها هذه الزبونة المجنونة ، منذ زمن الخير . تعتقد أن شعرها شجرة بونزاي يابانية تحتاج إلى قص وتقليم وتسليك مرة كل شهر .

- أقدم لكَ إلهام من الطابق الثاني .

- تشرفنا .

يشير إلينا أن نرتاح :

- لا نراكِ كثيراً .

- نعم ، مهنتي تتطلب ساعات عمل طويلة .

- كلنا نضاعف ساعات عملنا هذه الأيام .

محله مثله ؛ متواضع بأناقة .

كرسيان دوّاران . أمام الكرسي الأول مرآة كبيرة والكرسي الثاني أمامه مرآة أصغر . بجانب أريكة انتظار لشخصين ، يوجد مقعد عريض يحمل على أكتافه حوضاً من سيراميك أبيض قُضمت منه فتحة ملساء لاستقبال رقبة الزبونة . لصغر مساحة المحل اكتشفنا فيما بعد أن مَن ستنتظر على الأريكة ، ستتناثر على خدها الأيسر قطرات ماء ممن يُغسل لها شعرها ؛ فإما أن تتحمل ، وتتظاهر بالانتعاش ، أو تسحب أحد المقاعد الخشبية وتجلس عليها فتنتظر في المدخل . سبب الرذاذ هو شرخ في بلاستيك مقبض الحنفية الذي يتدلى في الحوض .

أشرتُ إلى مجففات الشعر المعلقة على الجدار ما بين المرايا :

- ماذا ستفعل بشأن الكهرباء؟

أخذ يطوي مجموعة من مناشف نظيفة نام بعضها فوق بعض بانتظام :

- اتفقت مع نادي العلوية أن يمدوا لي أمبيرات من مولّدهم لقاء مبلغ .

- والماء؟

- ركبت خزاناً إضافياً في الكراج التابع لشقتي بما أنني لا أملك سيارة .

باب المحل من الألمنيوم ، ولم تُرفع عنه بعد لصقة الصانع «معمل الصمود» . إطار الشباك من الألمنيوم نفسه ، لكن اللصقة محكوكة بإظفر أحدهم . أسفل الشباك ، حوض ينبع فيه ريش أخضر سينمو ليصير نبات التوت الذي تقتات عليه دودة القز . عند الباب الداخلي الخلفي المؤدي إلى النصف الثاني من محله ، أو شقته ، يميل دولاب من الرفوف المعدنية التي تصطف عليها علب أصباغ الشعر ، والمواد الكيمياوية ، وأسطوانات الرذاذ الصناعي . ثمة سلال من القش تتزاحم فيها مجموعات فرش كلاسيكية وأخرى حديثة من كل حجم ونوع . لكثرتها تبدو كأن بعضها يخز بعضاً عن عمد ، وكأن بعضها الآخر على وشك السقوط من على الرف .

ناول سعد إلهام منفضة ، وناولني مجلة ، وهي ناولته سيكارة ، وأنا ناولتها وسادة لتسند ظهرها ؛ انسجمنا .

قالت إلهام :

- حضّر نفسكَ .

- خير؟

كانت تقلّب علبة تحتوي على اثنتي عشرة لفافة شعر أسطوانية بطول إصبع ، طبع عليها باللون الذهبي «رولات» ، «صنع في ألمانيا» :

- أم مازن لديها زبونة عندها رعب من هذه .

- هل يوجد في الدنيا من يخاف من لفافات؟

- أختها ماتت بجلطة وكانت ترتديها في شعرها . المسكينة مصدومة وتحتاج علاجاً الآن لاعتقادها بأن أختها ماتت مصعوقة بتيار بسبب استخدام رولات كهربائية .

كلمة جلطة تشطر تفكيري شطرين . حتى بدء الحصار ، كنت أشعر بأن حياتي تنقسم إلى ما قبل الجلطة ، وما بعدها . أما الآن ، فالجميع يتكلم عن زمن الخير ، وزمن ما بعده . أوقات ما قبل الحرب ، وأوقات ما بعدها . الحياة ما قبل الأزمة ، والحياة ما بعدها . وجدت نفسي وقد أصبحت ، رغماً عني ، جزءاً من كل .

اندهش سعد :

- لا تقولي لي ان هذا هو نوع الزبونات الذي يجب أن أتوقعه!

دخلتُ على الخط :

- على الأقل أنت تطلق عليهن زبونات ، والأمر واضح ، أما أم مازن فهي تعالجهن بكل الطرق العجيبة الغريبة ، لكنها ترفض أن تطلق عليهن «مريضات» . تصر أن تناديهن ، صديقاتي ، عزيزاتي ، جاراتي . حتى بَدْرية ، تطلق عليها «مساعدتي» بدل «خادمتي» .

- إذن ، هي متحضرة ، وتراعي مشاعرهن .

- وهل تسمي هذه القصة تحضراً! جاءتها سيدة فقدت القدرة على المشي ، وبعد أن يئس الأطباء من تشخيص حالتها توجهت إلى أم مازن لتكشف لها عن أسباب عجزها . أقنعتها صديقتنا المعالِجة أن الجن الأزرق دخل عمودها الفقري ، ويرفض أن يخرج . كانت أم مازن تخاطبه من خلال قدم المريضة ؛ والجن الساكن جسدها يجيبها بان يكتب لها كلمات على باطن القدم . مرة كتب لها «عقربة» .

انكمش سعد :

- وماذا حدث للمريضة؟

- ما تزال تحت العلاج . نطلق عليها «ذات العمود الأزرق» . عندما نرى سائقها يحملها إلى الطابق العلوي نعلم أن أم مازن لن تستقبل أحداً ذلك اليوم . يقال إن بَدْرية تبخّر المكان بعد جلسة مطولة تصدر منها صيحات مخيفة .

- أنت تشوقينني إلى الطلب منها أن تقرأ لي في الفنجان .

- لا يمكن إلا بالوكالة ، فهي لا تستقبل الرجال .

ادارت الهام رأسها نحوي :

- بوسعكِ أن تأخذي فنجان سعد معك لتفتح له ، أليس كذلك؟

- سأطلبَ من خالتي أن تفعل ذلك .

راحت إلهام تبتسم ، وتقول لسعد :

- دلال عندها مشكلة تصديق فعالية أم مازن .

- طبعاً ، فقد قالت لي مرة إن سيدة ، ذات لهب أحمر في سرّتها ، سرقت مني ضحكتي في طفولتي . قالت لي إنها تزور الأطفال أثناء النوم وتستعير منهم أجزاء من أجسادهم لتتبنى لنفسها طفلاً من صنعها . تصوري أن أم مازن عرضت عليّ سحراً معاكساً لأسترجع به فمي . لكنها قالت إن استعادته قد يستغرق سنوات .

قام سعد من مقعده ، ووضع ذراعه حول كتفي :

- دلّول . لا تفكري كثيراً في هذا الموضوع . في كلٍ منا نقص ما .

أضاف :

- تعالي .

جرني من يدي وأجلسني على الكرسي الدوّار أمام المرآة الكبيرة . أخرج كيساً فيه زينة بدت لي مكياجاً مسرحياً . قال :

- أغمضي عينيك ولا تتحركي .

مد يده في الكيس وشرع يدغدغ وجهي بالمساحيق . فرشاة ناعمة

مسدت لي اجفاني ، وأخرى راح يكتل بها أهدابي . حاولت بصعوبة أن أغمض عيني وإصبعه تلعب بفمي . شعور زيتي يعتريني . قال :

- افتحي .

كان قد رسم تكملة لفمي بلون لحمي مدخّن يناسب لون شفتي الأصليّ :

- ماذا ترين؟

- حلمي يتحقق .

- غير ذلك .

- إنك تسخر مني .

- كوني جدّية . ماذا يقول لك الوجه أمامك .

- إنني مرسومة ، وهذه خدعة .

تناول منديلاً ومسح نصف الفم الوهمي :

- الإنسانة الجالسة أمامي هي نفسها ، قبل - وبعد .

شد على كتفي :

- يا دلّول ، لا تتبعي وهماً .

فجأة مد بائع الصحف الصغير رأسه من الباب دون سابق إنذار . قال :

- سوسو ، عندك قديم؟

- لا ، تعال نهاية الشهر .

- تريد جريدة؟

- لا .

راح يحدق فيّ حمادة :

- متأكد من أنك لا تريد جريدة؟

- متأكد ، وأغلق الباب خلفك .

بدأ سعد بإعداد قهوة لنا . ضاعف كمية الماء ، لكي نحصل على أكبر عدد ممكن من الفناجين - الخفيفة . كانت غرته السوداء تلاطف حاجبه الأيسر :

- حمادة مولع بالأحذية القديمة .

تذكرتُ :

- الأستاذ من الطابق الأول يبيع أحذيته عادة .

رمى ابتسامة خبيثة باتجاهي :

- إذن تعرفين القصة .

تدخلت إلهام :

- أية قصة؟

- حمادة ابن الأستاذ ، من السيدة الأرملة .

قلت له :

- لم نكن نعرف .

- هذه أخبار الطرقات الخلفية . ألم تلاحظي كم يشبهه؟

أخذتُ أقارن بين شكليهما للحظة :

- قبل الأب ، أم بعده؟

- لا فرق .

لم يكن طعم القهوة خفيفاً كما توقعت :

- عاشت يدك .

قال بلهجة لبنانية :

- صحتين .

سألته إلهام :

- لماذا يناديك سوسو؟

- اسم الدلع .

- هل ترغب في أن نناديك كذلك؟
- بعضهم ينادونني سعّودي . كما تحبان . كل الأسماء خير وبركة .
قهوته رطبت صوته ، قال لها :
- أتعلمين ، أنا الذي أسميت هذا الطفل حمادة .
إلهام بدأت بفنجانها الثاني بينما كان هو يسرد حكايته :
- كان والده - طبعاً لا أقصد المرحوم وإنما الأستاذ - يريد أن يسميه حامد ، لكن بما أنني ساعدت زوجته - أقصد عشيقته في هذه الحالة - أثناء الولادة - فقد طلب مني أن أسمي الولد .
- حضرتَ ولادتها وسمح لك؟!
- لم يكن لديه خيار . محلي القديم كان بجوار بيتها . الاتصالات مقطوعة ، وجاءني يركض لكي يخبرني بأن السيدة ستلد في البيت . سحبت قفازين مطاطين من النوع الذي أستخدمه لصبغ الشعر ، وركضت خلفه . عندما وصلنا ، توكلنا على الله .
- كيف سارت الأمور؟
- استقبلتُ رأس الطفل أولاً كما يحدث في الأفلام ، ثم قطعت حبل السرّة بموس الحلاقة المعقم ، لكن لم أعرف ماذا افعل بعدها . في الافلام لا نرى أي شيء يخص انتظار المشيمة .
بعد قليل أضاف :
- انا أحب الأطفال . أتمنى أن أنجب طفلاً يوماً ما .
رحت أرقب انفعال إلهام :
- لماذا؟ لتضيف فرداً آخر إلى المأساة؟
- لست مسؤولاً عن المأساة . يجب أن نفكر في أن نحيا بشكل طبيعي ، وأن تكون لنا أحلام مشروعة .
أطفأت سيكارة لتشعل أخرى :

- هذا إن كان لديك القابلية لأن تعيش في حلم .

- يبدو أنني ضايقتكِ بشيء .

بدأت إلهام تعض على أسنانها :

- انظر ماذا يحدث خارج شباك محلك يا سعد - أو سعوّدي . هؤلاء الصغار لا يذهبون إلى المدرسة . أتعلم أن واحداً بالمائة فقط من واردات النفط مخصصة للتعليم حالياً تحت قرار الأمم المتحدة رقم ٩٨٦؟

- ليس لدي كلمة في صنع تلك القرارات يا إلهام .

لم تعد إلهام تتمتع بالقهوة :

- أما من يواضب على الدوام المدرسي من الاطفال ، والذين ينبغي أن يكونوا أوفر حظاً من أقرانهم ، فإن ما لا يقل عن سبعة طلاب منهم يفقد وعيه كل يوم نتيجة لنقص الغذاء والدواء . لكن إذا اصابتهم مشاكل معوية ، فيجب أن يعودوا إلى البيت لعدم توفر مراحيض تعمل .

هز كتفيه :

- لن أتنازل عن أحلامي لأن المراحيض لا تعمل .

ازداد انفعالها :

- والأقل حظاً من ذلك ينتهون عندي في القسم .

لا أعلم لماذا خفض عينيه ، ألأنه شعر بانزعاجها أم لأنه كان يضع الفنجان في الصينية :

- قلت ذلك لأنني أشعر بالوحدة ، فقد كنت طفلاً وحيداً .

أعدتُ له المجلة عسى أن ينقطع الاتصال بينهما . لكن إلهام استمرت :

- الوحدة هي أن تعيش آخر ايامك في مستشفى بلا تدفئة أو تبريد . الوحدة هي أن تبتلع ريقك وأنت تتفرج على الممرضة تحشر فيك كيس بول مستعمَلاً ، او أن تتفرج على جهاز غسيل كِلى لا يعمل .

لم يعد يناقشها . أخذت نبرتها تحتد :

- الوحـــدة هي أن تتـــحـــمـل آلامك وتنتظر دورك على جـــدول العمليات . كنا سابقاً نجري ثلاثين عملية في الأسبوع ، أما الآن فست عمليات هو الحد الأقصى .

ضربت الطاولة بقبضتها :

- هذه هي الوحدة .

قامت بتوتر ، لكنها انهارت وأجهشت ببكاء مفاجئ على الأريكة . ركض سعد مرتبكاً ليأتي لها بقدح ماء .

عندما عاد كانت قد غادرت تاركة اعتذارها في عهدتي .

وقـفـتُ خـارجِ المحـل للحظـات أفـكر أيـن أذهـب ، فـإذا بأحـدهم يقـول لـي : «عـذراً يا آنسـة .» ثمـة عـمـال نقليات يحملون صناديق من باب نادي العلوية ليودعوها في سيارة نقل مكشوفة . النادي يبيع الأجهزة التي لم يعد يستفيد منها ؛ الفاكس ، التلكس ، بدالة التلفون ، وأجهزة عرض الأفلام . تأملتهم يتحركون امامي دون أصوات . أخرجوا أيام طفولتي في صناديق خشبية كبيرة تحتوي كراسي معدنية ، وأجهزة تكبير الصوت . سيتخلصون من أشرطة عرض الأفلام ؛ أخذوا معهم HANS CHRISTIAN ANDERSON ، NORMAN WISDOM ، و«أميرة حبي أنا» .

وجدتُها عند العم سامي . فتحَت لي الباب :

- اعتذرتِ؟

- وشربت قدح الماء نيابة عنكِ .

كان العم سامي يتوسطنا . قالت :

- سأعتذر بدوري غداً .

- لا داعي . يبدو أنه حساس ومتفهم .

- إذن سأعمل شعري عنده .

ثم أضافت :

- قبل أن أفقده .

تدخّل العم سامي :

- لن تفقديه لسبب كهذا . من حقنا أن نعبر عن أنفسنا أمام الآخرين .

- أقصد شعري يا عم .

أحب طريقته في استيعابنا . اليوم يرتدي بنطلون «جينز» قديماً ، وقميصاً أبيض عليه بقايا بقع دم يابسة إثر زياراته للمستشفى . يبدو أن نصيبه كان بيد مضمد ضعيف في غرز الإبر . ابتسم لي :

- أعلم بماذا تفكرين .

- ماذا؟

- بابا نؤيل في عطلة .

استدرت نحو إلهام :

- يا ناقلة الأحاديث!

قال :

- لم لا؟ أحب أن أُدعى بابا نؤيل . على الأقل كان يجلب السعادة للأطفال .

احتضنته إلهام :

- الله ما يحرمنا منك .

قلت :

- في الحقيقة كنت أفكر بأم مازن . لو زرتَها في هذا اللباس فستطردك من شقتها .

تناول صليباً من سيراميك كان على الطاولة بجانب صورة زوجته ورفعه أمام وجهه قائلاً :

- هي لن تستقبلني بكل الأحوال .

- عدا ذلك ، ستطردك لأنك ترتدي «جينز» .

- لماذا ، لأنه صناعة أمريكية؟

- لا . لأنها تعتقد انه جلد الكلب مدبوغ وتترفع عنه . تعتبره قذارة قد تفسد عملها .

قالت إلهام وهي تفتح دفتر يوميات أم رائد :

- أراكِ متحاملة على أم مازن .

- لا أفهم كيف تقرأ «جنجلوتيه» في رأس السيدات!

- ارحميها ، فهي خبيرة بالأعشاب أيضاً . على الأقل خلطاتها فعّالة .

- لكن بَدْرية الأُمية هي المسؤولة عن الخلط . لقد رأيتها تضع الأعشاب في خمسين وعاءا ، على الأقل ، تختلف في الشكل والحجم ونوع الغطاء لتميزها عن بعضها . بعض الأوعية مُعَلّمة بلون أو رمز لتستدل عليها .

- فليكن ، ما دامت أم مازن تبيع في النهاية خلطات مذهلة .

- لا أوافقكِ . هي تستخدم القرآن لتضليل الناس وتستغل العسل والأعشاب لإقناعهم بسحرها . كما انها تحث على الحجاب مؤكدة ان من واجب المرأة الديني أن تمكث في البيت . تقول ان المرأة يجب أن تسهر على خدمة زوجها وتتوجه للعبادة .

- تقصدين أن الحجاب سمة تخلّف؟

- لا ، لكن أذا جلسنا في البيت فكيف سنعيش؟

اخرجتُ فنجان سعد من كيس نايلون في حقيبتي . ناولته لها :

- بما أنك مقتنعة بعلومها ، يا ممرضة ، خذي أنتِ مسؤولية فتح فنجانه .

- ما بك يا دلال ، أنسيت كيف عالجت السيدة التي اعتقدت أنها تعاني من برود جنسي؟

- لا ، لم أنس . قالت لها : «مشكلتك يا عيني ، أنك تعلمت في طفولتك أن تحتضني وسادتك أثناء النوم وحتى الآن . يجب أن تقلعي عن هذه العادة ، لأن الوسادة عوضتكِ عن احتضان الرجل ، لذا تعتقدين أنك باردة» .

العم سامي يدلي برأيه بهدوء :

- ممتاز . هذا يعني أن السيدة آمنت بالحل .

شعر بأنني أنظر إليه فاستأنف :

- يا دلال إن العلاج يسري علينا عندما نؤمن به . وما دمنا نعتقد بأننا عولجنا ، فهذا يعني أننا عولجنا ، بغض النظر عن قناعة الآخرين .

- لكنها خدع يا عم!

- كل إنسان في حاجة إلى أن يؤمن بشيء ، تصديق خدعة برغبتنا هو نوع آخر من الايمان .

مسح لحيته يراقبني :

- لنغير الموضوع . كيف حال خالتك وزوجها؟

- عندما يبيع العسل ستعود اليه الكلمة العليا في البيت . أما الآن فالكفة الثقيلة بجانبها ، لأنها هي التي تشرف على المصاريف حالياً .

قالت إلهام :

- يعني : المشاكل ما تزال قائمة .

- هما في خلاف دائم . عندها اعتقاد غريب «اصرف ما في الجيب يأتِك ما في الغيب» ، فراحت تكدس أقمشة وخيوطاً في كل أنحاء

المنزل . يصر أبو غايب انها مستهلِكة غير واعية منذ زمن الخير . يقول لها : «مد رجليك على قدر غطاك» يذكرها أن مبيدات الحشرات منقطعة في السوق . خالتي تعيش الآن أزمة العِثْ . أغلب أقمشتها تُقرض ، وهي ستفقد عقلها .

- الزواج الناجح صار مُوْدة قديمة .

قلت :

- المجلات تقول أن نسبة الطلاق هي واحد لكل ثلاث زيجات .

العم سامي يقول لها :

- الزواج بحد ذاته صار مُوْدة قديمة .

تبتسم :

- على كل حال ، أراهنكِ أن أم مازن عندها خلطة لمكافحة العِثْ .

تناولت سكائرها :

- ما لا أفهمه هو لماذا تفك حُجب المقيمين خارج الوطن بسعر أعلى من الحجاب المحلي؟

قال لها :

- لأن الجِنّي يجب أن يأخذ موافقة سفر .

ثم أضاف يقهقه :

- وسيتم تفتيشه في الرويشد .

بعد قليل أضافت :

- هل سمعتِ أنها بدأت تطلب فتح الفنجان بالدولار؟

الفصل العاشر

تُرى كيف أعطى الأستاذ من الطابق الأول نبذة مختصرة عن أهل العمارة لسعد؟!

هل قال له إنها عمارة الاكتفاء الذاتي؟ إلهام تمدنا بالأدوية المفقودة في الصيدليات العامة . العم سامي يأتينا بالمجلات العربية والأجنبية بشكل خاص ، عن طريق معارفه في دمشق . أم غايب تحوّل إلى أم مازن زبونات الخياطة ، وأم مازن ترسل لها زبونات الفنجان . أم مازن ستمد سعد بمريضاتها ، وهو سيعمل لها دعاية . أبو غايب سيبيع العسل للجميع . أما أنا فسأدرس اللغة الفرنسية .

جاءتني إلهام تعيد فنجان سعد وقد تيبست فيه القهوة :

- أعطيه الفنجان رجاء .
- لماذا هو غير مغسول؟
- رفضت أم مازن أن تغسله في بيتها بعد أن قرأته .
- ماذا قالت؟
- وصفت صاحب الفنجان بأنّه «هَدّته هَدّة مَرَه . . . وخنجره ذيل بقرة» .

- وكيف لي أن أفهم؟
- لا أعلم . قالت إنها ترى رجلاً في الفنجان وليس امرأة .
- هل قلت لها إنه فنجان سعد؟
- عرفَت ذلك من رائحة بقايا القهوة .
- وماذا أقول له؟
تأملَت للحظة :
- قولي له إن إلهام أسقطت الفنجان سهواً وانكسر .

فعلاً ، كانت أم مازن أول مشترٍ لعسل أبو غايب . طلبت مني أن أرافقها إلى المنحَل لترى الموقع بنفسها . أعطتني مقدمة وهي تتدحرج بجانبي مثل كرة لينة . دخلنا باب سياج الساحة ، وهي تقول : «في كل حياتي تمكن شخص واحد فقط من أن يغشني بالعسل ، لأنه جلب خلية قديمة يابسة ، قام بترطيبها وملأها بعسل غير طبيعي ، وباعها لي على أنها أصلية .»

أم مازن لا تصافح الرجال ، لأن ذلك ينقض الوضوء ، وبعد قليل ستصلي الظهر . عندما قدم لها زوج خالتي العينة ، مدت إصبعها الأسمر بحذر في الوعاء ، ثم لعقته ببطء . تلمظت دون أن تطبق شفتيها ، وحركت لقمة العسل يميناً ويساراً في فمها قبل أن تبتلعها كأنها تفحص نبيذاً فرنسياً معتقاً . تمعنت في أبو غايب محاولة أن تقرأ أفكاره ، وتتحسس مصداقيته ، وأن تكشف الغش من عينيه . فجأة ، وكأنها في حضرة معجزة ، قالت : «درجة أولى .»

رغم نفوره منها ، مثّل أبو غايب دور البائع المجامِل ، قائلاً : «شهادتك يا أم مازن .» لا تحتاج هي إلى أن تبتسم بالمقابل ، ففمها مصبوب في

حالة ابتسام منذ الولادة . أسنانها ازدادت صفرة بعد لعقة العسل . بعد قليل انتبهَت إلى نعال مقلوب لأحد العمال بجانب إحدى العاسلات . وكزتني بمرفقها وطلبت مني : «عيني ، اقلبي النعال إلى وضعه الصحيح . النعال المقلوب فيه إهانة للسماء . هذا يجلب الشؤم .» قلبتُ لها النعال وغادرنا ، وهي تحمل أول كيلو من العسل غير المغشوش وتغني : «يا يابه شحلو الرمان . . . لـمَن يحوشوه على برد الهوا .»

ابتعدنا عن النادي ؛ ساحة أبو غايب تحولت تدريجياً إلى منحَل منتج ، والساحة الثانية ما زالت كما هي ، مهجورة .

في مدخل العمارة بدأتُ أحمل لها العسل ، فالمصعد لا يعمل ، وهي تحمل نفسها بمشقّة على السلالم . وصلنا إلى شقتها ، فوجدنا الباب مفتوحاً وصيحات نساء تشق طريقها من الداخل . هرعت أم مازن لتتبين الأمر . صُدمَت للمنظر ، وانطبق عليها المثل الشعبي «عيونها صارت بالطول من الفَزّة!» امرأتان في صراع ديكة ، أو دجاجات بالأحرى ، وبَدْرية تحاول أن تفض اشتباكهما . منظرها أقرب إلى حَكم مصارعة يتقافز وسط منازلة للاوزان الثقيلة يرتدي دشداشة دون فوطة . شعرها معشّق بحنة وشيب ويلتف حول نفسه مثل أفعى ملساء متهدلة . امرأة تحت ترفع وامرأة فوقها تكبس .

صرخت المرأة في الأعلى :

- أخذتيه مني .

أجابتها المرأة في الأسفل :

- تقصدين استرجعته منك .

- لكنه يحبني وإلا لما تركك .

- كان يحبني قبل أن تسحري له سحر الطاعة العمياء .

تجاذبتا بعضهما بعنف :

- والآن ماذا تفعلين ، تسحرين له سحر العودة؟

انقلبت الصورة . الدجاجة العليا أصبحت تحت رحمة الدجاجة السفلى ، التي راحت تبقبق :

- سأنتقم منك يا وقحة .

- لن يطلقني رغم أنفكِ يا غبية .

أدركت أم مازن أن الدجاجة «ألف» هي زوجة الرجل نفسه ، الذي تحاول الدجاجة «باء» إغراءه ؛ بمساعدتها للاثنتين بخلطاتها المعتمدة قبل فترة . أسرعت بوضع حد للنزاع ، بأن سكبت عليهما سطلاً من الماء البارد وجدته عند باب المطبخ . صرخت بَدْرية بهلع : «أم مازن ماذا فعلتِ ، هذا سطل ديدان وصل أثناء غيابك!»

بعد العاصفة ، أعادت أم مازن للمرأتين ما دفعتاه لها مقدماً لقاء خدماتها ، مع زيادة بالمبلغ أطلقت عليها نسبة الضرر الحاصل ، استعاذت من الشيطان الرجيم الذي جمعهما هكذا بالصدفة!

بعد أسبوع ، علقت أم مازن لافتة في شقتها بخط كبير واضح «ممنوع العراك والكفش» .

قدمتُ أوراقي للجامعات . في قسم التسجيل في مركز تقديم الاستمارات جذبتني نشرة جدارية ملونة : «انجازاتنا : تأميم النفط ، التعليم المجاني ، محو الأمية» . وعندما تركت المكان قرأت لافتة ملصقة على شباك الدفع «كل العراقيين بعثيون وان لم ينتموا» .

أخذت أوزع وقتي ما بين زوج خالتي وسعد ، في انتظار القبول . طلب مني أبو غايب أن أقضي عدة ساعات صباحية معه في المنحَل ، ولم يعترض على دعوة سعد لأن أقضي الفترة المسائية عنده في المحل

لمساعدته . لقاء واجبات بسيطة سيعطيني سعد أجراً اقترحَ أن أجمّعه لأدفع به بعض مصاريف دراستي فيما بعد . في هذه الحالة لن أضطرّ إلى أخذ المزيد من دروس الخياطة لدى خالتي . أمس أضافت علبة جديدة إلى مجموعة أزرارها ، بعد أن جففت عدداً من نوى التمر ، ولونتها بأصباغ أبو غايب ، ثم أودعتها على الرف وألصقت عليها «فواكه» .

ما إن تدخل النساء إلى محل سعد ، حتى يتغير اسم الواحدة منهنّ في الحال . هيفاء تصبح مدام فلافل ، والآنسة عهود تصبح دودو . لكن لم أفهم كيف تحولت السيدة المُسنّة ضياء إلى شوشو! سعد يطلق عليهن ما يشاء دون أدنى اعتراض منهنّ .

سألته بهمس :

- لماذا تأتي سيدة عجوز كهذه لترتّب تسريحتها؟

- بعض النساء بحاجة أن يعبث رجل بشعرهن .

انهمكت فلافل في نقاش حاد مع دودو :

- المنافسة تزداد يا صديقتي . بدأت أفقد السيطرة على زواجي . الحلوات عند كل منعطف . ماذا أفعل؟

السخّان لا يعمل ؛ راح سعد يغسل شعر دودو بماء بارد . تحت قميصها ينتفخ خيال نهدين يستجيبان للبرودة .

كانتا تتعاقبان في الحديث ، كأنهما حفظتا دورين في مسرحية ، وتتبادلانه بكل وفاق :

- في البدء تحلم المرأة بفتى الأحلام .

- ثم تحلم بفارس الأحلام .

- ثم بالرجل المثالي .

- ثم بالرجل المناسب .

- ثم بالرجل .
- وبالذات ، الرجل المتزوج .
- أما هذه الأيام ، فالمرأة تبحث عن رجل .
- أي رجل .
انتهت المسرحية .
بعد قليل قفزتا في حوار غير مهيأ مسبقاً . بشرة فلافل الوردية وشعرها الأحمر يوحي بحالبة أبقار سويدية . قالت دودو :
- لا يمكن أن تتخيلي ما حدث لجارتي .
- ماذا؟
- زوجها ، صار يشرب الخمر باستمرار منذ أن هددوه بالامتناع عن الأتجار بالسكائر . أُخبر ان هذه التجارة حكر على بعض أولاد الساسة المتنفذين . اضطر أن يتخلص مما لديه من خزين ببيعه بسرعة ويبحث عن مصدر رزق آخر . جاءها ثملاً قبل يومين ، وفي لحظة غضب ، فتح باب المجمدة الكبيرة ، وهي فارغة طبعاً بسبب انقطاع الكهرباء ، ودفع زوجته فيها ، ثم جلس على الغطاء يغني . لولا الجيران لأختنقت المسكينة .
أجابتها فلافل :
- إذن ، الحمد لله على كل شيء . يجب ألا أشكو من مشاكلي مع زوجي .
ما أضخمها! مشت أمامي . شعرتُ أن ضربة كعب حذائها العالي تُحدث خلخلة في حشوة أسناني الخلفية .
خلال الأسبوع الأول ، عند سعد ، تعلمتُ كيف أوجّه له هواء السَشوار الساخن على شعر السيدات ، دون أن أحرقه ، كما تعلمت أن أُعد قهوة خفيفة ، وأن ألّم خصلات شعر مقصوص بينما هو يهّيؤ حمام

الزيت للسيدات ذوات الشعر المقصوف .

أما زوج خالتي ، فقد علمني التدخين .

وجدته ينتظرني عند المدخَن . أسطوانة معدنية ذات غطاء على شكل قمع مقلوب كالمدخنة ، ويوجد في أسفلها حامل للوقود . تتصل الأسطوانة من الأسفل بمنفاخ من الجلد ينفث الدخان ، عند تشغيله ، من فتحة المدخَن العلوية .

قال لي :

– أفضل أنواع الوقود المستخدمة لتوليد الدخان هو القماش والورق المقوى أو الكارتون .

ثم أخرج كيساً من أقمشة ميّزتُها فوراً على أنها أقمشة أم غايب التي قرضها العِثّ . حشرها في الموقد وهو يبتسم بخبث :

– مصائب قوم عند قوم فوائد .

لكي يتخلص من تسميته السابقة «زوج الخياطة» ، أصبح يلقّب نفسه «مَلك النحل» ، لكن خالتي تردد خلف ظهره : «أبو فروة» . تقول إن صدره وأكتافه أكثف ما عنده . في الماضي كانت تتجاهله في الصيف وتتودد إليه في الشتاء . أما هذه الأيام ، فلم يعد يرجع إلى الشقة سوى لسويعات قليلة . قشوره هي التي تثبت أنه كان في البيت ، إلا إذا جمعها سريعاً ووضعها خلسة في أصيص النبات قبل خروجه ، ليجتنب تذمرها من كنسها .

أشعل الأقمشة ، ووضعها في الأسطوانة ، وراح يحرك المنفاخ عدة مرات حتى بدأ الدخان يخرج من فوهة المدخنة دون لهب :

– بعض النحالين يستخدمون نشارة الخشب الخشنة ، وروث الأغنام الجاف .

رغم اهتمامه الجديد بالنحل، لم يتخلّ أبو غايب عن ولعه الأول بالسياحة. حدثّني بحزن:

- بعض المتقاعدين من المؤسسة العامة للآثار أخبروني بأن القصف طال مدينة بابل. بعد أن تركزت أعمال التنقيب في قصر نبوخذنصر الجنوبي، لإكمال استظهار معالمه التي كانت مطمورة تحت الأنقاض، هوى كل شيء مرة ثانية مع البوابة الشرقية «كشنو». لم يبق من المدينة سوى سورها.

ابعدتُ وعاءً زجاجياً، كان عند قدمه، خوفاً من أن ينسكب وهو يعمل. سألته:

- أما زلت تلتقي بأصدقائك من أيام وزارة السياحة؟

- لا، ما عدا لقاءات متفرقة بالصدفة عند استلام الراتب التقاعدي ثم نشرب شاياً في مقهى الوزارة. بالمناسبة، يجب أن لا يُستعمل المدخَن بشدة وإلا أعطى دخاناً ساخناً يؤثر على النحل.

أشار لي أن أناوله عتلة مصنوعة من الألمنيوم. نبرته جدية:

- هكذا يجب تفريغ المدخَن، وتنظيفه من بقايا المواد المشتعلة والرماد، بعد انتهاء العمل.

سألني كما لو أنه يراجع درساً معي:

- إذن، لماذا نقوم بالتدخين؟

- لغرض تهدئة النحل، حيث إن النحل يندفع إلى العيون السداسية المملوءة بالعسل ويملأ حوصلته بالعسل عند تعرضه للدخان؛ مما يجعله يقلل قابليته على اللسّع.

قال بزهو:

- تشكرَدرم.

- أيراني؟

- لا ، تركي . لا تنسي ، حكمتنا الدولة العثمانية مدة أربعة قرون .
- أعلم ، ومن ثم حكمنا الانكليز منذ سنة ١٩١٧ فانتهى نفوذهم بعد ثورة ١٩٥٨ وسقوط العهد الملكي . صح؟
- صح . يجب أن نفهم تأريخنا جيداً .
فقلت له :
- ونحلنا أيضاً .

إلهام تدبر أمورها بطريقة أو بأخرى عندما تقول : «الله كريم .» دخلَت المستشفى ، وخرجت منه بعد خمسة أيام دون أن تشكو همومها . استأصل لها الأطباء عقداً لمفاوية من تحت الإبط كانت قد اصيبت بالداء . أخذَت إجازة ، وقامت خالتي بالإشراف على حمامها لئلا تصيب الجرح بالماء . خط من تطريز وردي حلّ محل ثديها القديم .

أم مازن تبرعت لها بخلطة كيس الراعي ؛ لائمة للجروح ومنظمة للدورة الشهرية . كما جهزت لها علاجاً من الأوراق والفروع المزهرة لنبات الميليسيا مع قشر الليمون الحامض وحب الكزبرة . سحنت البذور وطحنتها ، ثم طلبت من إحدى معارفها المسيحيات أن تنقعه لها في لتر من كحول نقي عيار خمس وأربعين درجة ، لأنها تحرّم لمس الكونياك الأبيض بيدها . بعد رج الخليط في الإناء ، بين فترة وأخرى ، تمّت تصفيته . لم تستذوقه إلهام ، لكنها التزمت بالجرعات .

ما عدا العم سامي ، الذي لم يتحرك من شقته في غياب إلهام ، تفقّد الجميع حالتها . أبو غايب تبرع لها بمبلغ من المال لشراء مسكّنات . الأستاذ من الطابق الأول لم يكف عن إرسال زهور طازجة يقطفها من

الحديقة العامة في شارع أبو نؤاس ، ويطلب مني أن أسلمها إياها قائلاً : «ليفرح قلبها قليلاً .» سعد ، الذي اكتشفنا أن له أسماء دلع أخرى ، أرسل لها باروكة تشبه شعرها الأصلي ، وعلبة صغيرة فيها أهداب صناعية . كان يسلمني الأشياء ودمعته على وشك أن تنهمر : «قولي للولو إن هذه هدية عملية من أبو السعود .» حتى صديقها المهندس اللحّام كان يرسل لها قطعة كبد مرتين في الأسبوع ليمدها بالبروتين المطلوب . مع ذلك ، رفضت بشدة استقبال أي زائر في شقتها . كانت تتصفح مجلات العم سامي دون أن تنبس بكلمة .

لكنها حائرة ؛ كيف ستحصل على صدر مستعار! لا يمكن أن تكشف لزملائها في العمل انها استأصلته ، وإلا ستعرض نفسها للطرد . خالتي تفكر نيابة عنها ، قائلة :

- انزعي .

وقفت إلهام ، فوضعت خالتي شريط القياس حول صدرها ، وراحت تسجل ، في ورقة صغيرة ، محيط الثدي السليم ، وارتفاعه . غادرت تقول :

- لا تقلقي ، واتركي الأمر لي .

قضت خالتي ليلة كاملة في صنع ثدي . عملت خلطة من شمع العسل ونشارة الخشب وقصاصات ناعمة من النايلون ، وراحت تعجنه على شكل قبة متوسطة الحجم . بعد ذلك خاطت مشّداً ثنائي البطانة ، وأودعت كتلة الشمع ما بين البطانتين القطنيّتين . رفعت إنتاجها أمام عينيها لتتأكد من جودته ، كأنها تتفحص نظارات من القماش تتهدل من جانبها الأيمن .

صباح آخر . أبو غايب لن يحتاج إليّ اليوم ؛ لديه اجتماع في جمعية

المزارعين الهواة . سألتحق بسعد . سيعلمني كيف نخلط الصبغ الاشقر المنطفئ بالصبغ الأحمر العنابي لنحصل على لون بوردو مخضر ، يفترض أن يرضي صاحبة موعد الساعة العاشرة . كان يريني كمية الأوكسجين ، التي يجب أن تضاف إلى الخلطة ، عندما سمعنا دقات عصبية على باب المحل . مدّت إلهام رأسها :

- صباح الخير .

لم تسمح لبقية جذعها بالدخول :

- شكراً على الهدية يا سعد .

اومأت باتجاهي :

- دلال ، أود الحديث إليكِ فوراً .

وقفنا خارج المحل . أخرجَت قبضة هلامية من حقيبتها ووضعتها في يدي . قالت وشفتاها الرفيعتان تتوتران :

- ماذا عن الحلمة؟

- ماذا؟!

- اطلبي من خالتك أن تضيف لي حلمة ؛ هذه لا تحتاج إلى قياس .

اختفت عن الأنظار ودخانها يتبعها .

كانت خالتي تعدل شعرها في انعكاس صورتها على زجاج صورة أبيها المعلقة على الجدار . أعطيت لها الثدي المستعار . يذكرني ملمسه بسمكة الهلام الابيض التي اصطدتها من ساحل البحر في كوبنهاغن . كم كنت صغيرة حينها . أدخلت إصبعي في كل ثقب من ثقوب ظهرها ، ثم ركضت بالسمكة وهي ترتعش في يدي حتى الطابق الثالث عشر ، لأرميها من شباك الفندق . هبطَت من يدي سريعاً وتفلطحت على

الرصيف . راقبتها وهي تتحول في سقوطها عبر الطوابق ، من سمكة مرتجفة بحجم الكف إلى بصقة بعيدة .

نبشت خالتي في حاجاتها القديمة بحثاً عن حل . أخرجَت قطعة من ورق تغليف مصنوع من نايلون سميك على سطحه فقاعات صغيرة محقونة بالهواء ، يُستخدم عادة لتغليف الأشياء القابلة للكسر . تناولَت مقص أظافر وقصت دائرة حول إحدى الفقاعات دون أن تثقبها ، ثم وضعتها على مركز الثدي ، وأذابت حافات النايلون بعناية بواسطة عود ثقاب مشتعل ، فالتصقت الفقاعة بدقة .

فرحت خالتي بالنتيجة ، لكنها ارتدَت في اللحظة التالية ، وجهاً حربياً لم أرها به من قبل ، عندما قلت لها :

– بالمناسبة ، أبو غايب اقترح عليّ أن أناديه خالو .

– ماذا؟

أربكني انفعالها :

– قال آن الاوان لأن ندع الرسميات والمجاملات جانباً ؛ خالو أفضل من أبو غايب أو زوج خالتي .

صاحت :

– كيف يجرؤ!

ارتبكتُ اكثر :

– لمَ لا يا خالتي؟

لم توجه الكلام إليّ :

– هل قرر أننا تآخينا ، أم ماذا؟!

هبطَت في مقعدها ، وراحت تفقّع فقاعات ورق التغليف بين إصبعيها ، واحدة بعد أخرى .

مرّت ليلتان . قصدتُ الثلاجة ، بعد أن أرَّقَني الحر ، فتحت بابها ، ومددت رأسي فيها أنشد قليلاً من البرودة . لم أتعمد أن أسترق السمع ، لكن أقدامي بدأت تسحبني باتّجاه غرفتهما . خالتي وزوجها يتذكران أمنيتهما ، منذ زمن الخير ، بأن يرزقا بفتاة . كانا سيسميانها زهراء ؛ على أسم أم أبو غايب . كانا سيدلعانها زوزو .

بعد عدة آهات منها ، وأُف ثم أُف منه ، قال لها بصوت محبَط أقرب إلى سحبة من دخان أركيلة : «أعطيني ما امسح به زوزو .»

في اليوم التالي ، نظفتُ الغرفة كالمعتاد ، وغيّرتُ شراشف وسادة أبو غايب . عن الأرض رفعت عدداً من وريقات كلينكس وردية مبقعة بأبيض ، كأنها زهرات كنا نصنعها في الروضة في درس الأعمال الفنية ، كانت قد سقطت سهواً عن السرير . جفت عليها «زوزوّات» كانت في الماضي حلم خالتي بإبنة ، وأمس كانت آهات لزجة .

بعد ذلك أصبحت الثلاجة حجتي لاستراق السمع .

إذن ، حققنا ما تسمّيه الصحف بالتوازن الاقتصادي ؛ أصبحت خالتي وزوجها ينفقان على البيت بالتساوي!

معدلي كان مناسباً فقُبلت في الجامعة المستنصرية ، كلية الآداب ، قسم اللغة الفرنسية . ركبت الباص الذي يحمل ثمانية عشر راكباً قطعوا المسافة معي بسرعة معتدلة . وشة مزعجة تصدر عن كيس نايلون عالق بسيارة مسرعة تمر بجانبنا . تبتعد السيارة ويصغر حجمها فتراودني فكرة فنية بمد ذراعي من الباص لأزيح الكيس العالق لتنقطع الوشة . أتذكر ما قاله لي أبو غايب في طفولتي عن أهمية تقطيع النسب في اللوحة . بدأها بشرحه بما أطلق عليه «فن ترتيب الثلاجة» قائلاً : «يجب وضع الأشياء

الطويلة الكبيرة في الخلفية ثم الأقل طولاً وحجماً في الخط الوسطي ومن ثم الأشياء الأقصر والأصغر في الأمام .»

اختلط عليّ الزمن . الشاب الجالس بجانبي يبصق من الشباك . في حضنه رزمة ورق عنوانها «أمير ميكيافيللي» غطى العنوان بيده بسرعة عندما انتبه انني أختلس نظرة . قلت لنفسي : «ربما طالب في قسم علم النفس .» يجب ألا أنسى ؛ أم مازن طلبت مني أن أطبع لها نسخاً لبعض خلطاتها باستخدام ماكنة التصوير في مكتبة الجامعة . حاولت الاسترخاء في مجلسي ؛ رأسي يكتظ بمدرجات من أفكار مثل جنائن معلقة لم تُسقَ جيداً .

اعتذرت إلهام عن تدريسي ، واكتفت بإعطائي بعض المبادئ وكيفية لفظ CAMION و CITRON . صارت ترفض أن تكلم أحداً مؤخراً ، وتردد : «لم أعد نافعة .» اضطررت للاعتماد على نفسي . حاجتي للمصروف جعلتني أُوفق ما بين الدراسة ، واستمرار دوامي عند سعد ، وزوج خالتي . الحصار يخنقنا مثل بطانية صوف في عز الحر .

انتظرتُ سعدا تحت ظل نخلة . أتذكّر ما قاله أبو غايب عن أن تأريخ النخيل يرجع إلى أكثر من ثمانين مليون سنة . أما أم مازن فقد رددت لي الحديث النبوي «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها» .

بعد ربع ساعة ، وصل سعد من المخبز . فتح باب المحل وعلى كتفه كيس نايلون قديم مطبوع عليه صورة بالأسود والأبيض للممثلين JOHN TRAVOLTA وOLIVIA NEWTON JOHN . وقد لوث بخار الخبز المنبعث من داخل الكيس ابتسامتها . قال بلهجة لبنانية :

- أهلين .

لم يكد يدخل المحل ، حتى فر هارباً ، وكاد يسقطني في طريقه ، وهو

يصيح :

- يا ماما ، عادوا!

وقف عند النخلة يلهث ، وأشار إليّ أن أدخل المحل ، ففعلت . الهستريا التي أصابته كانت بسبب خمس دودات من دود القز تزحف على زجاج الشباك مثل أكورديونات خضر جميلة بطول إصبع . جمعتها . أفرغت كيس الخبز ، ووضعتها فيه . سلمته الحشرات وهي تتقلب في كيس مطبوع عليه GREASE .

راح يضحك :

- أنت صديقتي يا دلال .

- وأنت جبان .

- أعترف .

دخلنا المحل معاً . كان كأنه يخاف من مواجهة المزيد :

- بذكر الصداقة ، لا أرى لك صديقات .

- إلهام صديقتي ، مع أنها تكبرني بسنوات ، لكنها لم تعد ترغب بعلاقتنا .

- مسكينة ، تمر بمرحلة صعبة . لم تطلب مني حتى أن أثبّت لها الأهداب الصناعية .

- نعم ، ترتدي الباروكة ، وتختفي من الصباح الباكر حتى المغيب .

ناولني قطعة خبز وجبن لنفطر :

- كان عندي صديق ، حتى اكتشفت أنه يقطف الزهر من حديقتي ، ثم يدق الجرس ويهديه لي .

أنعشنا طعم الشاي تطفو عليه وريقات نعناع ، أضاف :

- إن كان الإنسان طيباً فازرعيه في حديقتك يا دلال ، وإن كان سيئاً ، فحوليه إلى سماد .

- على الأقل، خالتي وزوجها عقدا صداقة جديدة.
- يعني سمن على عسل؟
- ليس إلى هذه الدرجة.
- هناك أمل في إنقاذ الزواج؟
- لا أعلم، لكنه لم يعد ينام على الأريكة كما كان يفعل في الفترة الأخيرة.
- يا دلّول، متى ستفهمين أن الوسادة حلالة المشاكل؟

نصحني سعد ألا أنادي زوج خالتي خالو، بينما كنّا نجهز خلطة السكر لقلع الشعر: قدحين من السكر، ونصف قدح من الماء البارد، ورشة من ملح الليمون، ولا بأس من إضافة ملعقة من عسل أبو غايب للحصول على عجينة ذات مطاطية أعلى. تغلي قليلاً ثم نبردها بانتظار الزبونة التالية.

خصص سعد الجزء الخلفي من المحل لفعاليات قلع الشعر. كانت شقته عبارة عن غرفة نوم غاية في النظافة، سرير شديد الترتيب، وجدار مطلي بالأسود مزين بنجوم فضية في منتهى الغرابة.

دبّت حركة بين الزبونات الثلاثة في المحل. قالت الأولى:

- أسرعن. أم حسن في طريقها إلى هنا.

راقبتُها تجمع كل منافض السكائر في ركن واحد، وتقوم بتغطيتها بمنشفة. قالت لسعد:

- هذه إحدى مريضات أم مازن. تسرق أيّ منفضة سكائر تراها في طريقها.

قالت الثانية:

- تضعها في حقيبتها، وتضيفها إلى مجموعتها في البيت.

قالت الثالثة:

- يقال : عندها أجمل مجموعة منافض مسروقة ، مع العلم بأنها لا تدخن .

كنتُ في الخلف عندما طلبت إحدى السيدات خدمة من «أم الشيرة الصغيرة» . كم كنت أنزعج من هذه التسمية . لم أعد قاصراً ، وبدأت بدراسة الأدب الفرنسي ، ومع ذلك لم أستطع التخلص من هذه الصفة! لكن على حد قول سعد ، لا توجد خيارات أحياناً في كسب العيش . فتحتُ لها باب غرفة النوم ، فاذا بها احدى زبونات خالتي ، ومن ثم أصبحت زبونة أم مازن . أتذكر أن هذه المرأة كانت تشكو من أن ثديها يفرز حليباً كثيراً وهي ما تزال عذراء . تمددَت على السرير ورفعت ساقيها . راحت تكلمني عن خلل الهورمونات المبكر الذي أصابها . لعنتُ الزمن وأنا أنظف لها مثلثها القبيح . هذه هي اللحظات التي أكره فيها نفسي .

عندما انتهيتُ من العذراء الحلوب ، كانت أم حسن مغطاة الوجه والرقبة بخلطة من العسل ومطحون الحمص ومستخلص الورد ماوي . راح سعد يمسح القناع برقة ، وهو يقول :

- تذكري يا عزيزتي أن السعادة ليس لها تجاعيد .

قناعها الأزرق يتكسر . ينفخ على عينيها ويلاطف لها الجفنين :

- السعادة لا تناقش الزمن . إنها لحظات لا تهرم .

فحصت تجاعيدها وغادرت . عندما رفع سعد المنشفة عن منافض السكائر ، صاح :

- نقصت اثنتين!

الفصل الحادي عشر

تشرين الثاني . أخرجتُ قدمي من تحت الغطاء أتحسس جو غرفتي ؛ مثلما تُغطِّس شخصية كارتونية إصبع رجلها في ماء البحر لتتأكد من برودته قبل أن تقفز فيه .

التلفزيون يبث مشاهد أرشيفية عن التبرعات للحرب . أثناء النزاع مع أيران ، قامت الحكومة بتحريض أهالي بغداد على التبرع بالذهب . طوابير من نساء ورجال يصطفون في قاعة احدى القصور الرئاسية يبتسمون للكاميرا حين تذاع أسماؤهم فتخرج من أكياس كبيرة كميات مخيفة من مصوغات السيدات . كلمات التقدير تُقاس بالكيلو ثم تسجل أسماء المتبرعين لكي تدرج مساهماتهم في صحف اليوم التالي فتعج القاعة بالتصفيق . فاصل دعاية ، يليه اعلان عن افتتاح معرض بغداد الدولي .

أصبح أبو غايب يحضر جلسات المعرض الافتتاحية ليستمع إلى مناقشة البحوث في مجالات المحاصيل الحقلية ووقاية النبات والإرشاد الزراعي . اختفى عشرة ايام كاملة ليعرض منتوجه في مهرجانات

العسل . أم مازن لم تتمكن من دفع قسط العسل لزوج خالتي هذا الشهر ، فأرسلت له لوحتها الوحيدة بدل نقد بعد أن سمعت من بدَرْية وصف شقتنا . فرح أبو غايب بلوحة الحقل التي كانت أم مازن قد أخذتها من عائلة أفلست ؛ لوحة لقاء فتحها لفناجين العائلة طوال سنة .

أتت الحرب ، والحصار ، وطفيلي الفاروا على طوائف النحل فأهلكت تسعين بالمائة منها ، مما أدى إلى تدني الإنتاج في القطر . إلا أن البساتين المزروعة ، في الثمانينات ، عوضت التدمير الذي لحق بقسم من البساتين خلال حرب الخليج . من جهة أخرى ، أدى إنشاء بحيرة في منطقة شط العرب ، بواسطة معدات ثقيلة ، إلى إزالة بعض أشجار النخيل . هذا ما تعلمته من زيارتي الأولى للمعرض مع أبو غايب ، وكنت أتمنى أن ننهي جولتنا سريعاً ، فغداً عندي امتحان بالمسرح . عشيقي سيشرب السم ؛ حبر مخفف في قنينة غسول للفم ، وسأناديه : «يا شاترتون ، أحبك ، يا شاترتون .»

لم ترافقنا خالتي إلى المعرض لانشغالها بخياطة مجموعة من المعاطف الشتوية . أخبرتُها أن الدول المشاركة كانت سبعاً وثلاثين من الدول العربية والأوروبية . سألتني : «ولماذا تحضر فيتنام؟» شرحتُ لها أن البرنامج الوطني لتطوير زراعة الأرز يجري بالاتفاق مع هذه الجمهورية . كما قلت لها ان الدعوة لتسويق العسل ، في مدن أخرى ، مفتوحة توافقاً مع المهرجانات الزراعية المتنوعة التي سيعلن عنها قريباً .

لكنني لم أذكر لها زيارات أبو غايب المتكررة للجناح الاردني ، بعد أن تعرف على مسؤولة منتجات البحر الميت . مدت يدها لتصافح زوج خالتي ولم تستطع أن تخفي مرضاً جلدّياً بقّع لها يديها . قالت بابتسامة ناعمة :

– تشرفنا ، اسمي رندة .

أجابها بابتسامة بدوره :
- رُبّ صدفية خير من ألف ميعاد!
تبادلا كركرات خفية ، ثم أصبحت لقاءاتهما إدماناً .

بعد عملية إلهام بشهرين ، اختفَت . ليس لأنها ماتت بالسرطان ، بل لأنها سُجنَت . انقلب مزاج أهل العمارة للخبر الذي جاء به حمادة بائع الجرائد . علمنا بأنه تم إلقاء القبض عليها مع صديقها المهندس اللحّام في محله . اتضح أن إلهام ، كما سمعنا ، كانت تبيع له أعضاء بشرية تسرقها من المستشفى بعد العمليات ، ثم يبيعها هو مفرومة مع لحم الغنم أو البقر .

جلستُ مع سعد في المحل غير راغبة في الذهاب إلى المعرض مع زوج خالتي . نظفتُ الأرضية ، وأعدت الفرش إلى مكانها ، وبدأت بغسل المناشف المتسخة . كان سعد غائصاً في كرسي المغسلة ورأسه ملقى إلى الوراء يفكر . لم نتبادل كلاماً كثيراً . غرّته حزينة تتهدل إلى الجانب . طرق أبو غايب الباب ودخل :

- سعد ، أريد منك خدمة .
- تفضل .
- هل لك أن تعيرني قنينة طلاء أظافر أبيض؟ سأعيدها لك هذا المساء .

لم يذكر موضوع إلهام . لا بد أنه قرر أن الحياة يجب أن تستمر . ناولهِ سعد قنينة الطلاء . شكره وغادر . سألني سعد :

- ماذا سيفعل بها؟
- سيغيّر الملكة .

عاد إلى مقعده :

- لا أفهم .

- سيلوّن ظهرها بنقطة من الطلاء الأبيض الذي يفضح وجودها كيفما تحركت .

اضفت :

- يجب أن تتجدد الملكة كل سنة أو سنتين ، لأن حشرات الفاروا تمتص دمها على مدار الأربع والعشرين ساعة . سيُضعفها ذلك ، وقد لا تبقى حية للخريف القادم .

يكلمني والحوض يحيط برقبته مثل ياقة من سيراميك ابيض :

- وماذا يفعل بالملكة القديمة؟

- سيقتلها النحل الحارس غريزياً ، بعد أن تدخل الملكة الجديدة إلى الخلية .

جمد سعد في مكانه كأنه يجلس كموديل لرسم حياة ساكنة ، ينصت لي :

- أشياء كثيرة لا تعرفها عن هذه الحشرات . هل تعلم أنه لأجل ان يحصل أبو غايب على غرام واحد من العسل فأنه يجب على النحلة الشغالة جمع ثلاث غرامات من الرحيق ، ومن أجل هذا عليها زيارة أكثر من ألف زهرة تفاح مثلاً؟

أخرج رأسه من فتحة المغسلة :

- نوّرتني . والآن أرجو ان تغسلي لي شعري .

تدربتُ على فروته . اولاً شامبو الأفوكادو . يجب فرك جلدة الرأس جيداً ، ثم إضافة منعّم الشعر برائحة الخوخ . يعاد ذلك مرتين . قال :

- مسكينة إلهام . لن نراها لفترة طويلة .

ثم أضاف :

- وربما لن نراها أبداً .

- ربما .

قلت :

- وربما لن نسمع عن مجموعة أخرى من النساء بعد اليوم .

- ماذا تقصدين؟

- أختفت بعضهن من الشوارع بتهمة الدعارة .

- من المرجح ان هذا الخبر اشاعة .

- كيف نميّز بين الاشاعة والحقيقة يا سعد؟

تأمل قليلاً :

- مثلما تميزين بين العسل الأصلي والمغشوش . تضعينه تحت لسانك ثم تبتلعينه .

أضاف :

- أتذكرين كيف كانت تكرر أنها لم تعد نافعة؟

- الآن ، عرفنا السبب .

- تُرى ، لماذا لم تتنبأ لها أم مازن بذلك وتحاول منعها؟

قلت له :

- في حالات كهذه ، أم مازن لا تردد سوى أن «الإنسان مُسيّر غير مُخيّر» .

قام عن المغسلة . علقت شعرة سوداء على الخزف الأبيض . شطفت الحوض ثم شرعت بتجفيف شعر صاحب المحل .

«صامُوت لامُوت . . . كل من يحكي يموت» . هكذا تختصر أم مازن تعويذتها الجديدة لحفظ العمارة من السوء . تحذر زبوناتها أن عمل السحر

يمكن أن يتجدد كل سنة من قبل الفاعل . وإذا اكتشف الشخص أنه مسحور ، فان الفاعل سيسارع إلى تجديد سحره وتثبيته بشكل أقوى من المرة الأولى ، وبذا سيصعب عليها إبطاله . أكدت أم مازن أن فضيحة إلهام كانت بسبب سحر حاسد ، ثم طلبت من بَدْرية أن تبخّر الطوابق بمزيج من بخور هندي وعشب قرص القمر اطلقت عليه «خلطة خاتمة الأحزان» .

ضاعف أبو غايب جهوده في المنحَل . كان يتوقع أن تزوره بعض الفرق من المعرض للاطلاع على سير ما أطلق عليه بعض الشباب في جمعية النحالين «خلايا تحت الحصار» . أصبح إنتاج العسل في الظروف الصعبة هو الغذاء والدواء .

وجدتُه في غرفة الفرز . كان يقيس لزوجة العسل . لمعرفة قوامه قام بتعبئته في وعاء زجاجي ملأه إلا قليلاً ، ثم قلب الوعاء بعد تغطيته لمراقبة صعود الفقاعة إلى السطح العلوي . دفتره الصغير مليء بالملاحظات : عسل الليمون ؛ مهديء للأعصاب . عسل النعناع مسكن للألم . عسل البرسيم مدرّر للبول . عسل الأكاسيا مهدئ للسعال .

أدار رأسه عندما تنبه لدخولي :

– يا دلال ، كيف تميزين العسل المغشوش من العسل النقي؟

– إن اشتريته منك فهو نقي ، وإن اخذته من غيرك فهو مغشوش .

ضحك عالياً . لم يضحك أحد منذ قضية إلهام . قال :

– خذي ملعقة من هذه . ستسبب لك حموضة بعد عدة دقائق ، وذلك لأنها مغشوشة .

لم أشعر بالحموضة . ربما كان يختبرني بعسل نقي . أضاف :

– العسل النقي له قوام جلاتيني مطاط عند تناوله بالملعقة ، انظري ، بينما العسل المزيف ليس له هذا القوام .

بعد قليل ، تناولت تمرة غير ناضجة أزعجني طعمها المشلل في فمي :

- سمعت أن أصحاب بستان النخيل سيحولون جزءاً من تمورهم إلى عرق وجزءاً إلى خل .

- نعم ، سيروّجون بضاعتهم السنة القادمة في المعرض .

جذبني رف تحت النافذة مثقل بمحتوياته . أشعة شمس برتقالية كانت تخترق أوعية زجاجية فيها عسل من مختلف الألوان ؛ أبيض مائي ، أبيض ناصع ، أبيض ، عنبري فاتح جداً ، عنبري فاتح ، عنبري غامق . سألته :

- وكيف يغشون العسل؟

- يلجأ بعض النحالين إلى غش العسل قبل فرزه من الخلايا ، وذلك بتغذية النحل على محلول سكري .

أعاد الغطاء على وعاء عسل مكشوف . قال :

- يمكن اكتشاف طرق الغش هذه بتحليل عينات العسل في المختبرات .

- إذن كيف تكتشف أم مازن الغش؟!

- أم مازن تحلل البائع وليس العسل .

سألني :

- وكيف حال الدوام؟

- الصف الثالث ليس مزحة . وما يحدث في أروقة الجامعة ليس مزحة .

- تبدين جدّية أكثر من المطلوب .

- لقد تم أعدام شقيق أحد الاساتذة لأنه شيوعي . ثم تم نقل الاستاذ من القسم إلى أرشيف المكتبة ومنع من مزاولة التدريس ومُنعنا

نحن من الاختلاط به . أما زوجته الأمريكية فقد أخذت ابنتهما وغادرت .

- ابتعدي عن السياسة يا دلال .
- هذه ليست سياسة يا زوج خالتي ، هذا استاذي المفضل .
- هل ترغبين في فترة راحة من المنحَل لتتابعي دراستك؟
- لا .
- إذن هيّئي نفسك للفريق الأول الذي سيزورنا هذا الأسبوع .

غادرتُ وصوت ام مازن في أذني «ومن ثمرات النخيل والأعشاب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون» ، وبالطبع ، كانت بَدْرية تختم لها : «صدق الله العظيم» .

تزامن لقائي الأول بعادل مع دراستي لـ FLAUBERT .

نزلت السلم لأتوجه إلى المنحَل . أحسستُ بشعرة تدغدغني في فمي . مثل طفل لا يعرف كيف يعبر عن نفسه ، في حالات كهذه ، تململت بعصبية . التصقَت الشعرة بسقف فمي في وضع نصف ابتلاع . قبل أن أصل إلى الطابق الأرضي ، أدخلت إصبعي أحاول إخراجها ، لكن رغبة بالقيء خنقتني . سأمر عند سعد لأشرب قدح ماء وربما كسرة خبز لتنزلق الشعرة وارتاح .

الباب مفتوح . قبل أن أنادي عليه «سعّودي» وصلتني أصوات من نصف المحل الخلفي ، الذي يعتبره شقته . جذبني صوت يشبه أنين حيتان . اقتربتُ أكثر والأصوات في تسارع . كان سعد يأمر :

- أخرج لسانك .

وكان الصوت الثاني كأنه ينفّذ :

- لا تزد رجاء .

- حلو؟

- حلو .

الصوت يقترح :

- لنجرب هذا يا طير السعد ، ما رأيك؟

- أنا أحبه ناعماً .

فيجيب الصوت الثاني :

- وأنا أحبه محبّباً .

فتح طير السعد باب الغرفة . حاولت أن أخفي تلصصي بالعبث بالرف المتمايل . لم يُبدِ أية علامات تعجب . في يده وعاء زجاجي يتبعه رجل يحمل وعاءا آخر . قال سعد :

- أنتِ الشخص المطلوب ، عندنا سؤال .

قلت للرجل :

- مرحبا .

تدارك سعد :

- عادل ، أعرفك على صديقتي دلال .

مد يده ليصافحني . قال سعد :

- هذا عسل ناعم ، وهذا عسل محبب . أيهما صحي أكثر يا دلال؟

- العسل المحبب دليل على أنه قد تعرض لدرجات حرارة منخفضة . السكريات الموجودة فيه تجعله يتبلور .

قال صاحب الصوت :

- أنا أحبه محبّباً .

أجبته :

- هذا يعني أنه أصلي ، فالمغشوش لا يحبب في فصل الشتاء .

لم أعد أحتمل . سألت سعد :

- عندك كسرة خبز؟

- نعم ، خذي ما تريدينه من الشقة .

دخلتُ . أنين الحيتان يصدر من التلفزيون المفتوح . إنه برنامج عالم البِحار CALIPSOU ، الذي يُبث كل جمعة . الغرفة كما هي ؛ غاية في النظافة والسرير شديد الترتيب . أخيراً ابتلعتُ الشعرة .

أصر سعد أن أقضي يوم العطلة معه ، لكن أبو غايب كان ينتظرني . صاحب الصوت ألقى نظرة سريعة إلى فمي بعينين بلون مخفوق جوز الطيب . أطول مني ومن سعد . رقبته ممشوقة قوية . عظام وجهه بارزة من الجوانب مثل عضلتي فك حصان . وقفته مستقيمة ذكرتني بإلهام . له شيب كأنه خصلات سكر مطحون . بعد أن جلسنا قال :

- دلال نحّالة؟

- لا أنوي أن أكون كذلك ، لكنني أساعد زوج خالتي في عمله .

قال سعد :

- وتساعدني في المحل ، وفوق ذلك فهي تدرس لغات .

أضاف :

- ما أشطرها!

هز عادل رأسه موافقاً ، واستمرّ سعد يوجه دفة التعارف :

- وأنتَ أيضاً ما أشطرك!

- أنا أقوم بواجبي ليس إلا .

سألته :

- ماذا تعمل؟

- عملي يقع ضمن التربية الاجتماعية .

صاح سعد :

- ياي ، كم أنت متواضع .
- لا تنفعل يا أبو السعود ، هذه حقيقة .
كان سعد يُقاطع تركيزنا على بعضنا . قفز بيننا ليقدّم لنا سكائر :
- عادل معالج طبيعي ، ويركّب أطرافاً مستعارة .
لا أدخن . وهو لا يدخن :
- شكراً سعد ، أنت أدرى بأن التدخين يقتل الراتب .
- إذن ، ابحث عن مهنة حرّة .
- أين تعمل؟
- في عيادة متخصصة . نحن نرعى المصابين من جراء الحرب وأضرار القصف . نحاول أن نوفر أطرافاً مستعارة من الخشب أو البلاستيك للمرضى الذين بُترت أحدى أطرافهم . أما مسؤوليتي ، فهي القيام بطلاء تلك الأطراف باللون المناسب للمريض .
كان سعد يدخل على الخط طوال الوقت :
- انت صاحب الطرف المناسب للشخص المناسب .
- بعد الانتهاء من صنع الطرف ، يجب تغطية الخشب أو البلاستيك باللون المطلوب . أعني : إذا كانت بشرة المريض سمراء ، فمن غير المعقول أن أركّب له يداً بيضاء .
- مهندس قطع غيار .
- اختصاص العظام أصبح مرغوباً هذه الأيام ، ليتني درست الطب .
- بعد ما شاب راح للكتّاب .
- المشكلة هي أن الألوان بدأت تنفد عندنا . لم يبق لدينا أصباغ مناسبة . المتوافر في السوق هو الأخضر والأزرق . تخيّل الناس يتنقلون بأطراف ملونة .
سألته :

- وماذا درست؟

- التضميد ، وبعد ذلك تدربت في العلاج الطبيعي . لا تتخيلي صعوبة الموقف عندما يأتينا أطفال بأطراف مقطوعة . كيف تقنعين طفلاً في التاسعة من العمر أن يرتدي كفاً من خشب أزرق ويذهب به إلى المدرسة؟

جاء سعد بقهوة :

- يا إلهي ، كيف تحتمل ذلك؟

- قناعتي برسالتي .

شارب دون شيب معتنى به جيداً ، يرتعش وهو يرتشف قهوته :

- جئت أطلب منك خدمة يا سعد .

- تأمر يا عدوّلة .

- تعلمٍ كم أكره أسماء الدلع!

- طبعاً يا عدوّلة .

كان الصوت يأتيني مثل موجة من زيت زيتون دافئ :

- أنا بحاجة إلى أصباغ أقرب إلى اللون اللحمي ، الأسمر ، والوردي . أطلب منك أن تبيع لي أصباغ شعر ، وأنا سأخلطها بمواد أخرى فأطلي بها الأطراف .

قام سعد إلى الرف ، ثم ناوله بعض العلب :

- هذه مستعملة . جربها ، وإذا نجحت سأطلب كمية أكبر من الوكيل .

- شكراً . ستساهم في عمل خيّر .

اغلقتُ الباب خلفي ، وكان يتعاقب في الداخل مرح سعد ، وجدّية عادل .

زوج خالتي متفائل بما سيجلبه المعرض من فرص . القوانين أصبحت تجيز التعاقد مع الأفراد والشركات العربية ، سواء للاستثمار في مجال الثروة الحيوانية ، أو الإنتاج الزراعي . أما بالنسبة إليه ، فقد بدأ بتجارته الخاصة ، منذ اليوم الثالث للمعرض . دعا أبو غايب الآنسة رندة لحضور المؤتمر الذي شارك فيه علماء وباحثون من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، ومنظمة الطاقة الذرية . جلسَت كمستمعة أنيقة ثم أبدت إعجابها باهتمام المؤتمر بالنخيل وصناعة التمور وزراعة البنجر السكري . بالمقابل دعتنا لحضور عرض لمنتجات بلدها .

وصلنا إلى الجناح الأردني بعد مشي خمس دقائق . أخرجَت بضاعة ذات أغلفة جميلة رسم عليها أمواج بحر وشموس حمر وخضر . تقديمها كان ناعماً كشعرها :

- هذه أدوية مقوية ، منشطات ، سوائل منعشة ، وكذلك مسكنات ألم . أما هذه فمضادات حيوية تحقن في الوريد للحالات المتقدمة في الداء . أما الحالات الخفيفة فتعالج في البيت .

قال أبو غايب :

- كالتعرض للأشعة والمغاطس وارتداء الملابس القطنية .

- تماماً .

يتكلمان لغة واحدة ، لكن أسئلته تبتلع لهجتها الرقيقة :

- هل عندك ما يخفف من قشرة الشعر؟

- هذا شامبو فيه مستخلصات قطران الفحم .

ثم اقترحت :

- لماذا لا تجرب هذا يا سيِدي؟

شعرتُ أن مفاصله ارتخت لطريقتها في الحديث . استأنفت :

- عندي مرهم مزيت مخفف للاحتكاك .

جلس على الكرسي ، وكان يرتاح في حضنه دليل لخارطة المعرض أخذه في المدخل عند البوابة الشمالية . قالت :

- وإذا تحتاج أدوية ضد العفونة ، فهي متوافرة أيضاً .

في النهاية تبادلا . أهداها قارورة عسل ، وأهدته حبوباً خاصة تجعل الجلد يتحسس للضوء ، ثم نصحته أن يتعرض لأشعة معتدلة ليكون العلاج فعالاً . أضافت :

- إن أكل قطعة من الخبز قبل هذا الدواء ، يخفف على المعدة .

رفعت إصبعاً مبقعاً باتجاهه :

- بما أنك مُربي نحل . . .

التمعت عيناه لكلمة مُربي :

- يجب تجنب حرقة الشمس لأنها تؤزّم الحالة .

كان يعرف هذه المعلومة جيداً ، ومع ذلك سألها :

- صحيح؟

- نحن ننصح كذلك أن يختلط المريض بمرضى آخرين لتتم المشاركة في الآراء والشكوى والخبرة .

سارع أبو غايب بتبادل المعلومات معها . عنوان عملها : المنتجع الطبي التابع لفندق البحر الميت ، طريق الأغوار ، الأردن . أما هو ، فكتب لها في ورقة صغيرة : ساحة التنس رقم واحد ، نادي العلوية ، بجوار عمارة الأساتذة ، بغداد .

ثم أضاف :

- بالمناسبة ، العمارة تطل على ساحة الجندي المجهول ، لكن سيتم تغيير اسمها رسمياً إلى ساحة الفردوس . سيشيدون فيها تمثالاً رئاسياً . . . آخرَ .

الفصل الثاني عشر

ها نحن ننتظرها في ردهة الاستقبال في النادي . جاء دوره ليعرض منتجه الوطني في موقع العمل في ساحة التنس . قبل النوم ، وضع أبو غايب مرهمها على جسده ، ولف الأجزاء ذات الإصابة الأسوأ . عندما استيقظ وجد أن لون جلده بدأ يتغير . تأخر الفريق السوداني ، فقضينا نصف ساعة في القاعة نشرب الشاي . طلبت هي قهوة . قالت له :

- لا تقلق . الصدفية تزداد في فصل الشتاء .
- أشعر بألم في المفاصل .
- هذا طبيعي أيضاً .

أخرجت من حقيبتها هدية ، عبارة عن زجاجة من مادة الفينول :

- جرب هذا ، ولنرَ كيف تتطور الأمور معك .
- سيصيبني عجز الجلد المبكر لكثرة تجريب الأدوية!
- ليس لدينا خيار . حالتك أخف حتى من الكثير من الأجانب ، الذين يزوروننا ، في المصّح . يقضون أسابيع في الماء المالح حتى تظهر النتائج .

- إنها لعنة يا ست رندة .

- نصيبنا .

طرف إظفرها المبقع يدخل في عروة الفنجان :

- على كل حال ، يجب أن نحافظ على مستوى من الصحة العامة ، وأن نقوم بتمارين رياضية ، وأن نحافظ على أكل جيد معتدل .

أضافت :

- وأن نتجنب القلق بالطبع .

لم تفهم لماذا تبادلنا النظرات أنا وزوج خالتي . قال :

- صدفيتكِ مؤلمة أليس كذلك؟

- لا تتخيلَ يا سيِدي .

- هل جربتِ مغطس نبات القطيفة؟

- نعم ، لمدة ستة أشهر ، لكنه لم ينفع .

- إذن ، جربي غمسها في زيت اللوز .

- سأحاول .

- التعليمات تقول إن نظافة الجلد مهمة ، وأخذ دوش يومي ، وتجنب استخدام المواد الكيميائية المستخدمة للمنظفات في البيت .

- أراكَ مطلعاً بشكل جيد .

- مُجبر لا بطل .

ابتسامتها الرقيقة لم تناسب الموضوع الذي فتحته بعد قليل . تعدلت في جلستها وهو لا يرفع نظره عن تناسق بنطلونها الأسود الأنيق ، وبلوزها البرتقالي من الصوف الناعم . قالت وهي تخفض صوتها :

- سأدلك على سر آخر ، بشرط ألا تفضحني .

تعدل في جلسته كأنه يقلد حركتها :

- أعدكِ .

- العلاج باليورين نظرية مقبولة في فرنسا .

- سطحي؟

- لا ، مع الأسف ، مما يجعله أصعب . إن بعض مؤسسات الصحة تنصح بشرب - اعذرني للكلمة - «البول» ، كعلاج للصدفية . لكن أغلب الناس لا يفضلون هذه الطريقة ، ويرغبون في أخذ حبوب الفيتامين بدلاً منها .

دخلتُ على الخط رغماً عني :

- مقرف!

- أعلم ، لكن يجب أن يشرب المرء «سوائله» فقط ، وليس «سوائل» غيره ، ويجب أن يكون هؤلاء نباتيين لأن أكلَة اللحم يولّدون نسبة عالية من اليوريا .

قال زوج خالتي ووجهه ينكمش :

- يعني داوِها بالتي هي الداء .

- تماماً . يقترح بعض المختصين أن اليورين ، لأحتوائه نسبة من المرض ، يمكن استخدامه للعلاج .

عادت الست رندة تتحدث براحة تامة :

- الطبيب يرسل عينة إلى الصيدلية ومعها الوصفة الطبية ، عادة تؤخذ خمس عشرة قطرة من «البول» المخفف بالماء قبل نصف ساعة من الإفطار .

قال :

- إذا كان الجسم يرفض هذه المواد ، فلماذا نرجع نشربها؟!

راحت رندة تضحك :

- على كل حال ، لسنا نباتيين .

قلتُ لها :

- لكن هذه اسوأ أنواع العلاج .
- ليس أسوأ من الذي يعيشه بعض المصابين .

اكتملت دائرة الزوار : مندوب جمعية إصلاح الأراضي من السودان ، ومبعوث مشاريع الري الحديثة من الجزائر ، ورندة . تحت شمس دافئة جلس الجميع ، على شكل نصف دائرة ، وسط المنحَل . كان أبو غايب يقف تحيط به وسائل ايضاح . كان اهتمامهم المبدئي يدور حول حظر الطيران الزراعي نتيجة ما يسمى بخطوط العرض ٣٢ و ٣٦ الوهمية ، وعليه لا يمكن استخدام المبيدات وطرق الرش لحماية المزروعات من الآفات . لكن ، بعد تذوق العسل ، انصهروا مع زوج خالتي ، الذي راح يشرح بشغف لمندوب السودان ، حين سأل :

- كيف يتم إنضاج العسل؟
- تقوم الشغالات بالوقوف ملتصقة ببعضها ، وتقوم بتحريك أجنحتها ، التي تؤدي إلى حصول تيار هوائي يعمل على تبخر الماء من المحلول ، وبالتالي يصبح العسل ناضجاً .
- ما هذا الذي سمعته عن تدفئة وتبريد بيت النحل؟
- نعم ، النحل من الحشرات ذوات الدم البارد ، لذا تقوم بتكييف هواء داخلي لتنظيم درجة الحرارة في الخلية .

أشار أبو غايب إلى الحوض الذي تطفو فيه العائمات ، وأضاف :

- من هناك يقوم النحل بجمع الماء ، ويخزنه في الأقراص ، بينما تقف مجموعة من النحل على العيون ، وتقوم بتهوية الماء وتلطيف الجو .
- وفي الجو البارد؟
- يجتمع النحل على هيئة كتلة متشابكة . يقوم باستهلاك العسل

وحرقه أثناء عملية التنفس ، فتنطلق حرارة تؤدي إلى رفع درجة الحرارة وتدفئة الطائفة .

سألت رندة ، وهي تخفي يدها المبقعة تحت بلوزها الصوفي في حضرة الآخرين :

- لو سمحت ، ما هو التطريد؟

- غريزة طبيعية في النحل يتوارثها جيلاً بعد جيل . تخرج الملكة مع عدد وفير من الشغالات لغرض بناء عش جديد غير الخلية التي يعشن فيها .

- لماذا يفعلن ذلك؟

- فائدة التطريد هي التكاثر والتزايد في عدد الطوائف ، وبالرغم من ذلك فإنّه ، ومن وجهة نظر النحالين ، يعتبر ضرراً ، حيث إن الطرد قد يخرج ولا يتمكن النحال من إرجاعه مرة ثانية .

شعرنا بنسمة باردة . كانت مهمتي توزيع شاي الحامض الساخن بين المهتمين . علم المبعوث الجزائري أنني أتعلم الفرنسية فقال : «MERCI» ، ثم سأل بلهجة شمال إفريقيا :

- سيد أبو غايب ، هل تدر عليكم هذه المناحل ربحاً جيداً؟

- لنقل إننا لم نعد نتغذى بطاطا ونتحلى تمراً فقط .

بينما كان يتحدث ، جلستُ عند مربع مزروع باعشاب متنوعة ، ورحت أختبر نفسي في معرفة اسمائها : خردل بري ، لسان الكلب ، منقار اللقلق .

فجأة سألتني رندة وهي تمد ذراعاً برتقالية إلى حيث أجلس :

- ما هذا؟

- عرق السوس .

- وهذا؟

- فجيلة .

- وذاك؟

- خرز بنت الفلاح .

- عالمكم مثير .

فكرتُ : لا أعتقد بأن خالتي ستشاركها هذا الرأي ، وكنت ألمحها بين فترة وأخرى تطل علينا من شباك غرفتي . أبو غايب يشرح السؤال الذي فاتني :

- بالطبع ، هناك من يقوم بحراسة الخلية . وبهذا يمنع أي عدو أو نحل غريب من الدخول إلى طائفته .

كنت أرقب خالتي من موقعي عند رقعة الاعشاب ، بينما أبو غايب يستأنف :

- إذا اقترب عدو ، يقف النحل الحارس على زوجي الأرجل الخلفيين ، ويرفع الزوج الأمامي إلى الأعلى ، ثم تنتصب قرون الاستشعار وأجنحته مطوية ، ويقف على أهبة الاستعداد للدفاع عن طائفته .

اختفت خالتي للحظات ، لكنها سرعان ما عادت وسماعة التلفون في يدها . كانت تتحدث وهي تتفرج على مجلسنا .

سألت رندة بانفعال :

- وهل يتعلم النحل الطيران مثل العصافير؟

- كل نحلة يجب أن تمارس الطيران مع النحل الكبير لمعرفة المعالم التي تحيط بالطائفة .

عادل ، صديق سعد ، كان محقاً بشأن اختفاء الأصباغ من السوق . يبدو أن المصانع المحلية بدأت تخلط ما تبقى من ألوان بأي منتج كان . قدمتُ للزوار حلوى عبارة عن تمر خستاوي محشو بالجوز والسمسم ، وضعته في مناديل ورقية فاقعة الحمرة ، ثم قدم أبو غايب لكل شخص

قارورة عسل صغيرة وضعها في أكياس نايلون ذات لون بنفسجي صارخ . يقال أيضاً إن ورق التواليت ، في المحلات ، أصبح أقرب إلى اللون الفضي ، وإنه يترك اثراً بعد الاستعمال .

فض الاجتماع ، وحظيت رندة بباقة من أعشاب عنب الذئب تزينه وردات زند العروس . بدأت الشمس تميل إلى الوداع . قالت لزوج خالتي :

- سنقدم محاضرة مختصرة عن فوائد البحر الميت قريباً . سأوافيك بالمعلومات .

- سأحضرها بالتأكيد .

غادر الجميع موقف السيارات في النادي ، حيث كان في انتظارهم سائقان : واحد أسود ، وآخر أبيض .

لم أصدق أن تتحرك خالتي بهذه السرعة! لم يخطر على بالي أنها كانت تطلب حجاباً من أم مازن ، عبر الهاتف ، أثناء مراقبتها لتحركاتنا في المنحَل ذلك اليوم . اكتشفتُ فيما بعد أن الخلطة المتفق عليها بينهما عبارة عن «أوتو موتو زنبور توتو . . . اطلع برّة كِشْ . . . الله يخلي هذا العِشْ» . قالت لي بَدْرية ، ظناً أنني على علم بالخطة ، إن أم مازن جاءت بحمامة فقطعت رأسها ، ثم حشرت الرأس مع الحجاب في بطن الحمامة ، وخاطت الرقبة بخيط أسود أخذته من خالتي ، ولم تكتف بذلك ، بل طلبت من جارتنا ذات النمش المُتساقِط أن تدس الحمامة المغلفة بورق سيلوفين في الجناح الأردني في المعرض . كانت الجارة ستنسق ذلك بحجة أنها تعرض على رندة أقمشة جميلة بعد أن تدعي لها أنها وكيلة لبعض معامل النسيج من الجناح الهندي .

والآن ماذا أفعل ، هل أخبر أبو غايب ، أم أطلب من خالتي أن تنسحب ،

أم أحضر المحاضرة معه وأبحث عن مغلف السيلوفين في الاستراحة؟!

أحمر شفاهها التمع عندما لمحته بجانبي في منتصف القاعة . تأخرنا قليلاً . كانت رندة قد بدأت :

- والمعادن المفيدة في الماء هي كلوريد الكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والمغنيسيوم .

راح يبادلها نظرة من بعيد :

- هناك نسبة عالية من التبخر في البحر الميت . هذه الطبقة من البخار تخلق نوعاً من الضباب مكوناً من غازات تعمل كمصفاة طبيعية للغلاف الجوي .

استأنفت :

- فيقوم الضباب بتصفية الأشعة الضارة من الأشعة فوق البنفسجية ، وبذا لا تؤدي هذه الأشعة إلى حروق .

بعد نصف ساعة ، ختمت رندة المحاضرة بشرح فوائد البروميد المُذاب . بدأ مساعدها الشاب بتوزيع كُتيبات عن المنتجع الصحي بين الجالسين . قالت :

- ستشعرون براحة تامة من خلال تجربة كهذه ، ولن تشعروا بالحرج من الاستلقاء في الشمس مع الآخرين .

أضافت :

- شكراً لحضوركم .

حتى الآن ، حمامة أم مازن لم تمنع رندة من الذهاب مع أبو غايب ليعرض عسله أثناء تحضيرات مهرجان الربيع في الموصل ، كما لم تعرقل ذهابهما ، في اليوم السابع من المعرض ، إلى مهرجان البرتقال في ديالى ، ليلتقي بأعضاء اتحاد النحالين العرب .

عند باب الثلاجة سمعتُ، أو قررت أن أسمع، نقاش خالتي وزوجها. قالت له:

- لم تعد تحبني.
- لم يعد موضوع حب بيننا.
- هكذا، انتهت المشاعر؟
- إن الحب، في هذا العمر، هو علاقة تفاهم.
- ونحن لم نعد نتفاهم؟
- بعد كل هذه السنوات معاً، تفاجئينني بسؤال كهذا!
- اريد التأكد.
- الحب هو قابلية للحوار، ونحن فقدنا الحوار.
- تقصد لم تعد لدينا علاقة.
- لقد عشنا حياتنا. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟
- أشعر أننا نبتعد عن بعضنا.
- ألا تعتقدين بأننا استهلكنا السيناريو الرومانسي؟
- لا.
- ماذا؟ ألم أعد مستنقع فطريات في نظركِ، هاوي فن بطراً، وبالتأكيد تاجراً فاشلاً؟
- ربما أخطأت في حقك.
- لا تتراجعي.
- الأمور بدأت تشرق قليلاً. لقد كنا متعَبين في السابق.
- هل تربطين نجاحنا في العمل بعلاقتنا؟
- ليس تماماً، لكن على الاقل خفّ الضغط المادي علينا.
- إذن أتمنى لك إيراداً أكثر.
- لا تقل ذلك، «ما يحسد المال إلا صاحبه».

- يبدو أن أم مازن لا تكف عن مدّك بحكَمها .

ارتبك صوت خالتي قليلاً :

- ما دخل هذه المسكينة بموضوعنا؟

- المسكينة؟ على كلٍ حال لا يهم . أخذنا نصيبنا من الدراما الحقيقة .

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الحياة ستستمر ، وسأستمر بمجاملتها .

- وهل ستجاملني أنا أيضاً .

لم يجبها ، يبدو أنه يتهيأ للنوم . تلّح :

- مثلما تجامل تلك العَمّانية الطازجة؟

- الآن بدأتُ أفهم قلقك .

- لدي الحق .

- ما بكِ؟ نحن نتبادل بعض الهموم المشتركة ليس إلا .

- ألا تكفيكَ الهموم المشتركة معي؟

- أقصد مرضنا .

- لا أود أن أسمع بأنك تقضي أكثر أوقاتك معها .

عندما زمجر فيها أبو غايب سارعتُ إلى غرفتي :

- اسمعي ما تشائين .

بعد لحظات انتهى على الأريكة .

في اليوم التالي ، أبدت خالتي اهتماماً مفاجئاً بالتجربة ، التي ستقام في المخزن ، بإشراف خبير مناحِل تونسي . سمعَت زوجها يناقشه على الهاتف حول طرق استخراج السم من النحل لأغراض علاجية .

سيحضر في الساعة الواحدة . حضرت هي قبل الواحدة بخمس دقائق .

بعد نصب الأجهزة المطلوبة ، وضع الخبير الشغالات في إناء زجاجي نظيف ، وغطاها بورقة ترشيح مبللة بالأيثر ، فتخدّر النحل وسال منه السم على جدار الإناء وعلى قاعه ، ثم غسل الإناء بالماء ، وقام بتسخين خفيف للمحلول العكر الناتج ، فتبخر الماء وبقي السم الحقيقي .

قال :

- الخطوة الثانية هي تجفيف النحل في غرفة دافئة ، أو في الشمس ، ويُرد إلى خليته .

لفّ أنبوباً مطاطيّاً وأعاده إلى علبته . أضاف :

- من مزايا هذه الطريقة الحصول على كميات معقولة من السم من ألف نحلة ، ودون قتل النحل . لكن ليست هذه كل كمية السم ، فقد يموت الكثير من النحل أثناء العملية .

سأله أبو غايب :

- ماذا عن العلاج بالوخز؟

- هذه طريقة متبعة في اليابان . تنتزع آلة الوخز من النحلة بواسطة ملقط رفيع ، وتغرز في جلد المريض دون ألم يذكر ، ليتسرب السم إلى الداخل ، فتؤدي مفعولها .

تدخلت خالتي :

- عذراً يا سيد ، ماذا تعالجون بهذا السم؟

أجابها وهو يشطف دورقاً ذا رقبة طويلة :

- صفير الأذن ، وانسداد لحمية الحاجز الأنفي .

عدتُ مع أبي غايب والخبير إلى المعرض . في التكسي كنت أفكر بما يدور في ذهنها .

عندما علمت خالتي أن النحل يمرض كسائر الحشرات ، لكنه الكائن المستأنس الوحيد الذي لا ينقل أمراضه إلى البشر ، وعندما أخبرها أبو غايب أنه يفكر بتلبية دعوة رسمية لزيارة البحر الميت ؛ توارت عن الأنظار لمدة يومين في غرفتها وماكنة SINGER لا يتوقف هديرها .

أغلق معرض بغداد الدولي أبوابه ، وأغلق أبو غايب حقيبة سفره . قال إنه لن يتأخر أكثر من بضعة أيام . أنتجت خالتي ، في ذلك الاسبوع ، أجمل معطف رأيته في حياتي . أخذ قالب جسمها : الأكتاف محشوة بكتافيات ، خصر صغير ، وارداف عريضة . لكن جماله كان يكمن في قماشه الخردلي من الصوف الممتاز وجدَته عند جارتنا ، التي اشترته من الجناح الأفغاني . بعد ذلك قامت بتطريز ياقته العريضة بحبل من مادة غريبة تشبه فراء ذا لون خردلي وأسود يتعاقبان . ارتدت كعبها العالي ، ورفعت شعرها الاشقر الذي تتخلله خصلات برونزية عملها لها سعد . تتمشى أمامي بخيلاء . ضحكتُ في داخلي ؛ أهذا ما تفعله الغيرة بين النساء؟!

كنت مخطئة ، فخالتي لم تكن مهتمة بسمّ النحل . ظهور رندة على الشاشة هو الذي جعلها تنطلق بابداعها . والغيرة دفعتها إلى أن تتسلل إلى المنحَل دون علم زوجها . كانت قد جمعت النحل الميت بعد أن جف في الشمس إثر عملية التخدير . قلعت رؤوسه وآلة اللسع ، ثم غطسته في محلول من مادة حافظة مخلوطة بغراء شفاف . احتفظت بالأجنحة على أجسام النحل قبل تحنيطه لكي تكسبه لمعة إضافية ، وبذلك حصلت على كرات صغيرة من فراء صناعي راحت تطرز بها معاطف هذا الموسم!

فتح سعد الباب . شعرت بحاجة إلى تغيير ، فتبنيت لهجته ، رحت

أقلده :

- Hi .

عدل غرته :

- هاي . . .

كانت ابتسامته تتمدد وهو ما يزال واقفاً عند الباب :

- ورحمة الله وبركاته .

دخلت ، فأغلقه :

- ما هي الأخبار؟

- «نحوّل» سافر و«زينة» في البيت .

- وأنتِ؟

- سأدرس محاضراتي في المنحَل حتى يعود .

جلسنا :

- لا بد ان ام مازن أصابها الإحباط ، عندما علمت أن حجابها لم يكن فعّالاً .

- مع ذلك ، لا تكلّ ولا تملّ . هاهي تحضّر خلطة أخرى للإيقاع بزوج خالتي .

- هل ستخبرينه؟

- لا أعتقد .

- كم أنت بريئة يا دلال!

- هناك فرق بين البراءة وبين التعب من التشكيك .

انتزعت حذائي لأريح قدمي :

- لا أعلم كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد . هل نفر أبو غايب من زوجته قبل لقائه رندة أم بعده ؟ هل كانت خالتي متمسكة بزوجها قبل أن تظهر سيدة أخرى في حياته ، أم هل هرعت للتمسك به بعدها خوفاً

من فقدانه؟ وما علاقة الزواج بالنجاح في العمل خارج البيت؟ وكيف سيُنقَذ الحال بخلطات أعشاب وسحر؟

قال سعد :

- هل تعتقدين أن رندة أغرته عن قصد؟
- لم اشعر بذلك . كل الذي يتحدثان عنه هو الصدفية .
- ربما تكون علاقتهما نظيفة .
- كيف تغار خالتي من امرأة مصابة؟!
- لأنها امرأة .
- الغيرة والحسد للجميلات فقط .
- هل تعتقدين حقاً أن الجميلات فقط يجذبن الرجال؟
- طبعاً .
- أخالفك الرأي .
- خالِف .
- ولست الوحيد من يعتقد بهذا .
- لا أعلم كيف تفكر أحياناً يا سعد . قل لي لماذا ينجذب رجل لأمرأة عندها مشكلتي مثلاً؟
- قلتُ لست الوحيد بهذا الاعتقاد ، وسأجيبك على سؤالك الساذج بأن صديقي أعجب بك .
- عادل؟
- نعم .
- لا تمزح معي!
- أقسم لك ، قال إن عينيك جميلتان .
- إذن لابد ان ذوقه بالوجوه تكعيبي .

لم يتمالك سعد أن انفجر ضاحكاً بعنف :

- وتصرّين على أنك دون جاذبية!
- الشخصية شيء ، والشكل شيء آخر .
- وزيارته لي بشأن الأصباغ شيء ، وسؤاله عنك شيء آخر .
- زارك مرة ثانية؟
- هذا الصباح .
- طيب ، لأجلك فقط سأترجم إعجابه بأنه معتاد على التعامل مع الناس ذوي العاهات .
- هذا تصغير للموضوع من جانبك .
- أي موضوع؟
- أعطِه فرصة .
- تبدو جدّياً يا سعد ، أنت تخيفني .
- هو جادّ .
- غريب!

قفز سعد من مكانه :

- ها أنت قد وصفتِه . يحب الأشياء والأحداث والأكلات والوجوه والأماكن الغريبة . يردد دائماً أن كل إنسان يرى الحياة بعيونه وليس بعيون غيره .
- سعد ، أحذرك ، لا توقعني في ما أنا في غنى عنه .
- تقصدين تخافين من الخطأ؟
- يا أخي ، لا تحشره في رأسي .
- أليست اخطاؤنا هي أجمل ما نملك يا دلّول؟
- اخطاؤنا تجعلنا أكثر جبناً .
- أنا صاحب الخطأ الصحيح في الوقت الصحيح .
- هراء!

- صدقيني . أنا أقسّم الخطأ إلى نوعين : أخطاء ، وأخطاء جميلة .
- وهل تقسّم الثمن الذي ندفعه عنها إلى نوعين أيضاً؟
- ما بكِ؟ حتى الغيوم ، في نهاية مطافها ، تتحول إلى ماء ؛ تهطل فيسمونها مطراً . ما هي الغيوم إلا ماء الأرض الذي سرق فرصة من الدنيا ليطير .
- يعني : الدائرة مغلقة .
- ياعنيدة ، يعني دورة الحياة في الطبيعة!

امتلأ رأسي بأنصاف أفكار . يجب أن أجد طريقة لأنجح في درس الثقافة القومية الأجباري . لا أفهم المنهج الدراسي «التطبيق التنظيري في إطار التنظير التطبيقي» . أستاذ المادة اقترح عليّ أن أترجم له اطروحته عن حياة الخديوي أسماعيل في مصر لقاء أن يعفيني من الامتحان . مطلوب مني كذلك أن أكتب تحليلاً لشعر من القرون الوسطى . جلستُ في المنحَل أفكك قصيدة للشاعر GUILLAUME DE LORRIS تحت الشمس . على الأرض بجانبي قنينة ماء فارغة كانت رندة تشرب منها أثناء اللقاء . تمعنتُ في اللصقة تعتليها كلمة «غدير» باللون الأزرق «طن من الماء يمر من خلال أجسامنا كل سنة ، فاحذر الماء الذي تشرب» .

بعد ساعة مللت . رفعت مقالاً من مجلة علمية وجدَت حلاً لمكافحة حشرة الفاروا . أحببت هذه الكلمة «الحامض النملي» مترجمة عن حامض الفورميك ، حيث إن مزجه برهم غذائي يؤمن حماية نحل العسل من العناكب التي تتطفل على جهاز النحلة التنفسي وتتكاثر فيه مانعة دخول الأوكسجين الكافي مما يؤدي إلى قتل النحل .

نادتني خالتي لألتحق بها في شقة أم مازن التي أعلنت عن خلطات

جديدة للبيع . طريقة فتح عقدة النصيب : إعطاء الفتاة ورق السدر مقروءاً عليه سورة البقرة ، تغتسل فيه ، والماء المتبقي لا يذهب إلى المجاري ، بل يجب أن يُرمى خارج البيت . تصف المرأة التي لا تتزوج بأن ذيلها معقود .

طريقة علاج حالة العقم : يعطى المصاب بالعقم شمعة وعسلاً ، ويجب قراءة سورة مريم ليتم إثبات أن لا شيء مستحيل ، ثم يسقى دهن حبة البَرَكة . طريقةعمل حجاب محبة : قراءة سورة يوسف على اسم الحبيب واسم أمه لكي يرجع .

تدمدمان في الطابق العلوي . تقول لها أم مازن ، وهي منهمكة بمسح ورقة صغيرة بشحم أخضر مُستخرج من نبات حشيشة الريح ، «شفت شواربه وتغزرت بيه . . . ولو ما شواربه ما جنت ألفيه» ، ثم تكتب على ورقة رسم فيها مثلث داخل دائرة داخل مربع حروف أسماء أبو غايب ابن زهراء ، ورندة . تستخدم الورقة لتغلف بها ما ادعت أنه الجزء البارز من القفص الصدري لطائر الهدهد . بعد ذلك اتبعتُ خالتي التي نزلت إلى المنحَل لتخيط لفافة الحجاب في بطانة بدلة أبو غايب الواقية المعلقة خلف الباب .

بعد أن انتهت سألتها :

- خالتي ، إلى هذه الدرجة تغارين منها؟
- أغار عليه .
- ماذا لو اكتشف أبو غايب؟
- لن يكتشف .
- ألم أكتشف أنا سر الحمامة من بَدْرية؟
- هذه الخادمة المتخلفة لا تختلط بالرجال .
- لكن يا خالتي ، انت تُحمّلينني أسراراً ثقيلة .

- وربما تحملين أسراراً له أيضاً!

لم أتوقع ردها :

- ولماذا لا تشكين في مصداقية أم مازن؟

ركلتّ قنينة الماء البلاستيكية بقدمها :

- ليس لدي خيار .

لم ندرك حينها أن تلك اللفافة الخضراء كانت من أواخر خلطات سيدة الطابق الخامس .

الفصل الثالث عشر

ما لم تتنبأ به أم مازن هو القذيفة التي شقت الفضاء في منتصف الليل . لامست بأزيزها الجناح الأيسر من شقتها ، وقصت كالسكين ، في طريقها ، أعالي الأشجار في البستان خلف النادي ، لتنغرس مائلة في جرف النهر ، لكنها لم تنفجر .

اهتزت الأسِرّة . اجتمعنا في ظرف دقائق في ممرات العمارة نطمئن على بعضنا . دققتُ الباب على العم سامي الذي صاح من خلفه : «أنا بخير ، لا تجزعوا» . لكن باب شقة أم مازن لم يفتحٍ حتى قام الأستاذ من الطابق الأول وسعد بكسره عنوة . وقفا جانباً وهرعنا أنا وخالتي إلى الداخل لنتبين الأمر .

كانت القذيفة قد كسرت كل النوافذ . الستائر ممزقة . بعض الكراسي منقلبة بفعل ضغط القذيفة . غرف النوم فارغة . وجدنا المرأتين على أرض المطبخ ؛ السيدة ممّددة رداؤها ينحسر عن كدمات وجروح ، والخادمة تجلس القرفصاء فوق رأسها قدر طبخ كبير . القدر يغطي رأس بَدْرية وكتفيها أما بقية جسمها فيرتجف من تحت القدر كأنها جالسة تحت

جرس كنيسة من نحاس مسوَّد . يبدو أنهما كانتا منهمكتين في صناعة خلطة ما .

تناثرت مئات القطع من حطام نافذة وزجاج أوعية وخزف فناجين . كانت حبوب ترمس وحمص قد طارت في الهواء . أباريق الشطف البلاستيكية متضررة مكدسة في إحدى الزوايا . سالت من القناني المشروخة سوائل ملونة وتداخلت : خل ، حليب ، عصير شمَندَر . بذور يانسون تغطي الطاولة . انفتقت أسنان ثوم معلق على الجدار تحت الضغط . سقط إناء كمون وحاوية نبات أظافر الدجاجة في مستحلب أوراق عشبة ذيل الحمل . نبات الحِمحِم اختلط بعشبة ريحان داوود . خلطات نصف مصنعة من لحية التيس وأهداب فينوس ما تزال في أكياس حسب توصية بعض السيدات .

انسحقت ثمرات زعرور تحت قدمي ، وداست خالتي سهواً على نبات أذن القاضي . ألسنة من عسل عادي وعسل مسحور تزحف على الأرض في كل مكان . كان صوت بَدْرية يرتجف من تحت القدر وهي ما تزال تحمي رأسها تردد : «قل أعوذ برب الفلق» ، فترتدّ نبرتها من تحت قدر النحاس على شكل تنورة كأنها ناقوس جرس : «قلق . . . قلق . . . قلق» .

سعد والأستاذ شرعا في سحب أم مازن بواسطة عباءتها . بدت وهي مغمى عليها مثل كيس ملاكمة ينزلق على ظهره تنبع من طرفه قدمان سمينتان أصابعها مائلة إلى زرقة . أما بَدْرية فقد أزحناها بصعوبة من تحت ملجئها . بعد ذلك أودعنا الخادمة على فراشي وأجلسنا أم مازن على المقعد في صالة الجلوس . غسلنا وجهها بماء بارد ، وفتحت خالتي عطراً تحت أنفها لتوقظها . عندما فتحت عينيها ، وقع نظرها أولاً على اللوحة الزيتية أمامها . كل شيء فيها مائل إلى أسود يختلط ببنفسجي

محمرّ . ينط من الأسفل هيكلان وجمجمتان ؛ تتراءى من خلال فتحات العيون خلفية غامقة . لا توجد فتحة للفم لكن ثمّة الكثير من الأسلاك الشائكة التي تتهدّل كشعر لهما . الأسلاك تهبط على جانبي الجمجمتين . حاولتُ أن أقتحم تخيلات أم مازن . ربما تراهما امرأتين تحاولان تسريح شعرهما السِلكي . الأولى تقول للثانية بدلَع ، وهي تنفث طحين عظم : «جَمجومة حبيبتي ، أريد جديلة اليوم .» ابيضّت عينا أم مازن في حضرة اللوحة ، وانزلقت في إغماءة أخرى وهي تدمدم : «إجاك الموت ؛ يا تارك الصلاة .»

في اليوم التالي طلبت أم مازن من خالتي مفتاح شقة الهام الفارغة ، إذ أن الشقة لم يطالب بها أحد حتى الآن فقد اقترحت أن تسكن فيها مع خادمتها لحين ترتيب أمرها . كانت حاجيات إلهام كما هي ، كل شيء في مكانه . طقم تمريض قطني معلق في الدولاب ، وحذاء أبيض مطاطي تحت السرير ، وسماعة أطباء معلقة خلف الباب . لم يتم تهوية شقتها منذ رحيلها ؛ رائحة دخان سكائرها ما تزال عالقة في الستائر . كان شعوراً غريباً أن تنتقل أم مازن إلى هنا . أصبحت تعاني من خلل في ضغط دمها ، وبالكاد تحركت من مكانها لمدة أسبوعين .

فقد النخيل رؤوسه . أصبح البستان عبارة عن مساحة من جذوع منتصبة بلا سعف يعلوها . كانت خالتي ترقب الأعمدة الصماء . لم تعد تترك موقعها عند شباك غرفتي ؛ تضيق عينيها كأنها تركز بغضب على فكرة ملحّة . تلعن أبو غايب لأنه لم يترك لها رقماً للاتصال به . لم تتمكن من الالتحاق بزوجها . قانون السفر يمنع المرأة من السفر بلا محرَم . تحتاج إلى أب أو أخ أو خال لمرافقتها ومن أين ستخلق لنفسها

أقارب لهذا الغرض؟ جلسَت بجانب الهاتف عسى أن يتصل هو ، لكن الجهاز لم يرن لعدة أيام . عندما يئسَت قررت أن تقضي الليلة في الطابق الثاني لرعاية أم مازن التي أخذت حالتها تتدهور . كانت تراقب لها ضغطها ودرجة حرارتها باستخدام أجهزة إلهام .

أنا وخالتي لن نفتقد بعضنا هذه الليلة .

نزلتُ إلى الطابق الأرضي لأقضي بعض الوقت مع سعد . كان قد عاد من زيارة أصحاب البستان لمواساتهم على إفلاسهم المتوقع . إنّه يُحسن المجاملة ؛ اشترى منهم قارورة من عرق التمر للتجريب .

كان مغيباً ثقيلاً . تجددت المخاوف من قصف المدينة . عادةً ما تهدأ الحركة بين الناس عندما يتخبط الجميع بأسئلة عن شكل الغد . سعد شغّل شريط موسيقى صينية هادئة ؛ كانت نبرة المغنية مثل مواء قطة :

– استقرت أم مازن؟

– ليس بعد . ضغطها يمنعها من الحركة .

– ربما تحتاج إلى خلطة خاصة!

– بَدْرية أصبحت مسؤولة عن متابعة أعمالها المجمَدة ، تقضي بعض ساعات في الطابق الخامس محاولةً تنظيف المكان ، ثم تعود إلى الطابق الثاني للعناية بسيدتها .

– وخالتكِ .

– تقضي معظم وقتها بقرب الهاتف تلهي نفسها بالخياطة ، ثم تلتحق بأم مازن .

– خالتك وفية لزوجها ؛ في حالة انتظار دائم .

– هل تحبه إلى هذه الدرجة يا سعد؟

- ربما تكرهه .
- كيف؟ ماذا عن سنوات العِشرة معه؟
- هذه الحالة تبني نفسها مع مرور الوقت ، تُسمى علاقة «أحبك لأنني أكرهك ، وأكرهك لأنني أحبك» .
تمشي من أمامي :
- وهي تنطبق على الطرفين بالطبع .
بعد مهلة تفكير يضيف :
- أما انها تكرهه ، أو تعتقد أن الأوان قد فات لتغييره .
- ولماذا تريد تغييره؟
- هل سمعت في حياتك عن امرأة لا ترغب أن تغير زوجها؟!
يقف أمام المرآة ليقص خصلة شعر أبَت أن تصطف مع بقية غرته :
- ماذا عن الأستاذ؟
- تبرع أن يشرف على تصليح الزجاج في شقة أم مازن .
- أهل العمارة أصبحوا مثل الدولار ؛ صاعدين نازلين!
بعد قليل تنهّد :
- ماذا سأفعل؟ النساء لا يزرن الكوافيير في ظروف كهذه .
- هل ترغب بمساعدتي في المنحَل إلى أن يعود زوج خالتي ، وعسى أن ترجع الحركة طبيعية حينها؟
انكمش وجهه للاقتراح :
- أُوْي! بالطبع لا . شكراً على أي حال . نحل؟ أنا؟ مستحيل .
هبط علينا صوت من المدخل :
- ما هو المستحيل؟
ركض سعد لاستقباله ، بينما يتعانقان رحتُ أقارن عادل بكل الطلبة في صفي . استدار نحوي :

- الحمد لله على سلامتكم .
- الله يسلمك .
- كانت دلال تقترح أن أقضي معها بعض الوقت بين النحل . تخيل!
- لمَ لا ، قد تفيدك لدغة أو اثنتان .
جلسنا على شكل مثلث يترأسه سعد على الأريكة ؛ وأنا وعادل على الكراسي الدوّارة . سحبناها إلى طرفي الطاولة التي تتوسطنا . قال عادل :
- تم تفقد القذيفة . فيها خلل لذلك لم تنفجر على الجرف .
- wow! هل يعقل أن تكون قذيفة فاشلة مثل ألعاب الأطفال النارية التي لا تنفجر أحياناً؟!
- قل لحسن الحظ على ذلك .
- بصراحة ، بدأت أكتئب من الخراب الذي يحيطنا .
- أحياناً ، يجب أن نشهد الخراب لكي نركز على بناء أنفسنا يا سعد .
رفع سعد يده بتذمر :
- من أين تأتيني بهذه الفلسفات المضحكة؟!
تأنى عادل قليلاً قبل أن يجيبه :
- من الدودة التي تزحف على ظهر الأريكة خلفك . لا تتحرك .
جمد سعد في مكانه ، تشنج رأسه ، راح يصيح :
- لا ، لا ، أرجوكم خلصوني .
انفجرنا ضاحكين وسعد يعاني بكل جدّية :
- ماذا تنتظران؟
تركه عادل تحت التعذيب :

- وماذا تعطيني؟
صرخ فيه :
- عادل أسرِع وأبعِد الوحش من خلفي .
- ليس قبل أن تقول لي ماذا أستحق .
- قارورة عرق .
- وماذا عن دلال؟
بدأ يرتجف فقد شعر أن شيئاً أخضر مشعراً أخذ بالاقتراب منه :
- يا إلهي ، يا دلال تصرفي .
قمت عن الكرسي فاعترضتني يد عادل :
- ولماذا العجلة ، ماذا قلت يا سعد ، ما هي هدية دلال؟
- علبة KIT KAT .
- من أين؟
- اشتريتها أمس .
- كيف تشتري حلوى في هذه الظروف؟
- لم أشترِها يا أخي . اشتهيتها فقمت بتبادل صغير .
- لقاء ماذا؟
- هل ستحقق معي؟
- وسأستمتع بذلك .
- لا أستطيع الحراك .
- والحشرة قريبة جداً من رقبتك .
كادت عيناه تقفزان من محجريهما :
- كفى!
- بماذا بادلتها يا سعد؟
- برولات شعر كهربائية .

غرته تصلبت على جبينه :

- دلال أنقذيني!

لم نخلصه من دودة القز إلا بعد أن أقسم لنا أن الحلوى مستوردة ، وليست من بضاعة الكويت المسروقة والتي كانت تُدعى بغنائم حرب . مثل الكثيرين ، كنا قد قطعنا على أنفسنا عهداً ألا نمد يدنا على بضاعة الأزمة .

صاح سعد :

- على كل حال ، مرت سنوات عديدة على تلك الحرب . أية حلوى ستبقى طازجة طوال هذه المدة؟!

بعد ذلك وضع عادل القارورة على الطاولة : ثلاثة أقداح عرق تتحول من سائل شفاف إلى حليبي كثيف . رحنا نغمس فيه أصابع لذيذة من KIT KAT . نطفئ مرارة الكحول بالحلوى ثم نطفئ الحلوى بالكحول وهكذا ؛ لا نعلم بماذا كنا نحتفل .

اقتسمنا الليلة بيننا حتى بدأت الأشياء من حولي ترقص . قام سعد وغيّر الشريط إلى أغان عربية . فجأة نزع قميصه ، تناول قلم كحل عريض وبدأ يرسم خطوطاً مائلة على بطنه مدّعياً أنها أوتار جيتار . أخذ جرعة عرق إضافية ، وراح يدغدغ بطنه بطريقة مسرحية ويضحك بوهم أنه يعزف ، ثم شرع يغني «يَم عيون حرّاقة . . . قولي شوكت نتلاقى» .

بعد قليل جاء بوشاح أسود وراح يرقص حولي . غطى وجهي بالوشاح ما عدا عينيّ ، ووسطه لا يتوقف عن الاهتزاز مع الإيقاع . قال لعادل :

- أما تزال تخاف من المرأة الجميلة؟

شعرت بالأمان خلف الوشاح . أجابه عادل منشغلاً بقدحه :

- المرأة الجميلة لها رائحة خطر . لا أحب أن ترمى لي قطعة كعكة بالكريما فأنزلق ؛ قد تكون مكيدة .

وصلت إليّ موجات صوته عبر الطاولة لكن عادل كان لا ينظر باتجاهنا . استأنف سعد :

- مع العلم بأنك تدّعي يا صديقي أنك عاشرت ألف امرأة ؛ وما تزال تتردد!

- وقد زوجتُ ثلاثين صديقاً من معارفي .

- خبرتك وأنت صاح غيرها وأنت سكران .

- أحياناً العطاء يبرر التنقل بين النساء .

بدأت بالاستمتاع بجلسة من أحاديث رجال ، مللت تجمعات النساء ومشاكلهن . قال عادل :

- اهدأ يا سعد ، أنت تزعج دلال بكثرة رقصك .

راح سعد يضحك عالياً :

- الحركة بركة أليس كذلك؟

عادل يتفرج مبتسماً بينما سعد يسترسل :

- يجب أن نتحرك . التحرك مهم . في الحركة انقاذ والتوقف يعني الموت .

أضاف :

- الناس يجب أن يتحركوا ، والاقتصاد يجب أن يتحرك ، وأسلحتنا يجب أن تتحرك .

سأله عادل :

- بماذا تخرّف يا سعد؟

- ألم تشاهدوا في التلفزيون اليوم نشاط فرق البحث عن أسلحة الدمار الشامل؟ لقد غيروا اسمهم هذه المرة إلى UNMOVIC . أرأيتم كيف

يمشطون المناطق بأجهزتهم؟

قال عادل :

- أهدأ يا سعد .

لم يعره اهتماماً وراح يقول :

- نموت جوعاً ، من أين لنا القابلية على صنع أسلحة بكلف خيالية؟

عادل يتحرك من مكانه :

- قلت لك أن تهدأ يا سعد .

- ها ها ، ألا يعرف الغرب ان المسؤولين عن إخفاء الاسلحة المزعومة يشاهدون الكثير من أفلام كارتون «BEEP BEEP» .

ناوله عادل منفظة سكائر :

- لنغير الموضوع .

سألني :

- هل يضايقكِ؟

- أبداً .

أخرج سعد لسانه له :

- أرأيت .

سحب نفساً من سيكارته . أصبحت الغرفة مفعمة بالدخان :

- أما أنا فالمرأة الذكية تخيفني أكثر من المرأة الجميلة .

دخلتُ على الخط :

- المرأة الذكية؟

ابتسم سعد بخبث ثم قال :

- تلك التي تتغلب على حيائها .

أخذ قلم الكحل وتوجه نحو عادل . قال له :

- أرجع رأسك إلى وراء .

نفّذ عادل طلبه فراح سعد يرسم له وشماً على وجهه . عندما انتهى وقف جانباً فإذا به قد رسم له عيناً استقرت ما بين حاجبيه . لم يتحرك عادل من مكانه وبدأ يبتسم . سألته :

- ألا تريد أن تعرف ماذا رسم لك؟

- عيناً أضافية أليس كذلك؟

- نعم ، كيف عرفت؟

- هذه لعبته المفضلة .

استدرت نحو سعد الذي يشرب العرق كأنه يأخذ جرعات من ماء :

- فسّر لي إذن .

- لا حاجة للتفسير . كل الذي قمت به هو عملية تغميق بالكحل لشيء موجود أصلاً .

قال له عادل :

- الكحول بدأت تتسرب إلى عقلك .

رفع سعد كأسه محيياً :

- لنشرب نخب عينك الثالثة .

تجشأ سعد بأعلى صوته ثم أخذ يتكلم بكل جدّية . قال :

- هذا الرجل علمني أن النظر الحقيقي يتم من خلال هذه العين وليس من خلال الغيون العادية التي نعرفها . إنها مركز الشعور الخفي بالبشر . منها نحس ومنها تنبع الغريزة ومن خلالها تتعارف أرواحنا .

قال له عادل كأنه يصحح له :

- هو نوع من إبصار وليس نظراً .

قلت لهما :

- حتى أنت ياعادل؟

راحا يحدقان فيّ :

- ما بال أهل العمارة! كلٌ يعتقد أنه متفوق على غيره بالقابلية على فهم الحياة على طريقته ؛ أو من خلال عينه على حد قولكما! أم مازن تدّعي أنها ترى في الفنجان ما لا يراه الآخرون وعليه تقرأ المستقبل . العم سامي يعتقد أنه كان يرى الحقيقة من خلال كاميرته فقط ، وبعد فقدانه بصره صار يرى ما لم يره طوال عمره . والآن أنت تقول لي إنك تملك عيناً ثالثة خفية ؛ لا ترى لكنها تشعر! هل جنّ الجميع؟!

جرني سعد من يدي ليحل محلي في الكرسي الدوّار . شرع يدفع الأرض بقدمه ليدور حول نفسه . أخذ يدور ويدور ، فجأة انقطع البث من جانبه .

قام عادل ليتأكد من سلامته . رفعه عن الكرسي وجره حتى الأريكة ليرميه عليها قائلاً :

- ستنام نوماً هنيئاً .

راقبته يقود سعد إلى الأريكة . قلت :

- لقد أغمي عليه .

- سيرتاح ، لقد أتعبته أفكاره .

أخذ جسمي يترنح :

- عادل ، أشعر كأنني بلوزة صوفية أُخرجت تواً من غسالة الملابس الساخنة .

انفجر يضحك وانحنى أمامي قليلاً فإذا بي في اللحظة التالية أرتفع في الهواء :

- ما تزالون صغاراً على الشرب .

- ماذا تقول! أنا سأتخرج قريباً من الجامعة .

- نعم ، وسأجلب لك هدية .

- علبة KIT KAT أخرى!

ضمني إلى صدره وتوجه إلى غرفة النوم .

حيز مظلم إلا من شعاع ضئيل ينفذ من فتحة في الستارة آتياً من ضوء الشارع الخلفي ليضيء النجوم المعلقة على الجدار الأسود . مدّدتني ذراعان غريبتان على السرير . امتدَّت يده لترفع الوشاح عني . استوقفته :

- لا شيء جذاب تحت هذا .

رائحة نفسه مثل تمر مخمر :

- سبق أن جذبني .

- لا تجاملني .

- خذي عيني وشوفي بها .

- أي عين؟

راح يضحك ويمسح عين الكحل بين حاجبيه :

- دون الإضافات .

- أتمنى أن أبقى هكذا ؛ موديلاً لأعرابية مدى الحياة .

- لا تخجلي مني .

أشرت إلى فمي :

- لكنه منحرف .

- لا تقولي ذلك ، فكري ان فمك تداعبه الريح ، وستشعرين بالفرق .

بدأ يسحب الوشاح رويداً :

- سأشعل شمعة ، هل تسمحين بذلك؟

- لا تحرجني رجاء .

- ثقي بي .

ازداد شعوري بالخدر وهو يضيئها ، ثم قال لي :

- انظري .

نظرت في مرآة صغيرة قربها من وجهي وأنا ما أزال ممددة على ظهري :

- احلمي أن شفتيك على وشك التحليق .

كان صوته يصب في أذني مثل زيت زيتون مضبب :

- والآن ، أعطني قدميك .

راح يدلّكهما بيد خبير . أصابعه تطوع أسفل قدمي . لا أعلم كم من الوقت مضى ، كان صوته يطلب مني :

- ركزي على نجوم الفضة ؛ أنت مثلها ، تحتاجين إلى فرك حتى اللمعان .

ذابت الغرفة من حولي ؛ وتركتُ الباقي للشمعة .

عندما استيقظت وجدت سعد بجانبي يتأملني :

- صباح الورد .

تلاشى كل من الظلمة وعادل :

- ماذا حدث؟

- لا أعلم ، أنت قولي لي .

- تركناكَ على الأريكة .

- ثم ماذا؟

- أودعني عادل في فراشك .

- واضح .

- أين الوشاح؟

- بجانبكِ . يبدو أنه الشيء الوحيد الذي نزعتهِ .

- اخرس ، لا أتذكر ما حدث .

- مع الأسف .

أخذ يلم بقايا الشمع الجامد على الطاولة :

- المهم ، مر عادل قبل ساعة للاطمئنان .

- سأل عني؟

- نعم ، وطلب مني مثبتات للألوان فأعطيته حاوية مثبّت شعر ليجرّبه عسى أن يثبت الصبغ على خشب الأطراف .

شعرت بطعم الرذاذ في فمي :

- هل اتصلت خالتي؟

- لا .

عدلت شعري ، قال :

- أفطري معي .

- شكراً سعّودي . سأذهب .

حملت رأسي على أكتافي بصعوبة ، وتوجهت إلى الطابق الثالث .

لم يرجع زوج خالتي بعد ، لكنني وجدت بعض آثاره في خزانة الأزرار . كانت خالتي قد أضافت علبتين جديدتين . واحدة كبيرة تحوي نحلاً محنّطاً وعليها لصقة «زوجي١» ، وأخرى أصغر منها تحوي رقائق فضية وعليها لصقة «زوجي٢» . عندما فتحتها صدمت . كانت عبارة عن حفنة من قشور صدفية .

ارتميتُ على مقعدها في غرفة الجلوس . ما زالت هي في الطابق الثاني . فتحت حقيبتي فهبّت منها نفخة من روائح ليلة أمس . أخرجت جدول محاضراتي وأنا أحاول التركيز رغم الألم الفظيع في رأسي . يجب أن أدرس نصاً لـ PROUST ؛ سيشرح لنا الأستاذ الرابط بين الذكرى وطعم

كعكة MADELAINE . أعدت الملاحظة إلى مكانها ، وتوجهت إلى شقة إلهام عسى أن أجد مهدّئاً في صيدليتها الخاصة في الحمام أو ربما في حوزة أم مازن .

قلت للخادمة :

- كيف الحال يا بِدُور؟

صاحت أم مازن من الداخل :

- تقصدين أم الجدور .

خفضت بَدْرية بصرها ، وذهبت تغلق الباب ثم تبعتني .

دخلنا الغرفة فإذا بالأرضية مغطاة بعشرات الأنواع من الأعشاب المتناثرة في كل مكان على شرشف من نايلون . كانت خالتي جالسة على كرسي تحوك ، وأم مازن ممددة على فرشة على الأرض وخلف ظهرها عدد من وسادات منتفخة .

- صباح الخير . تبدين بصحة أحسن أم مازن .

- مخطِئة . عصبيتي هي التي تصحيني .

- ماذا حدث؟

- تقصدين فوق الذي حدث!

تبادلتُ النظرات مع خالتي التي لم تسعفني . نادت أم مازن على بَدْرية أن تجلس بجانبها :

- نعيد من جديد ، هذا الجانب من الأعشاب لعلاج السحر المائي ، وذاك الجانب لعلاج السحر الهوائي . مفهوم؟

أجابت الخادمة بصوت مرتبك :

- مفهوم حجية .

- والآن ناوليني حب القرع .

- تفضلي .

- كلا ، هذه زكزوكة العصفور ، ألم أعلمك الفرق بينهما أمس؟

جلستُ أتفرج :

- وماذا نفعل بألياف المركدوش يا بَدْرية؟

- نعالج بها حالات القصور الهضمي .

- لا . نعالج بها عدم الشهية ، ماذا عن عشب الكرّاث؟

- هذا لفقر الدم .

- لا ، لحالات الوهن . خذي هذا ، انت تعرفينه .

- انه تفاح مشويٍ مجفف نستخدمه في خلطة بلادة الذهن .

- إذن كلي كثيراً منه قبل أن أمرض اكثر بسببك .

كانت خالتي تحاول إخفاء كركرة ، وراحت المرأتان تعيدان جمع الأعشاب بعد الحادث لإعادة توزيعها في أكياس نايلون لتتمكن أم مازن من استئناف عملها في المستقبل القريب . رفعَت مادة كلسية أمام خادمتها :

- هل تتذكرين كيف تُستخدم عناقيد عين القط؟

بَدْرية البلهاء تحك رأسها . توقفت فجأة وكأنها شعرت إن حركة أصابعها تزعجها لتحثها على التفكير ، فقالت :

- للصداع النصفي .

شدت أم مازن على فوطة مساعدتها وقد بدا الانفعال واضحاً عليها :

- التكرار يعلّم الحمار . هذا لليبوسات الجلدية على شكل مسامير . ماذا كنت تفعلين معي طوال السنوات؟

راحت تبكي :

- يا باجي ، أنا كنت أفرق بين كل هذه المواد من أشكال أوعيتها ، ولكن بعد أن تكسرت كل الأوعية والحاويات والقناني صار يصعب عليّ التمييز بين عشب وآخر ومسحوق وآخر .

ضربت أم مازن كفاً منتفخة على أخرى وهي تنظر إلينا كأنها تستنجد بنا :

- خل نفسك بعز دوم بالك تذلها . . . لا تطلب الحاجات إلا من أهلها .

بعد قليل قالت :

- قومي اعملي قهوة لدلال .

تعدلتُ في جلستي :

- لا أرغب بقهوة . عندكم شيء لوجع الرأس؟

أشارت أم مازن إلى مادة صلصالية في كأس صغير . طلبَت من خادمتها أن تغليه خمس دقائق وتضيف إليه العسل لتسقيني إيّاه . وافقتُ على شرط أن أشرف على العملية بنفسي في المطبخ . لاحظت اضطرابها :

- ما بكِ؟

- خائفة .

- من امتحان الأعشاب؟

- لا يا ست دلال . اسوأ .

وقفت بَدْرية على صندوق حديد عليه لصقة « إحذر : مادة النشأ غير قابلة للاشتعال» . تناولَت دلّة قهوة من الدولاب العالي . سألتها :

- خائفة من القصف؟

- أسوأ ، أسوأ .

- ماذا؟

بعد أن أضافت ملعقتين من العسل إلى الخليط قدمت لي الفنجان بيدين مرتبكتين قائلة :

- عندما كانت أم مازن مريضة هذا الأسبوع قمت ببيع خلطات

كثيرة للنساء دون علمها . قلت لنفسي سأُفرحها بالمال عندما تعود صحتها . لكن الآن اكتشفت أنني أخطأت في انواع المواد التي استعملتها .

- كيف تجرؤين على ذلك؟

ضربَت المسكينة على خدها :

- الله يستر من لعنتها .

تناولتُ السائل الحار ورحت أرقبها :

- يا ربي ماذا فعلت؟ لقد بعت خلطة علاج فقدان الذاكرة للشابة التي تعاني من التهاب لوزتين ، وأعطيت مسحوق علاج الكرب لسيدة يعاني ابنها من حب الشباب .

رفعَت علبة بلاستيكية تحوي مادة قد تعفنت . كانت محتويات العلبة تختنق بسبب الغاز المنحصر الذي ولّده العفن . عندما همت بَدْرية إلى فتح العلبة أصدر رفع الغطاء المطاطي صوتاً مبحوحاً «هفْ» ، وانكمش وجهها لرائحة غاز العفن الباعث على الغثيان وهي تقول :

- فشلت خلطة أخرى .

استأنفت وهي تتخلص منها :

- كما أعطيت صاحبة الامساك المستعصي دواء للبحة ، وصاحبة الأرق حُظيت بسحلب مخصص للبواسير .

راحت تضرب على خدها ثانية . سألتها :

- كل هذا في ظرف أسبوع؟!

- أسوأ ، أسوأ . أخذت السيدة المصابة بالربو خافضاً للحرارة ممزوجاً بحصى مفتت يفك الحجاب عن المسحور بلعنة تعثر الرزق .

راحت أم مازن تنادي :

- أين انتِ؟ هيا لنكمل ما علينا .

أخذت الخادمة يدي وهي تكاد تقبلها :

- أرجوك ، لا تقولي لها شيئاً .

- أعدك .

عادت إلى الدرس ، وضربت خدها مرة أخيرة قبل أن تدخل الغرفة . رفعت أم مازن أمامها حفنة يابسة :

- نرجع للصفر . هذا بابونج الجبل . يُحظر تحضيره في أوعية حديد لأنه يتفاعلِ معها مثلما يتفاعل الحامض مع النحاس وينتج في الحالتين عنصراً ساماً .

نظرت إليّ بَدْرية بعينين ذابلتين . بينما استمرت سيدتها :

- وللمرة المليون ، هذه الحشيشة المقدسة مُجففِة لرطوبات الصدر .

حدّقت أم مازن في بَدْرية :

- مفهوم؟

ابتلعت ريقها :

- مفحوم . إحِمْ . مفهوم يا حجية .

كان منظرهما يشبه أحد دروس محو الأمية التي كان يبثّها التلفزيون في السبعينات . «راشد يزرع . زينب تعمل» .

اشتقت لإلهام .

الفصل الرابع عشر

بعد أربعة أيام عاد أبو غايب من البحر الميت لتباشر خالتي بتنفيذ خطة : «زوجي٣» . يبدو أنها ستعتمد على نفسها هذه المرة بما أن أم مازن مريضة . العلبة عبارة عن مجموعة دبابيس صدئة . لقد اكتسبت بشرته سحنة حنطية من جراء تعرضه للشمس والماء المالح . راح يرينا كيف اختفت بعض البقع هنا وهناك ، لكنه أكد أن التخلص من الصدفية لن يتم إلا بعدّة زيارات علاجية . انتبهَت أنه سأل عن النحل قبل أن يسأل عنها ، وعندما اكتشفت خالتي أنه لم يأت لها بهدية شرعت بالتنفيذ .

نثرت الدبابيس حول الأريكة لعلمها أنه ينتزع حذاءيه ويتمشى في هذه المنطقة عادة . علقت واحدة بجوربه دون أن تخزه فاندلعت بينهما :

- مصرّة أنت على ايذائي؟
- لم تتذكرني حتى!
- هل تلومينني؟

وضع الدبوس على الطاولة :

- اشرحي لي معنى كل هذا .

- كلا لن أشرح .
- لمَ لا .
- لأنني سأبدو صغيرة .
- تأكدي أنك بدأت تتقنين فن التضاؤل في هذه الحالة .
راح يبحث عن المزيد من الدبابيس :
- تكرهيني إلى هذا الحد؟
- أكرهها هي .
- غيرتك ليس لها مبرر .
- اخذَتك مني عشرة أيام ، عدا عن عذاب فترة المعرض .
- لم يأخذني أحد منك فلا تدفعيني إلى ذلك .
- كدنا نموت وأنت غير موجود .
- لا أعتقد . تحريت والجميع بخير .
- أم مازن أصيبت وشقتها تضررت .
- لا تخافي عليها ، ستنجو ؛ القطة لها سبع أرواح .
راحت تفكر ملياً :
- لقد تغيرتَ كثيراً منذ أن تعرفت على تلك العَمّانية .
- والآن تريدين إصلاحي؟
- أريد أن تعود كما كنتَ .
- الشيء الوحيد الذي تغير فيّ هو صدفيتي .
انهارت خالتي ببكائها :
- أعترفُ أنني عشت مرحلة غيرة قاتلة . ربما لم أكن أغار منها بالذات ، لكنني أغار من الناس والأسباب التي دفعتك لأن تكون الإنسان الذي أنت عليه الآن .
- سيء أنا إلى هذه الدرجة؟

- بالعكس ، أنت أصبحت شخصاً آخر . لقد تطورت في عملك ، وحاربت الظروف ، وصرت متفائلاً دائماً ، وفوق كل ذلك عندك القدرة على التنقل دون معوقات . أنت تمثل لي ما لا أستطيع أنا أن أحققه .

رفع دبوساً آخر عن الأرض ووضعه بجانب الثاني :

- تحويلة رائعة .

حاولت خالتي أن تتماسك :

- أصبحت أتساءل لماذا لم أكن أنا الدافع في تقدمك هذا؟!

وضع يديه خلف رأسه ، وحاول أن يسترخي وهو يرقبها تتحدث :

- إن كانت رحلة إلى الاردن ستحل قلقكِ فسآخذك معي المرة القادمة .

لم تصدقه ، ولم تصدق نفسها أنها انزلقت في مأزق ؛ إن كانت تغار عليه أم منه . قال لها :

- هل لديك اعترافات أخرى؟

راحت تمسح دموعها دون أن تعرف كيف تجيبه :

- ماذا وضعتِ لي في السرير مثلاً؟

اكتأبَت ؛ وخالتي عندما تكتئب تنكمش كتافياتها .

أخذتُ كيساً مليئاً بمواد تجميل كان سعد قد طلب من أبي غايب أن يشتريها له من الأردن . فتحتُ الباب ، كان عادل ينتظر :

- مرحبا .

- كيف حالكَ؟

- بخير . أين سعد؟

- يأتي بالخبز الطازج .

- سهرة أخرى يا إخوان؟

- إن كنتِ ترغبين في ذلك؟

وضعت الكَيس على الطاولة :

- عادل ، ماذا حدث تلك الليلة؟

- ارتحتِ .

- وأنتَ؟

- ارتحتُ أيضاً .

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنني ارتحت لأنك ارتحتِ .

بدأت بإخراج محتويات الكيس ، نظرت إليه طلباً بالمزيد :

- أي إنني أحب أن أرى غيري في حالة راحة تامة .

- فقط؟

- فقط ، لا غير .

راح يرقبني وأنا أضع العلب على الرف :

- على كل حال ، كان ذلك العرق للمبتدئين .

- ليست هذه أول مرة أتذوق فيها هذا المشروب!

- قصدت المبتدئ الذي قام بتصنيعه .

- نعم ، كان مُراً نوعاً ما .

قلت بعد قليل :

- عادل ، ماذا كنت تفعل بأقدامي؟

ضحك صوته :

- كنتُ أتأكد من سلامة بنيتكِ التحتية .

شعر بتوتري :

- على فكرة يا دلال ، أنا لا أحب ما يعطى لي ، بل ما آخذه . لا

يوجد ما يدعو للقلق .

- المشكلة هي أنني لا اتذكر ما حدث بعدها .

- ما حدث هو انني حولت امرأة من خشبة إلى عجين .

- كيف تفعل ذلك؟

- سر المهنة .

شعرت مثل قطة تدور حول نفسها تريد الإمساك بذيلها :

- قل لي ، أرجوك ، كيف؟

- بأن أعطيها حقها .

- إذن صحيح ما قاله سعد بأنك عاشرت ألف امرأة؟

- كلام الليل يمحوه النهار .

- الساعة الآن التاسعة مساء .

خفت ، رغم ابتسامته ، أن ينفر من أسئلتي :

- وكيف يبرر العطاء التنقل بين النساء؟

- أراكِ تتذكرين مقاطع كثيرة من تلك الليلة .

قام عن الأريكة وطلب مني أن أجلس بجانبه :

- تخيلي الوجود معي مثل لعبتك المفضلة من أيام طفولتك . أتذكرين كيف كنتِ تلعبين بها كل يوم ومع ذلك لا تملين منها؟ إن اللعبة لم تتغير ، لكن تخيلاتك أثناء اللعب تتغير من يوم إلى آخر . هذا هو الإبداع .

فكرت ، لماذا لم تفعل MADAME BOVARY ذلك مع زوجها؟!

دخل سعد والخبز يتدلّى من كتفه كالمعتاد . قال بلهفة :

- هل سمعتم؟

استدرت نحوه بينما قال عادل :

- ماذا؟

- أم مازن تحت المراقبة؟

سأله عادل :

- هل هي مريضة إلى هذا الحد؟

- ليس المراقبة الصحية .

تبادلتُ النظرات مع عادل . قال سعد :

- أقصد الأمنية .

قمت عن الأريكة :

- ماذا ، أنا وخالتي قمنا بالاطمئنان عليها اليوم ، كيف حدث ذلك؟

ناولني كيس الخبز :

- اكتشفتُ أن مركز الشرطة المجاور للمخبز مليء بإضبارات شكاو رُفعت عليها مؤخراً .

رفع عادل حاجبيه :

- من أين لك هذه الأخبار؟

- شاركتُ شرطي الخفر الذي يجلس عند البوابة رغيفاً ساخناً فأخبرني . قال إن نساء المنطقة يشكين من أنها تسببت في ايذائهن . لقد مرض بعضهن بسبب الخلطات وبعضهن الآخر مرض نفسياً . الضابط سيطلبها للاستجواب قريباً .

توجه سعد إلى الرف عندما رأى علب المواد الجديدة . راح يتفحصها :

- يا سلام ، هذا ما أحتاج إليه تماماً .

أخرج بضعة دولارات من جيبه وناولني إياها :

- مع الشكر الجزيل لأبي غايب .

سألت عادل :

- وماذا سيكون عقابها؟

- لا أعلم ، ربما ستُمنع من مزاولة مهنتها .
- وبَدْرية؟
- حالها حال سيدتها على الأغلب .

لم تكد أم مازن تسترجع بعض صحتها وأعشابها حتى أرسلوا في طلبها . توجه شرطيان إلى الطابق الخامس لتفتيش الشقة . حاولت بكل جهدها أن تقنعهما بأن الحجابات العجيبة الغريبة ما هي إلا طرق فنية حديثة لجدول الضرب الممزوج بالأبجدية بعد أن ادعت أم مازن أنها كانت منهمكة بتعليم خادمتها الأُمية مبادئ الرياضيات والقراءة . نصف المواد كانت ما تزال في شقة إلهام ولكن لم يذكر أحد شيئاً للشرطة ونحن نتفرج عليها تغادر معهم . نزلت السلالم وهي تنتحب ، تتبعها بَدْرية متعثرة بعباءتها . رغم انفعالها ظل فم أم مازن في وضع ضاحك . قرصت خادمتها من ذراعها بحقد :

- قضيتِ عليّ .

ثم قرصتها مرة أخرى :

- دمرتِ سمعة الطب الشعبي .

تأوّهت بَدْرية من ألم القرصة لكنها استسلمت ليد سيدتها :

- سامحيني أم مازن ، سامحيني .

وقفنا في مدخل العمارة نحاول التخفيف عنها . قال لها سعد :

- الله معك .

الأستاذ عبّر عن مشاعره :

- ديري بالك على نفسك .

خالتي ربتّت على كتفها :

- أختي أم مازن لا تقلقي . سأزورك وسأجلب لك ما تحتاجينه فيما بعد .

وردّدت المفجوعة :

- الله يخليكم ، الله يطول عمركم .

عندما جاء دوري وجدت نفسي أقول لها :

- أم مازن ، قوّي قلبكِ .

عدلت عباءتها :

- حسبي الله ونعم الوكيل .

هكذا ودعناها ما عدا أبو غايب الذي كان في النادي .

التحقتُ به . لم يبد تأثره بالخبر ، واستمر ينجز عملية فحص النحل . رفع فرشاة ناعمة وأخذ يبعد بها النحل بهدوء عن الاقراص . قال لي شبه هامسٍ :

- إن فحص النّحل ومعاملته سهل وغير خطر متى ما اتخذنا جميع الاحتياطات مع الإلمام بطبائعه وعاداته .

أخذ يتحرك ببطء شديد بين الأقراص العسلية :

- يجب تجنب الحركات السريعة .

أحضر حامل الاقراص المصنوع من حديد ، ثم ركّبه على جانب الصندوق لوضع القرص عليه بعد فحصه .

- النحل سريع الحساسية لأية رائحة غريبة خاصة رائحة الحيوانات ، لذا يجب أن تكون الملابس مخصصة للمنحَل فقط ونظيفة دائماً .

ثم طلب مني أن أبتعد قليلاً عن مكان عمله :

- يا دلال ، الملابس الصوفية والوبرية وكذلك الغامقة غير صالحة في

المنحَل ، حيث إنها تثير هياج النحل .

اتخذتُ عدة خطوات إلى وراء . وقف هو بجانب الخلية بحيث كانت اشعة الشمس آتية من الخلف لكي تسقط على العيون السداسية فتظهر محتوياتها واضحة ليسهل عليه تقدير عمر البيض واليرقات .

تفرجت عليه وهو يفكك الإطارات ويخرجها . رفع القرص فوق الطائفة خشية أن تكون الملكة على الإطار فتسقط خارج الخلية . عثر عليها وراح يفحص شكلها الخارجي ليتأكد من سلامة اعضائها ، ثم كتب في دفتر ملاحظاته أنها خالية من القمل وسنها مناسبة . قال مشيراً بإصبعه :

– انتبهي هنا ، هذا النحل الخامل مصاب بالاسهال .

ثم أضاف بابتسامة :

– مع الأسف ، لن تكون أم مازن موجودة لعلاجه .

– ألم تنزعج لما أصابها؟

– من ناحية تسويقية نعم .

– لكنهم قد يمنعونها من مزاولة مهنتها .

– عندئذ سأعرض عليها أن تعمل لديّ .

– انت تمزح .

– تدّعي أنها تحب النحل وتفهم في العسل ، لكنها لا تفقه شيئاً . يجب أن تتعلم أم مازن من هذه الحشرة فلسفة الحياة أولاً .

لم أسمع زوج خالتي يتكلم بهذه الطريقة من قبل :

– يا دلال ، لو كان بإمكاننا فقط ان نتعلم من النحل!

راح يتأكد إن كانت كمية العسل وحبوب اللقاح كافية للنحل خلال موسم الشتاء . استأنف :

– الجشع هو المشكلة الأساسية . انظري إلى النحلة كيف تتصرف

عندما تخرج لجمع الرحيق . هي تختبر نسبة السكر في الزهرة أولاً فتمتص منها ما يكفيها ولا تتجاوز حاجتها .

قلت له :

- وهل ستطلب من بَدْرية أن تسجل ملاحظات لأم مازن؟

ضحك :

- على فكرة ، في الأيام الباردة وعند سقوط الأمطار وانتهاء الموسم يكون النحل هائجاً ، فاحذري .

أخيراً ختم محاضرته :

- يجب ان نبدأ بتشتية الخلايا ؛ سنغطي الصناديق بالجنفاص ، ونحيط الخلايا من جوانبها بالقش .

بعد ساعتين تركتُ الساحة ، لا أستطيع أن أتخيل أم مازن وهي ترتدي بدلة واقية .

أما في الشقة فكانت خالتي ما تزال تعالج غيرتها . عندما تتذكر أن زوجها مُربي نحل تتحسس من عاطفته الأبوية تجاه الحشرات . تتخيل أن النحل يتوحم فيسارع أبو غايب بزراعة الزهر الذي يحبه . بالمقابل أعطيتها مختصراً عن وظيفة الشغالات في الأحوال الشاذة وهي وضع البيض بدلاً من الملكة لذا تُسّمى تلك الشغالات الأمهات الكاذبات . قلت لها :

- وهل تعلمين لماذا يحدث ذلك يا خالتي؟

شعرت أنها تجاملني :

- لماذا؟

- عندما تُفقد الملكة بسبب الموت او الافتراس ، تضطرب الخلية فتبدأ الشغالات بوضع بيض في الكؤوس الملكية بشكل عشوائي وغير منتظم .

ضيّقت عينيها كأنها تحاول أن توازن الحالة في رأسها . كانت تعمل بتركيب قطعة من شريط زينة مخرَّم على أحد المعاطف ، وترفع إنتاجها أمام عينيها ، ثم تتأمل فيه وتقول :

- أتعلمين يا دلال؟ إن الزواج مثل الدانتيل . . .

راحت تحاول قطع خيط التركيب بمقص صغير وهي تضيف :

- جميل ، متناسق ، فني ، عندما ترينه جديداً ، أبيض ناصعاً يصطف بكبرياء من بعيد على رف محل الأقمشة . . .

لم يكن المقص حاداً فقطعت الخيط بأسنانها دون أن تتوقف عن الحديث :

- لكن بعد أن تشتريه وتستخدميه لتجمّلي به ثيابك ؛ تتعودين على ملمسه بين أصابعك ، ثم تكتشفين الحقيقة . . .

نظرت إليها بتمعن :

- تجدين أنه زخرفة مملة لشريط من خيوط بيضاء سرعان ما تُستهلك وتأخذ حافاتها بالاصفرار .

كانت تتأكد بإصبعها ، بين فترة وأخرى ، من سلامة الشامة التي أضافتها على خدها بقلم الكحل ، وتدّعي أنها مصابة بالرشح كي لا تقوم زبوناتها بتقبيلها حتى لا تتلوث ، وتفتخر عندما يقُلن لها إنها تبدو أجمل اليوم . أتابع حركة شامتها وأقول لنفسي : «ألم يقل لي زوجها في أول درس للرسم ان كل شيء يبدأ بنقطة .» ثم سألتها :

- ما هي أخبار أم مازن؟

- تبكي وحدتها ؛ لقد نبذها الجميع .

- وبَدْرية؟

- يبدو أن عقلها لم يستوعب الصدمة . إنّها تغني في المخفر طوال النهار : «أريد زلابية وبقلاوة وشعر بنات . . . وين أولي وين أبات . . .

أبات بالدربونة ؛ تبكي عليّ البـــزّونة . . . أبات بالمحطة ؛ تبكي عليّ البطة» . تضرب خدها بين مقطع وآخر .

- متى تعودان للعمارة؟

- لا أعلَم . ما تزالان في الحجز بحجة السحر والشعوذة .

الفصل الخامس عشر

بعد قصف النخيل ، لم يعد النحل يتغذى على التمر بل على الفاكهة المتساقطة من أشجار الحمضيات ؛ بوجود تلك البدائل يؤكد أبو غايب أن نحله محظوظ . أما عمارة فاطمة خاتون التي كانت على مبعدة عدة شوارع من عمارتنا فلم تنل الحظ نفسه ؛ فالقذيفة الثانية سقطت عليها وانفجرت فيها . حدث ذلك بعد شهرين من القذيفة الأولى ، فقامت الدنيا وقعدت في منطقة الكرادة داخل .

كان حمادة مراسلنا يتنقل بالجرائد وأخبار الساعة ما بين الشوارع والأنقاض . اهتزت عمارتنا بفعل الانفجار . نساء ، أطفال ، رجال ؛ اختنقوا ، احترقوا ، تمزقوا تحت البناية المهدمة . سمعنا أن عشرات العوائل راحت ضحية الحادث . فرق الإنقاذ تكاتفت مع الأهالي لإخراج الموتى الذين نزلت أسماؤهم في لائحة الشهداء . لم يغمض لنا جفن لعدة أيام .

في الليلة الثانية ، وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، سمعتُ أصوات رجال تتداخل مع أصوات طرق ودق وقرقعة . نهضت من فراشي

أحاول أن أتبين ما يجري من شباك غرفتي . رأيت تجمعاً لخيالات بعيدة تتحرك بسرعة دون إضاءة عند ساحات النادي . شيء ما كان يجري في الظلمة .

في اليوم التالي ، رافقتُ أبو غايب إلى العمل . فوجئنا أن شكل الساحة رقم ٢ قد تغير . لقد تم تغليف أسيجة الساحة بقماش خاكي يشبه قماش الخيام . كما تم تغطية أعلى الساحة المستطيلة بحيث أصبحت تشبه غرفة من قماش سميك . كان يجلس جندي شاب عند بوابتها . لافتة معلقة من الخارج على الجانب الأمامي للغرفة الخاكية كتب عليها بخط واضح «ممنوع الاقتراب» ، فابتعدنا .

توجهنا إلى المنحَل وزوج خالتي ينصحني بأن أتصرف كأن شيئاً لم يكن . اجتزنا رقعة من حشيش استقر عليها ندى الصباح فبدا مثل زغب من زمرد . حاول جاهداً أن يركز على شرح مادة البروبوليس :

- هي مواد صمغية يجمعها النحل من قلف الأشجار لكي يستعملها في تضييق مداخل الخلايا في فصل الشتاء .

ثم أضاف بشيء من شرود :

- هذه الكلمة مكونة من جزأين مشتقين من اللغة اليونانية . برو ؛ وتعني بادئ . . .

فجأة تحرك الجندي من مكانه فتابعه أبو غايب بنظراته . شددتُ على بدلته ليرجع تركيزه معي :

- وبوليس ؛ يا زوج خالتي؟

قال :

- تعني مدينة .

ثم تدارك :

- وعندما نجمعهما معاً يصبح معنى كلمة البروبوليس «بادئ

المدينة» ؛ ويشير ذلك إلى مادة البناء الأولية لدى النحل .

قام بالتدخين قليلاً عند باب إحدى الخلايا لينصرف النحل لعمل آخر غير الدفاع عنها . سد فتحتها بيده وانتظر دقيقتين حتى رشف النحل العسل فقلّ ميله للسع . عندئذ باشر زوج خالتي بعملية تنقية الخلايا من ديدان الشمع . عالج الاطارت المصابة بأن بخرها باستخدام ثاني أوكسيد الكبريت .

رغم انشغاله ، كان زوج خالتي يرقب بطرف عينه الحركة في الساحة الأخرى . جاء ضابط وكلم الجندي لعدة دقائق ثم تجول حول الخيمة المستطيلة . أخيراً أدّى الشاب تحية عسكرية ثم اختفى الضابط من باب النادي الأمامي .

ناولني المادة الصمغية ذات اللون البني المخضّر ، رائحتها مريحة كخليط من البراعم والعسل والشمع والفانيلا . قال :

- إذا حُرقت فستنبعث منها رائحة الصموغ العطرية القديمة جداً .

أضاف :

- وهي مادة منبهة لإفراز الهرمونات الأنثوية .

طلب مني سعد أن أرعى له المحل إلى حين عودته هذا المساء . ملأ حقيبة بأدوات حلاقة ومستلزمات مكياج . رغم استفحال الحزن بين الجميع في منطقتنا ، فإن بعض الناس يحتفلون في مناطق أخرى ؛ مطلوب منه أن يزين عروسين هذه الليلة في بيوتهن قبل البدء بالزفاف . قال مغادراً :

- لا تخبري أحداً أنني سأحضر حفلات زواج .

أغلقتُ الباب خلفه ورحت أقلب مجلة نشرت مقالاً ملوناً عن

الاختراع العظيم المدعُو INTERNET . سحبتُ نفساً ثقيلاً عندما تخيلتُ أن المرء يمكنه الحصول ، بضغطة زر ، على أية معلومة يحتاج إليها من أية شبكة يحلم بها . ما هذا الذي أقرأه عن البريد الإلكتروني ؛ كيف تراسل شخصاً عبر شاشة الكومبيوتر في الجهة الثانية من المعمورة في ظرف دقائق؟

عندما مد عادل رأسه من الباب راحت العلكة تذوب في فمي . قال :

- كيف حالك يا دلال؟
- بخير ، تفضل .
- أين سعد؟
- عنده التزام مع عروسين هذه الليلة . يأمل ألا يتأخر .
- عندك قهوة؟
- عندي .

جلس على الأريكة :

- متى ننتهي من كل هذا؟ لم أعد أحتمل صناعة أطراف .
- تبدو مرهقاً .
- لم نذق طعم النوم . لقد تأثرنا بالانفجار .

كيف حدث أنني أسمع صوت العصافير والمطر في آن واحد! توجهت إلى الشباك فاذا بماء السماء يهطل بعنف كأنه يعاقب نفسه على الأرصفة . التحق بي عادل :

- ما أجمله .

تعاقبنا على ارتشاف القهوة بأبطأ ما يمكن :

- هل كنتَ في حاجة لشيء من سعد؟

وضع فنجانه على حافة الشباك :

- ترغبين أن أغادر ، أليس كذلك؟

المطر يتخذ أشكالاً غريبة على زجاج النافذة . يخر من الخارج فيتجمع في حوض نبات التوت . اختلط صوت عادل بوشة المطر ؛ شعرت أنه تخديش إبرة في مساحة من زئبق في رأسي . توجه إلى الباب ، ولكن بدلاً من أن يفتحه ويغادر أقفله ثم بدأ يقودني إلى حيث نجوم الفضة دون مقاومة .

نطوف : سناجب فتيّة تنظف فروتها تحت ظلال خريفية . أتحسس شعره ؛ خصلات من نبات زهرة الكجرات . يمددني على ظهري . يدخل إليّ من زر قميصي . يتذوق نواة كرزاتي . أصابعه مثل بامياء طرية ، تجد طريقها ، تنزلق إلى أسفل ، تضّل طريقها . أنظر في عينيه . غطاء ليلكي يطير فوقه . نلعب ؛ أيدينا تستكشف ثنايا من حرير . يطلب مني زيت الزيتون برقّة أن أخفض صوتي . أرجل السرير ترتعش .

لم يفهم أبو غايب لماذا تحول نحله الوديع إلى حشرات شرسة!

بدت كأنها توشك على التطريد ، فسارع بعملية فحص أخرى ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام . لم تكن الخلايا مزدحمة بالنحل ، ولم تمتليء أقراص الشمع بالعسل بحيث لا يبقى مجال للملكة بوضع البيض . بالاضافة إلى ذلك فإنها لم تكبر إلى الحد الذي لا تستطيع فيه أن تضع بيضاً كافياً فيقوم النحل بمغادرة أعشاشه ويستبدل الملكة .

مع ذلك بدأ النحل يطير من الخلية بدوائر على غير عادته حيث يكون طيرانه على شكل خطوط مستقيمة ، وأصبح بعض النحل ثقيلاً وغير قادر على الدفاع عن نفسه ، ثم اكتشفنا مجاميع كبيرة وغير عادية على مدخل الخلية . فجأة صاح أبو غايب :

- عملية التطريد تتم ما بين العاشرة والثانية عشرة بعد الظهر عادة . أسرعي يا دلال ، يجب أن نمنعها من الرحيل .

ارتبكتُ لصياحه :

- ماذا أفعل؟

- رشّيها بالماء لكي تبتّل وتتوقّف عن الطيران .

أتيت بخرطوم الماء ورحت أطبق التعليمات خائفة أن يموت النحل غرقاً . صاح من غرفة الفرز :

- هل هدأت؟

كنت أرش الماء يميناً ويساراً :

- قليلاً .

- لا يكفي .

فجأة جاء زوج خالتي بعلب صفيح فارغة وراح يدق عليها بعصا خشبية عسى أن يزعجها الصوت فتمتنع عن الطيران . سألني وسط الضجيج :

- أما زالت على استعداد للتحليق من جانبك؟

- أعتقد ذلك .

عندئذ انتبهنا أن الجندي الحارس للساحة الثانية قد وقف ليرقب جلبتنا المفاجئة .

لم نسيطر عليها إلا بعد أن أتى زوج خالتي بمرآة متوسطة الحجم وراح يوجه بها أشعة الشمس على الخلايا الهائجة . لسبب ما خف اضطرابها بعد أن انصبّت عليها انعكاسات الأشعة .

تنفس أبو غايب الصعداء .

في فترة العصر فتحت خالتي باب الشقة ونحن على وشك الدخول .
سألها أبو غايب :
- إلى أين؟
- سأزور أم مازن .
قبل أن تغادر استدارت نحوه وخداها يحتقنان :
- جاءتك مكالمة من الأردن .
- من؟
- من تظن!
ثم صفعت الباب .
نظر إلى ساعته ، لم يكن الوقت مناسباً لرد المكالمة . ارتحنا قليلاً بعد تجربة اليوم ثم شرعنا بتحضير القند . شك أبو غايب أن يكون أحد أسباب نية النحل على التطريد حاجته إلى غذاء إضافي بما أن درجات الحرارة قد انخفضت انخفاضاً كبيراً هذا الشتاء . ولعه بعادات النحل مستمر حتى في المطبخ :
- للنحل قدرة فائقة على تمييز مجموعة كبيرة من الروائح ، ويمكنه تذكرها بعد مدة انقطاع عنها تصل إلى خمسة أيام .
لم أجد دفتر ملاحظاتي فرحت أدون المعلومات على ورقة من أوراق الجامعة . كتبت خلف فقرة من تحليل لرواية BALZAC . بدأ بعمل محلول سكري بمزج أربعة مقادير من السكر مع مقدار واحد من الماء . وضعه على النار حتى الغليان فازداد صلابة ولزوجة ثم ساعدته في وضعه في صواني بعد رشها بالسكر الناعم . في انتظار أن يبرد سألته :
- هل صحيح أن النحل يتفاهم بالإشارات؟
جلس على الكرسي مشمراً عن ساعديه ، وراح يتفقد صدفيته ، يبتسم :

- نعم ، مثلي وخالتكِ ؛ كما يفعل الصم والبكم . وإشارات النحل تتم عن طريق حركات تشبه الرقص تحدد بها الرغبات والاتجاهات والمسافات . عند الإشارة إلى مواقع مصادر الغذاء أو الموقع الذي اختاره عند التطريد ، فانه يتم تحديدها بالنسبة إلى مكان الشمس منها .

أثقل رأسي بالمعلومات . أخيراً جمدت خلطة السكر وقمنا بتقطيعها لنقدمها غداً للطوائف فوق قمم الإطارات .

إما أننا تأخرنا ، أو أن المعركة قد نشبت منذ الصباح الباكر . وصلنا إلى المنحَل نحمل قطع القند لنقوم بتوزيعها بين الخلايا ؛ فوجدنا النحل يقتتل فيما بينه . طائفة قوية تسرق من طائفة ضعيفة . ميزنا النحل السارق بأنه يطير وأرجله إلى أمام ويقوم باقتحام الخلية على شكل غارة ، أما النحل العادي فكان يطير بخطوط مستقيمة .

أسقط أبو غايب كيس القند وهرول باتجاه الخلية المسروقة . كان مدخلها هو ساحة الحرب ، وقد شاهدنا سقوط الضحايا على لوحة الطيران وأمام الخلية ، كما شاهدنا النحل السارق يطير بتثاقل على شكل أقواس . أشار إليّ أن انتبه إلى النحل السارق معلقاً بعضه مع بعض على هيئة كتلة حول حافة غطاء الخلية محاولاً الدخول فيها . صاح :

- من هنا .

ثم أمرني :

- اجمعي لي الحشيش .

ناولته عدة قبضات من حشيش ، فراح يسد الشقوق والفتحات التي يمكن للنحل السارق أن يتسرب منها ، ثم قال لي بتوتر :

- أذيبي كمية من الملح في كمية الماء سريعاً .

دخلت راكضة إلى غرفة الفرز وأتيت له بخلطة الملح المذاب . راح يرش رذاذها على النحل السارق ولوحة الطيران ليوهمه بأنه ليس هناك شيء يقوم بسرقته عسى أن يمتنع . لكن حركتنا السريعة ما بين الصناديق أثارت بقية النحل ، وراح الجميع يسرح بجنون حولنا من كل جانب . بز ، إز ، بز ، إز . هجمت عليّ نحلتان وانتحرتا في رقبتي . شعرت أن سكيناً ساخنة اخترقت جلدي . صرخت من الألم وجاء أبو غايب يركض . أجلسني ومد رأسي إلى وراء ليزيل آلة اللسع بأظافره ، ويشد الجرح بيده ليمنع انتشار رائحة السم التي تهيج النحل أكثر .

ابتسم عندما رأى دموعي وقال :

- مناعة ، مناعة .

لم يجد حلاً للسيطرة على الموقف سوى بتهدئة الأمور بالمنفاخ . راح يرش النحل فاستسلم بعد مدة . أما النحل السارق فاستمر يُغير على الخلية الضعيفة حتى قام أبو غايب بحملها إلى مكان آخر من المنحَل وأغلق مدخلها قائلاً :

- سنفتحها بعد عدّة ساعات .

عندما جلس زوج خالتي بجانبي ، جلس الجندي الذي كان يمضي بعض وقته يتفرج علينا . نظرنا إليه وقد اتكأ بكرسيه على قماش الخيمة المستطيلة . كان يرتدي بدلة خاكية فاتّحد بالخلفية الخاكية خلف ظهره ، ولم نعد نرى منه سوى وجهه ويديه وانعكاس الطرف المعدني لسلاحه .

فتح أبو غايب كيس القند ، وقدم لي قطعة :

- لمَ لا؟

اقتسمناها ورحنا نلهي نفسنا بالحلاوة تحت لساننا . ضرب جبينه :

- الذنب ذنبي .

- كيف؟

- في الشهر الماضي ، لم أغذ الطوائف كلها في وقت واحد ولم أراعِ عند التغذية البدء بالطوائف القوية ثم الضعيفة . الآن أدركتُ خطأي .

أخذ كسرة أخرى من قند :

- من الأسباب التي تؤدي إلى السرقة هي إحساس النحل بالغبن . يبدو أنني أسأت توزيع الغذاء بين الطوائف ، أو تركت إحدى الخلايا مكشوفة أثناء عملية الفحص فاكتشف النحل السارق مخزون الطائفة الأخرى من العسل .

راحت نحلة نشيطة تحوم حول وجهه تحاول أن تسرق لعقة من القند الذي يتذوقه . لم نترك المنحَل إلا بعد أن تأكدنا من أحوال الخلية المُبعَدة . كانت نتيجة القتال هلاك الطائفة الضعيفة وموت أكثر أفرادها .

طأطأ زوج خالتي رأسه للخسارة .

أخذت أم مازن أرواحها السبعة وتركتنا .

رافقها الشرطيان نفسهما لتجمع حاجياتها من الشقة . ودعت الجميع بمرارة وهي تدمدم :

- يا كثرة اصحابي من يوم طرفي دبس . . . ويا قلة اصحابي من يوم طرفي يبس .

بعد أن طلبَت من خالتي أن تجد لها مشترياً لشقتها ، أخذها الشرطي الأول معه ليطلب لها سيارة أجرة ترحّلها بشكل نهائي . كان سيسمح لها ضابط الشرطة بالبقاء ، ولكنها رفضت أن توقع تعهداً بأنها ستمتنع عن مزاولة مهنتها ، ففرض عليها أن تنتقل إلى مدينة أخرى وتلتزم بعدم إيذاء الآخرين . اختارت أن تعود إلى الحِلّة مسقط رأسها ، واضطرت أن تجر خادمتها معها خوفاً من أنها ستموت جوعاً بدونها . أما

الشرطي الثاني فقد قام بجمع ما تبقى في الطابق الخامس من نباتات مجففة ، وقناني سوائل ، وحجابات ، وقوارير عسل ، وطلاسم ، وحرقها في برميل عند موقف السيارات بقرب محل سعد .

نويتُ أن أقضي الأمسية في تنظيف شقة إلهام . ما تزال ملغومة بأعداد كبيرة من أعشاب مفروشة على أرضية شرشف نايلون . حفنات من مساحيق ملونة على يمينها ، وعيدان غامقة وأخرى فاتحة على يسارها . في منتصفها أكوام من بذور وأوراق شجر وجذور مشعرة ، وتتناثر حولها مواد بلورية وطينية . أشرطة من أحماض هنا ، وتصميم عفوي من كتل صلبة هناك . قبضة من أبر صبار في الزاوية . تلال تتعاقب من طحين أصفر كأنها أمواج كبريتية . ميزتُ نبات سرّة الأرض ؛ عشبي معمّر ، أوراقه لحمية مائية ، طويلة الأعناق ، تنبعج في وسطها بوقياً . قالت لي أم مازن مرة إن خلطه بحجاب من جلد سلحفاة هرمة يطيل الشباب . أما حشيشة النجارين فمضغوطة على شكل مكعبات كأنها طابوق صغير تكدس بعضه فوق بعض .

احتواني المقعد وأنا أتفرج على المنظر للمرة الأخيرة قبل أن أضعه في أكياس نفايات وأرسله للمحرقة . فتحت الشباك فاختلط صوت الأذان القادم من جامع الجندي المجهول بالتأليفات اللونية المفروشة أمامي . تجاوبَت الأعشاب مع المغيب الذي وزع ضوءه بينها بتناغم . غرقتُ في المنظر حد الخدر حتى سمعت صوتاً ينادي اسمي . شعرت أن شخصاً ما في أحد الفنادق الكبيرة قد مر من أمامي يحمل لوحة سوداء مكتوباً عليها اسمي بالطبشور الأبيض ويتدلّى من جانب اللوحة جرس نحاسي صغير يرن ليجذب انتباهي . كان نادلاً يافعاً يرتدي طربوشاً سورياً . فجأة

استفقت لطرق متكرر على الباب . ذهبت لأفتح :

- عادل! ماذا تفعل هنا؟

- قال لي سعد إنني سأجدك في الطابق الثاني .

- نعم ، عليّ مهمة تنظيف .

- سأساعدك .

شق طريقه إلى الداخل وذهل للوحة الأرضية بدوره :

- ما هذا؟

- بقايا أم مازن .

وما بين استهزاء وعدم تصديق ، قال :

- فعلاً ساحرة .

التفت يده حول خصري :

- قال لي سعد إن النحل هجم عليك .

- لسعتني نحلتان في اللحظة نفسها بوخزة واحدة .

- أريني .

- هنا ، لكن لا تلمسها فهي مؤلمة .

لم يلمسها ، لكنه قبلها ليبردها . سألني :

- أين كبسة زر تسخين الماء؟

- في المطبخ ، لماذا؟

توجه إليها قائلاً :

- سأقول لك فيما بعد .

رفعت أحد الأكياس :

- من أين نبدأ؟

سحب الكيس من يدي ورماه جانباً . فك الحصان يقترب مني :

- ما رأيك أن نثير بعض الغبار أولاً؟

قبل أن يمددني على مساحة من لاوندا ، راح يزيح الصبار ووردات الشوك عن الأرضية . تعلقت حشيشة أم المئة ثقب بشعري . ضحك عادل لمنظري وقد التصقت مساحيق برتقالية على جانب من خدي . دفعته بكل قوتي فهبط هو في عشبة راوند صيني واخضرت رقبته . رفعتُ غصناً من شجرة الأرز في وجهه : «في الزمان القديم كان يستخدم هذا الخشب لصنع المراكب» . قال : «كفاك حديثاً» وراحت بشرته تصدر رائحة زيزفون مع عرقه . دسنا سجادة الأعشاب تحتنا .

عندما تغيرت الخارطة وأصبح مزيج المواد من لون متقارب التقطنا أنفاسنا . وضعت رأسي على صدره تخنقني عطسة بطعم القرنفل . صوته :

- دلال ، متى نفرح بتخرجكِ؟

- نهاية السنة إن داومت على التحضير .

- وهل هناك ما يشغلك عنها؟

- لا شيء يذكر ؛ مشاكل خالتي وزوجها ، وجنون نحله .

أضفت :

- لكنني قلقة .

- م تقلقين وأنا موجود؟

- تم فصل أحد الطلبة لأنه قام بتهريب نسخ من رواية جورج أورويل «حقل الحيوانات» من تحت أنف حرّاس الجامعة ووزعها بين طلبة القسم الانكليزي .

- كيف شعروا به؟

- خبّر عنه زميله واودع تقريراً عن نشاطه لدى الاتحاد الوطني للطلبة .

- كان الاجدر به أن يلتزم بالتعليمات : على كل حال ، وما أخبار

عملك مع سعد؟

- سعد لطيف . لكنه لا يكف عن تبادل الأشياء في محله بما يشتهيه إلى أن تسمم بعلبة ساردين فاسدة لقاء علبة أدوات تقليم أظافر .

ضحك عادل . خدي يلتقط ذبذبات صدره . ضحكته لها طبقتان ، النبرة القريبة من أذني واضحة أما الثانية فهي دخانية كأنها بطانة للطبقة الأولى . قال :

- أنا أحب هذا المخلوق لأنه يعرف ما يريد بالضبط . أغلب الناس لا يعرفون ما يريدون .

- من يستطيع أن يحدد أهدافه في ظروف كهذه؟!

ناولني عوداً من قرفة ووضع آخرَ في فمه . رحنا نمتصهما بهدوء :

- وأنتِ هل وجدت ضالتك في اللغات؟

- على الأقل وجدت ترجمة لأسمي . دلال : هي كلمة قديمة تصف العَبَث في الحب .

تأملت في السقف ملياً ، ثم نفضتُ نعناعاً أزرق التصق بذراعه :

- أتعلم ، أشعر أن اللغة كالإنسان ؛ عمرها ما اكتملت .

بعد صفنة مطولة ، ضغطتُ على كتفه :

- ومن زاوية أخرى ؛ أجد أن الإنسان كاللغة أيضاً . . .

رفع رأسه يتابع شفتيّ :

- جمع أخطاء شائعة .

لم نرتدِ ملابسنا . غبار المواد المجففة يغطينا من الرأس إلى القدم . تناولت رداء التمريض من غرفة إلهام وارتديته بينما سحب عادل شرشفاً وراح يلفه حول جذعه فتدلى القماش من وسطه حتى ركبه . شعرنا ببرد . نظفنا الغرفة وقمنا بتهويتها ، ثم كدسنا الأكياس السود عند باب الشقة . بعد ذلك حملني إلى حيث الماء الساخن . وقفنا نتفرج على

عشرات المساحيق تذوب في الماء متحولة إلى خيوط من ألوان أخذت تسيل من أجسامنا في حوض الحمام الأبيض . ارتفعت مع البخار روائح توابل ومسك . أشرتُ إلى وشل أحمر فاتح يتعرج هبوطاً على ساقي :

- عادل ، ليس هذا بعصارة رمان .

كانت حبات الماء تقفز من فوق شعره على شكل قطرات ملونة . لم يعلق :

- اشعر بألم أسفل بطني .

- آسف .

عندما فتر الماء قليلاً قال مبتسماً :

- هل ترغبين بجناح وطواط؟

ضربته على كتفه فراح الماء يبالغ بصدى الصفعة الذي اختلط بضحكنا :

- خبيث! من أين تعرف هذه القصة؟

- أنا أسكن مع الطبيب المدعو خفاش الليل في الحيّ نفسه . بعضنا سمع بالخبر .

رفعتُ صابونة متروكة تيبست وتفطرت بشروخ طولية . حاولت أن أرغيها :

- بغداد صغيرة!

الفصل السادس عشر

لم يهدأ النحل .

أخذ يتحول من شرس إلى شرير ، وراح يلسعنا بلا سبب حتى لم يعد بإمكاننا أن ندخل المنحَل دون بدلات واقية . صرنا نتنقل على أطراف أصابعنا خوفاً من هياجه المفاجئ . زوج خالتي كان يشعر بالإحباط بعد أن طبق كل نقاط اللائحة العلاجية لرعاية حشراته على أتم وجه ، لكنها لم تنفع . أصبح يرقبها من الصباح حتى العصر ليمنع الاقتتال والتطريد والسرقة . كان يجلس على منصة يلهي نفسه بالكتيبات الزراعية ، ويتبادل النظرات عبر الساحة مع الجندي الذي يلهي نفسه بمراقبة الحمام الذي يقلع ويحط فوق سطح النادي .

مع الأحداث الأخيرة خفّت حركة الزبونات لدى خالتي . أصبحت تنام مبكراً لتجتاز ملل الأمسيات . أما أبو غايب فسيسهر هذه الليلة مع الأستاذ من الطابق الأول ؛ لكي يتصل بالأردن من شقته . قلت لسعد :

- لم أعد أحتمل .

- ما بكِ؟

- هناك شيء غامض .
- مع عادل؟
- لا ، في ساحة التنس؟
- يا دلال ، التعليمات تقول «لا تقترب» .
- لكنها لم تقل «لا تحاول» .
- مجنونة ، ماذا تقصدين؟
- يجب أن أعرف ماذا يُخبأ في تلك الخيمة الخاكية على شكل مكعب .
- بماذا تفكرين؟
- دعنا نتسلل من الخلف .
- لا ، ستعرضين نفسك للخطر .
- لقد ربيت في هذا النادي . أعرف كل المداخل والمخارج . كل ثقب وفتحة مررت منها وأنا صغيرة .
- لكنك كبرتِ!
- أستطيع القيام بذلك .
- لن أسمح لكِ .
- سعد ، يجب إنقاذ الحال . إذا خسرنا النحل سنخسر كل شيء .
- ولكن ستخسرين مستقبلك إذا لم تسرِ الأمور كما يرام .
- مستقبلي لا يجلب وارداً ، لكننا نعيش من العسل .
أخذ سعد يلعب بغرته :
- هل ستساعدني؟
- أخاف عليكِ .
- إذا خسرت خالتي زبوناتها بسبب الظروف ، وخسر زوجها زبونات العسل ، فستضطر أنت إلى إغلاق محلك بدورك .

راح يفكر . أضفت :

- ما عدا ذلك ، إذا تطور إنتاجه ، فهذا يعني أننا سنقوم بتصدير بعض العسل السنة القادمة . دولارات يا سعد ، دولارات .

- ما هو المطلوب؟

- تراقب لي الجندي بينما أحاول أنا استكشاف محتويات الخيمة من الخلف .

- وماذا إذا شعر بك؟

- الباقي يرجع لك . تلهيه بأية طريقة .

جلسنا على الأريكة ، سحبت ورقة وقلماً ، ورحت أرسم له :

- سندخل أولاً من الفتحة عند جدار المطبخ فنجد أنفسنا في الباحة حيث يكدسون الأغذية . بعد ذلك نجتاز حافة المطعم فننتهي عند منازع اللاعبين . إلى يمينها توجد مولّدة كهرباء كبيرة ، تستطيع الاختفاء خلفها . في هذه الأثناء سأمشي أنا بمحاذاة الجدار الأبيض العالي الذي كان لوحة لعرض الأفلام . من هناك سأدخل إلى بستان النخيل ، وبعد عدة خطوات ثمّة فتحة متوسطة الحجم في سياجها الأيسر تطل مباشرة على الساحة رقم ٢ . سأبحث عن فتحة في القماش وألقي نظرة سريعة إلى الداخل ، ثم أعود إليك .

راح يتفحص الرسم :

- اتفقنا؟

لمّ شجاعته :

- اتفقنا .

اشتدت الظلمة . اختفى سعد خلف المولّدة الهائلة الصماء ؛ من هناك سيتسنى له مراقبة الموقع بوضوح . توجهتُ بحذر إلى جدار العرض . قلبي سينط من صدري لشدة توتري . لا مجال للتراجع الآن .

حاولت أن أتخيل نفسي ألعب لعبة القط والفأر وعمري ثماني سنوات. لكن البرد قرصني، ولعنت النفايات المرمية خلف الجدار التي تطقطق عندما أدوس عليها. تباطأتُ أحاول أن أقللِ من الأصوات التي تصدر تحت قدمي. بعد دقائق لمحت الجندي متكئاً على كرسيه كعادته يضيء وجهه شعاع فانوس ضعيف. انحنيت قدر الإمكان وانحشرت في الفتحة في نهاية سياج بستان النخيل. أخيراً وصلت إلى الهدف.

ذلك الثقب في القماش يناديني. يصدر منه شعاع ضئيل يبدو أنه قادم من فانوس معلق في الداخل. أسفل الخيمة مرتفع عن الأرض قليلاً وينبعث منه ضوء خافت أيضاً. خطوت بحذر شديد. ما إن اقتربت بما يكفي لأشم رائحة القماش الخاكي، حتى جمدت مقلتي في مكانها. يا إلهي! لم أتمالك نفسي، فقدت السيطرة على صيحة رعب صدرت من حنجرتي. في تلك اللحظة، قام الجندي عن كرسيه وهو يصيح: «قف مكانك.»

دون أن يراني استعد الجندي للاتجاه نحو خلفية الخيمة لكن دوياً هائلاً استوقفه في اللحظة نفسها وجعله يتلفت في ذهول. لقد قام سعد بتشغيل المولّدة الكهربائية فجأة وطمست ساحة التنس بوروة هائلة غير متوقعة. حاولت بجهد استذكار خارطة العودة إلى العمارة. ركزتُ أفكاري لكي أجرّ ساقي. شرعت بالهرب من الفتحة نفسها. أخذ كل شيء فيّ يقشعر حتى جلد حذائيّ!

لا أعلم من أين خرجت يد سعد لتمسك يدي في الظلمة. كان هدير الماكنة يصم الآذان. خرجنا من فتحة جدار المطبخ نلهث حتى شقته. أطفأ أنوارها وارتمينا على الأرض نرتجف.

عندما فتحت عيني وجدت غرفة نومه تحوم فوق رأسي، ثم ظهر وجهه يتعاقبه زوج خالتي. ما إن رأيت أبو غايب حتى ارتميت في حضنه

ورحت أجهش بالبكاء مثل طفلة . أخذ يربت على جبيني :
- كيف تشعرين يا دلال؟
- ماذا حدث؟
- كنتِ في غيبوبة .
- يا إلهي!
- قلقنا عليك . ماذا رأيتِ؟
- أين خالتي؟
- نائمة .
- هل عرفَت؟
- ليس بعد . لا تفكري بها ، فقط قولي لي ما حدث .
راح سعد يزيح مسحة عرق عن وجهي :
- جثث . جثث في كل مكان!
هبط كلامي عليهما كالصاعقة :
- عرفت اثنين منهم . إنهم أهل العمارة التي قُصفت .
شد زوج خالتي على كتفي :
- اهدئي ، اهدئي!!
طلب من سعد أن يأتي بالماء :
- عددهم كبير . والأطفال ممدّدون على الجانب .
تبادل زوج خالتي وسعد النظرات :
- وتوجد مجموعة من جنود أيضاً .
سأل سعد زوج خالتي :
- لماذا يضعون جثثاً في ساحة تنس؟
- ربما لأن ثلاجات المستشفيات القريبة لم تعد تكفي .
- ألا يخافون من تحللها؟

- الطقس بارد جداً .
سقاني أبو غايب ماءً اصطدم بأسناني مثل جليد :
- أطرافهم مبتورة . سيقانهم ملتوية ، وجوههم مشوهة .
اقترب سعد مني ليمسك بيدي :
- سعد ، رأيت طفلة لها شرائط في شعرها لكن عينها مقلوعة .
- كفاكِ . ارتاحي .
سأله سعد :
- لكن لماذا ينيرون فانوساً فوق جثث؟
- ربما لكي يتعرف عليهم أهلهم . قد يكون الجنود مفقودين في معركة ما .
- لكن ليست هناك معارك تدور حالياً .
- البلد يعج بالاسرار يا سعد . كيف لنا أن نعرف لماذا يموت الجنود بلا معارك؟
- أرجوك يا أبا غايب ، إخفض صوتك ، فالحيطان لها آذان .
- لن يغير ذلك شيئاً . لن نعرف حقيقة ما يجري خارج أسوار المدينة ، أو داخلها .
وقف أبو غايب ، وراح يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً . أشرت له أن يقترب مني ، قال :
- نعم دلال .
- كان النحل يحوم فوق دمهم .
انطفأت نجوم الفضة .

مكثتُ في غرفتي لمدة يومين أعلن أثناءها الأستاذ من الطابق الأول

عن رغبته بالزواج من السيدة التي أنجبت في البيت على يد الحلاق . سينتقل ليعيش معها ؛ على الأقل سيقتسمان المصاريف فيما بينهما وسيدّعي أنه تبنى بائع الجرائد ، وبذلك يصبح اسمه الجديد «أبو حامد» بصفة رسمية . كما أرسل أصحاب شقة إلهام ، الذين يسكنون في قبرص ، أحد أقاربهم ليتصرف بالشقة بالوكالة . وعليه أصبحت العمارة مزينة بثلاث لافتات «شقة للبيع» تتدلى من طوابقها ؛ الخامس والثاني والأول .

ظلّت خالتي تتبع حركة زوجها ما بين الغرف :

- قلت لكَ لا تخبر أحدا .

- لا أستطيع أن أتصرف وكأنني أجهل الحقيقة .

- لكن مستقبلنا سينتهي .

- استمري أنتِ بما تفعلينه وأنا سأهتم بمشكلتي بنفسي .

- لكنني لم أعد أرجو مورداً من الخياطة . الموسم لا يشجع ، ولا أعلم كيف سيكون الإقبال في الصيف القادم .

- وماذا تريدينني أن أفعل . أغش؟

- دعنا على الأقل نراقب سير الأمور .

- فات الأوان على ذلك ، لقد تلوثت الحشرات .

- لماذا تريد أن تتصرف من الآن؟

- وماذا أقول للمشتري؟ أن وجبة العسل التالية تتكون من عصارة الإنسان؟!

الضيق واضح على وجهه ، صوته يرتفع :

- نعم ، سأضع عسلاً غريباً لونه وردي على الرف وسأعلن «جديد في الأسواق ؛ من البشر إلى البشر» .

- لا تستهزئ .

- أو ربما الأفضل أن أقدمه في المعرض القادم مع بقية الأنواع «عسل برتقال، عسل تمر، عسل آدميين» . هل تروق لكِ الفكرة؟

راحت تلاحقه أينما يذهب :

- لكن، ليس لديكَ إثبات على أن النحل تغذى على الدم .

- وماذا أنتظر أكثر من ذلك؟ لقد جُنّ النحل منذ أن نُصبت تلك الخيمة فماذا تعتقدين؟

- أمتأكد أنت؟

- وهل ستغيرين رأيكِ ان تأكدتُ؟!

لم تجب خالتي . أضاف :

- عندما يرغب النحّال في القضاء على الدبور الأحمر، الذي يعتبر من ألّد أعداء النحل، فإنه يضع له مصائد خاصة يترك في داخلها قطعة لحم متحلل أو قطعة من سمك، فلا أستبعد أن ينجذب النحل إلى مادة تشبه ذلك .

قالت له :

- لكنك ذكرت مرة أن النحل يكره الروائح الغريبة!

- مع ذلك لا أستطيع أن أجزم أنه لم يقتت على الجثث . لا أستطيع أن أجازف .

- ماذا ستفعل؟

- سأتخلص منه .

- كيف؟

راح يحوم وسط غرفة الجلوس تحيط به اللوحات من كل جانب، ويتأمل الألوان حوله :

- بطريقتي الخاصة .

- كيف أقنعكَ أن تعدل عن قرارك؟

- ليس لدي خيار .
صاحت فيه :
- بلى ، هناك خيار أن نلتزم الصمت ونستمر بحياتنا كالمعتاد .
- لم يعد شيء «كالمعتاد» بعد هذه النقطة .
كان تارة يفرك جبينه وتارة أخرى يقرص خديه بين إصبعيه ليركز أكثر . يقترب من اللوحات ، ثم يبتعد عنها ، ثم يقترب ثانية . قال :
- دلال ، إئتيني بشريط قياس .
جلست خالتي على كرسي ترقبه . يروح ويجيء من أمامها وعيناها تتبعان حركته بإمعان ؛ إلى اليمين وإلى اليسار ثم إلى اليمين كأن رأسها مروحة منضدية . انشغل بقياس اللوحات واحدة بعد أخرى ، وراح يسجل أحجامها في ورقة . كانت اللوحات مصطفة على شكل ثلاثة خطوط على الجدار لكثرتها . كل الغرف فيها لوحات ما عدا المطبخ . استغرقت عملية القياس وقتاً طويلاً . عندما انتهى قال :
- لم يبق لدي غير حل واحد .
راحت تترقب :
- يجب أن أبيع هذه الثروة .
نظرت إليه كأنها تراه لأول مرة :
- أية ثروة؟!
- سمعتُ أن بعض الأثرياء العراقيين في لندن وعواصم أوربية أخرى مهتموّن بشراء لوحات أصلية .
- وكيف سنتصل بهم؟
- عن طريق الأردن .
تغيرت تعابير خالتي :
- تقصد الخانم أم الصدفية؟!

- أقصد بمساعدتها بما أنها تعمل في فندق . نستطيع أن ننقل الأعمال الفنية ونعرضها هناك .

- وماذا نستفيد؟

- بمبلغ اللوحات سأشتري سلالة جديدة من نحل نقي ، بعد ذلك يجب أن أبدأ من الصفر .

حاولت خالتي الاعتراض ، لكنه رفع ذراعاً جامدة في وجهها كأنه يحذرها من الاقتراب صوبه :

- لا تتدخلي .

- لا تعجبني فكرتك .

- لا تفرضي نفسك ، أنا أعرفكِ جيداً ؛ عندك القابلية أن تحشري نفسك بين البصلة وقشرتها .

- أردت أن أقول . . .

- إن كان ما أفعله غير مقنع بالنسبة لكِ ، فامكثي في مكانكِ ولا تصدري صوتاً آخراً .

- ولكن . . .

بدأ يفقد أعصابه :

- أتعلمين ما نفعله بالدبابير عندما نصطادها لحماية نحلنا؟

رفعت حاجبيها دون أن تتفوه بكلمة :

- نغرقها في الماء المغلي .

طلب منا زوج خالتي الكتمان التام حتى ينظم أفكاره . كان يعلم أن عبور تلك اللوحات من الحدود لن يكون سهلاً . إخراج لوحات أصلية مرسومة من قبل فنان معروف بدون موافقات رسمية يعتبر عملية غير قانونية .

خلال ذلك الأسبوع استأجر عمالاً لينقلوا له صندوقين من صناديق النحل التي هلكت في معارك السرقة . لم نعد نملك مفتاح شقة إلهام لنخزنها فيها فاضطر أبو غايب أن يضعها في شقتنا بعد أن قامت خالتي بفرش صحف قديمة على الأرض تحتها .

نظف الصناديق من بقايا النحل الميت وأقراص الشمع المتيبسة . أخرج إطارات الخلايا الخشبية البيضاء . قلع عنها مشابك الحديد ، وكدسها واحدة فوق الأخرى على الجانب ، ثم سحب أحد كراسي المطبخ ليقف عليه ، وراح يتناول اللوحات الصغيرة المعلقة أعلى الجدار ، يعاملها بمعزة ويرفعها بحذر . كل لوحة تترك خلفها مربعاً أو مستطيلاً من غبار كان قد التحم بالحائط عبر السنوات .

أعطته خالتي مفكّاً ومطرقة وحفنة مسامير . شرع يخلع المسامير عن ظهر اللوحات فينفصل الرسم الزيتي عن إطاره . راح يفرد كل لوحة على حدة وقد أصبحت عبارة عن قطع مربعة من قماش ملون . عندما فصل العدد المطلوب من اللوحات عن إطاراتها ، طلب مني أن أناوله الإطارات الخشبية البيضاء المخصصة لحمل الأقراص الشمعية ذات العيون السداسية من صناديق النحل . بدأ يستبدل إطارات اللوحات بإطارات النحل! يعيد تثبيت كل لوحة من قماش على إطار خشبي أبيض يناسبها بالحجم . دق المسامير على ظهرها وتأكد من سلامتها ثم راح ينسق إدخالها مرة أخرى في صناديق النحل . كدس الإطارات الأصلية الفارغة من اللوحات على الجانب هذه المرة .

في اليوم التالي أعاد الكرة . حاول جهده أن يضع أكبر كمية من لوحات مناسبة بالحجم في الصندوقين . عندما اتصل سعد ظهراً يطلب أن يراني قال أبو غايب لزوجته :

- قولي له إن فترة المساء أنسب للزيارة .

بعد أن أغلقَت الهاتف طلب منها أن تخفي ساحة العمليات جيداً بقطعة قماش فغطتها خالتي بشرشف مطرز بورد . عندئذ تنبه أبو غايب لمنظر مربعات الغبار على الحائط . تأمله للحظات واضعاً يده خلف ظهره كأنه يسند ألماً يزعجه . قال :

- لافت للنظر .

توجه إلى غرفة النوم ، وبدأ يعبث بكيس يحوي أشياءه القديمة تحت السرير . سحب أسطوانة طويلة من ورق مقوى ؛ كانت مجموعة بوسترات احتفظ بها منذ أيام وظيفته في وزارة السياحة . جاء بها إلى غرفة الجلوس وفتحها . كل بوستر كان يحمل شعار دائرة الآثار . بشريط لاصق أخذ يثبت البوسترات ليغطي بها خيالات اللوحات المختفية . ملوية سامراء ، سرسنك ، الثرثار ، صلاح الدين ، حاج عمران ، شقلاوة . عندما بقي أحد المواقع فارغاً على الحائط ، جلب صورة لبحيرة الحبانية وعلقها في مكانه .

لم يأبه سعد بما كان يزين الجدران لكن المخفي تحت الشرشف جذب انتباهه . حيّاني ثم همس في أذني :

- عادل يسلم ويسأل عنكِ .

- سأحاول أن ألتقيه عندما أشعر بتحسن . سلامي له .

سأل خالتي :

- من الممكن أن يتعثر المرء بشيء كبير كهذا ، أليس كذلك؟

لم تعرف خالتي بماذا تجيب ، فتدخل أبو غايب بسرعة ليتدارك الأمر :

- نعم . ماكنتا خياطة قديمتان طلب مني بعض الأصدقاء تصليحهما .

لم تبد عليه بوادر شك وهو يقول :

- ما أشطركَ!

بعد أن شرب الشاي غادر الشقة وهو يمر بالشرشف المطرز ؛ لا يعلم أنها صناديق نحل معبأة بأعمال فنية جاهزة للسفر .

ظل أبو غايب يسهر ليلتين أخريين وهو يفكر كيف يتقن خطة التمويه . العمال المستأجَرون أعادوا الصناديق الثقيلة إلى غرفة الفرز ، ثم أضاف إليها إطارات حقيقية تحتوي شمعاً وعسلاً وبعضاً من النحل الحي . وافقت مروِّجة منتجات البحر الميت أن تكون مرافِقة المسافرين . ستدّعي عند عبورها الحدود أن ما تحمله هو طرد نحل من نوع فريد سيستخدم لأغراض علاج الصدفية . من المؤمل ألا يدقق أحد في تفتيش سيارة غير محلية . خالتي تركت الشقة عندما علمت أن منافِستها شرفت العاصمة لتستلم البضاعة وتتوجه بها إلى الأردن . لم ترغب في مواجهة خصم قد ينقذ حياتها في النهاية . ذهبَت إلى سوق الأقمشة ، فسهلت الأمر على أبو غايب . لم يكن لقاءً عادياً والجميع متأهبون .

أخيراً ، ودع أبو غايب حبايبه ؛ اللوحات ، والنحل ، والست رندة!

الفصل السابع عشر

الأيام تمر . الهاتف لا يرن ؛ وكوابيسنا تختلط عندما نصطدم ببعضنا ونحن نتنقل ما بين الغرف . حوار قصير بين خالتي وزوجها بدا لي انه استغرق ساعة . رفعَت مجلة تُظهر توني بلير وهو يتحدث في البرلمان البريطاني . ملامحه : لهفة دائمة الخضرة . قالت :

- دلال جاءتنا بتقرير .
- متى؟
- هذا الصباح .
- ماذا يقولون؟
- الولايات المتحدة والمملكة المتحدة كانتا تقصفان العراق بين يوم وآخر منذ كانون الأول سنة ١٩٩٨ وحتى نهاية ١٩٩٩ .
- وما الجديد في ذلك؟
- ألقيا أكثر من ألف وثمنمائة قنبلة .
- ثم ماذا؟

راحت تعيد ترتيب محتويات سلة الخياطة للمرة الثالثة :

- على الأقل بدأت الحقائق تشق طريقها إلى الصحافة العالمية .

تقاطعا في الغرفة . ذهب هو ورفع سماعة الهاتف ليتأكد إن كانت الخطوط عاطلة ، بينما توجهت هي إلى المطبخ . قال :

- سأذهب إلى المنحَل قليلاً .

أتت بمكنستها . قبل أن يغلق الباب خلفه سألَته :

- لماذا لم تتصل الخانِم؟

- لا أعلم .

ثم أضاف :

- لا تغادرا حتى تأتي المكالمة .

راحت تلّم قشوره :

- هل تثق بها؟

أخرج يده من جيبه ليحك رقبته :

- الوقت وحده سيثبت ذلك .

مرت ساعة أخرى أبطأ من الأولى . بدل المكالمة المرجوة سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب . تبادلتُ النظرات مع خالتي ، ودون أن نتكلم راحت صور لنقوش مكتظة تَئِزّ في رأسي . صفحات تتكالب بعضها فوق بعض من زخارف باهتة ونمنمات من نار تحفر فيها .

أسقطت خالتي المكنسة لتفتح الباب . عندما رأيتُ وجه عادل قفزتُ باتجاهه . لكن عندما لمحتُ شرطيين خلفه قفز هو إلى داخل الشقة . أصابني دوار وأنا أحاول التركيز على خالتي التي تسمرت في مكانها . لماذا يرتدي عادل بدلة عسكرية؟! حاصرتني دائرة تصطف على قطرها الداخلي مجموعات من نخيل بحجم الدبوس تدور حول نفسها ؛ وعلى القطر الخارجي تتعلق جوامع في الهواء من قبابها ، ستسقط بين

لحظة وأخرى . أيقظني قبح صوته المفاجئ :
- أين أبو غايب؟
أجابت خالتي :
- في المنحَل .
أمر الشرطيين بتفتيش الشقة ثم أعطانا ظهره متوجهاً إلى الخارج ، فإذا بشرطيين آخرين ينتظرانه على السلم . قال لهما :
- هيا .
شهقت خالتي بفزع ، وراحت تجرني من يدي ، وشرعنا نتتبّع دوي أقدامهم الثقيلة . أناديه : «عادل!» لكنه لا يجيب . خرجنا من العمارة . الدوار يزداد ؛ منارات الجوامع البرتقالية في رأسي لا تشبه الجامع المجاور للنادي . في الشارع رأيت بغداد في استنساخ أزلي ؛ طبقات مائية من مدينة بلون شذر مغبر . أنادي مرة أخرى : «عادل!» فيُسرع الخطى مع الشرطيين ؛ أراهم أشخاصاً مزخرفين وعلى رؤوسهم عمامات عباسية . وصلنا إلى ساحات التنس . لم تعد الخيمة منصوبة في الساحة رقم ٢ ، لكن الجندي استقبل عادل ومرافقيه . فتح باب السياج وفي لحظات تجمع الكل يحيطون بزوج خالتي . لم يسمحوا لنا بالدخول ، فانتظرنا خارج السياج . قلبي يضطرب ؛ الجميع من حولي يستحيلون إلى توائم .
يهبط صوت عادل :
- أبو غايب .
- نعم .
فكّاه ينفرجان :
- مطلوب للاستجواب .
انتظر أبو غايب عند غرفة الفرز بينما راح أحد الشرطة يجهّز القيد المعدني . تقدّم عادل نحوه :

- أُلقي القبض عليك .

تعلقت أصابع خالتي بسياج السلك لا تقوى على الحراك ، فانحصر لحم كفّيها على شكل بقلاوات . لا أحد يتحرك غير عادل الذي يذهب ويجيء بتوتر . توقف فجأة فاغراً فمه كأنه الأسد الغاضب على بوابة عشتار قائلاً :

- نحتجزك بتهمة تهريب التراث العراقي .

أرقب زوج خالتي وهو يطلب من عادل أن يسمح له بإلقاء نظرة أخيرة على النحل . بعد لحظة تردد وافق .

توجه أبو غايب إلى صناديق النحل ، وراح يفتحها الواحدة تلو الأخرى . كان يعلم أين تكمن مَلكته . تناولها من الخلية وراح يدوس رأسها بين اصبعيه . اتخذ عدة خطوات إلى وراء وأخذ ينتظر . بعد قليل اضطر عادل والبقية أن يتراجعوا قليلاً . خرجت مئات الحشرات من مخابئها وراحت تتجمع في الهواء ، وتتكتل تدريجياً وهي لا تتوقف عن الرقص على شكل دوائر . رفع أبو غايب ذراعيه عالياً فشرع النحل بالطيران كأنه فهم إشارته . ظلت الرؤوس ترتد إلى الخلف رويداً رويدا ، بينما كان الجميع يتفرجون على النحل وهو يرحل ؛ سجادة مرسومة بالتنقيط تعيد تشكيل نفسها وهي تبتعد وتبتعد .

في اليوم التالي ، نزلتُ السلم بتيقظ غير واثقة من حقيقة ما يحيطني ؛ وعلى الرصيف أخذت أتلفت خلفي لأتأكد إن كان ظلي يلازمني . فتح لي سعد فأعطاني انطباعاً بأنه يتوقع زيارتي دون موعد سابق . لم يعد يشبه نفسه . محله مرتبك كأنه تعرض لحادث سرقة .

سألته :

- ما هذه الفوضى؟

كانت تنبع على خديه لحية غامقة :

- أنا المسؤول عنها .

وأشار إليّ :

- اجلسي .

- هل أصابكَ مكروه؟

- نعم .

كانت الكراسي مقلوبة فعدلت واحدة منها وجلست . سألني :

- كيف حالكِ؟

- توقف الزمن لدي .

- خائفة؟

- لا أشعر بشيء .

- كيف حال خالتكِ؟

- لم تتحمل الصدمة ؛ كلامها لم يعد منطقياً ، وأصبحت تعتمد عليّ في كل كبيرة وصغيرة .

حوض غسل الشعر فيه فطر قسمه إلى نصفين :

- هل حدثت معركة هنا؟

- لا ، المعركة كانت بيني ونفسي ؛ فحطمت كل أشيائي .

راح يسحب نفخة دخان مكتئبة :

- قبل أن تسأليني عنه . . .

أدخل يده في جيبه ، وأخرج رزمة منتفخة من دولارات وضعها أمامي :

- هذه لكِ .

- هل جننت ، ما هو الموضوع؟

- تعويض عن الذي حل بعائلتكِ .
- ما دخلك أنت يا سعد؟
راح يدخن دون رحمة :
- إدارة نادي العلوية قامت ببيع المولّدة الكهربائية ، لذا يجب أن أغلق المحل ، فلم يعد لدي مصدر إضافي للكهرباء ، هذا إضافة إلى اختفاء الزبونات .
- ماذا ستفعل؟
- سأهاجر إلى لبنان ، وألتحق بصديق لي يملك محل حلاقة للرجال في بيروت .
- ما قصة المبلغ؟
- من عادل .
شعرت أنه يخزني في كل جزء من جسمي :
- من هو؟
- اسمه الحقيقي جمال ، ويُطلق عليه «جمال جارور» .
أضاف :
- لذلك يكره أسماء الدلع .
- أسرِع بالشرح فأنا مُتعبة .
- هو مساعد في دائرة الأمن ، وقد طلب مني أن أعمل لديه .
- لقاء مال؟
- لا .
إحدى المرايا تكسرت ؛ كانت تتدلى منها مثلثات أضلاعها حادة :
- لا تقل لي أيضاً إن اسمك الحقيقي ليس سعد!
- اسمي سعد ، لكن اسم الدلع الأهم هو «فرّوحة» .
- فرّوحة؟!

رف العلب ازداد ميلاناً أما محتوياته فتبعثرت في كل مكان :
- نعم ، فأنا أُفرح غيري عادة .
أخذ الدخان يلتف حول غرته ، أضاف :
- ما عدا في هذه اللحظة للأسف .
حاول أن يمسك بيدي لكنني رفضت . أشار لي أن أتبعه حتى غرفة النوم . فتح بابها وأشار إلى السرير :
- خدماتي .
- يا إلهي ، أنت وعادل؟!
- لا ، أنا وآخرون ؛ بموافقة عادل .
- لماذا؟
- لقاء مراقبة العمارة .
أزاح أسطوانة رذاذ شعر منبعجة بقدمه :
- كان عادل ، أقصد جمال ، في مهمة مراقبة أم مازن . كانت الشكوك تدور حول أنّها قد تكون تسعى إلى تخريب المجتمع ، وكان المطلوب ترحيلها . أما مهمتي فكانت إخباره عن أية حركة غريبة تحدث في العمارة .
شعرت أنني بحاجة إلى مقعد ليستقبل جسمي المثقل . وقف أمام الجدار المطلي بالأسود :
- وظيفة جمال هي تأديب مخربي المجتمع . أما الوقحون الذين يصرّون على شغبهم ، فهو يضع إحدى أيديهم في جارور حديد ويسده بكل قوته . ضغط الجارور يؤدي إلى كسر إصبع أو اثنتين .
راحت حالة إغماء تصعد في دمي :
- هذا هو قسم العظام؟!
- يعاقبهم لكي لا يتمادوا .

- ولماذا لم يؤدبك أنت أيضاً؟

طأطأ رأسه قليلاً :

- كان يستفيد من الأخبار التي أعطيها له عن أهل العمارة . أما الآن فقد انتفت الحاجة إليّ فأمرني أن أهاجر .

- والمال؟

- مكافأة إنهاء خدمة .

- وكيف اعتقدتَ أنني سأقبله منك؟

- ليس لدي خيار . أشعر بالذنب فأنا الذي أخبرته عن صعود صناديق النحل إلى شقتكم .

- نذل!

طأطأ رأسه أكثر :

- ألم أقل لكِ من قبل بأن في كلٍ منا نقصاً ما؟

- لا أفهم ، لاَ أفهم .

- اهدئي ، وسأشرح لك . بسبب الحصار لم تعد تتوافر رواتب تكفي للجميع فانتشرت التعليمات بضرورة التشجيع على ارتداء الحجاب وحث المرأة قدر الامكان ان تبقى في دارها . في هذه الحالة كنا نحن اصحاب الصالونات سنخسر أعمالنا . فقام عادل وجماعته بالسماح لنا بمزاولة مهنتنا على شرط ان نخدمهم في الحفاظ على الأمن .

- لماذا خضعت؟

- لم يكن لدي خيار آخر لضمان معيشتي .

بعد ذلك سألته :

- وكيف نفذت الصناديق من الحدود؟

- تأخرتُ في إخبار جمال عن آخر زيارة للسيدة الأردنية لكم . لماذا؟

- تراجعتُ عن التعاون معه لأجلكِ .

- أنتَ تكذب ، تراجعتَ فقط لإنقاذ صالونك بسبب حاجتك إلى زبونات العسل .

عندها بدأت أفقد السيطرة على أسئلتي :

- ماذا حل برندة؟

- المسكينة لن تجرؤ أن تعاود الاتصال بعد الذي حدث . اعتقد أنّها ستنتظر أن يتصل أبو غايب بها عندما يُفرج عنه .

- واللوحات؟

- حسب علمي وصلت الأعمال الفنية إلى البحر الميت ، وهي معلقة في الفندق هناك .

- وإلهام ، ما هي علاقتك بموضوعها؟

- صدقيني ، لم أقصد ايذاءها . أخبرت جمال فقط عن شكوكي بأن لها علاقة عاطفية مع اللحّام .

- ما هو مصيرها؟

- نُقلت لتخدم في مستوصف في منطقة للأعمال الشاقة .

- لقد دمرتَنا جميعاً .

وضع سعد رأسه بين يديه وراح يبكي بمرارة :

- جمال لا يعلم أنني سأعترف لك بكل شيء .

مد يده باتجاهي :

- أرجوك سامحيني .

لا أعلم كيف حملتني ساقاي لأغادر :

- اغرب عن وجهي .

بكاؤه لا ينقطع مثل طفل :

- لا تزيدي من ارتباكي .

تطايرت شراشف من أعشاب أمام عيني :

- لماذا فرّط بي عادل؟

- في اعتقادي انه تعلق بك . لكن الوطن غال يا دلال ، وعادل - أقصد جمال - يسهر على راحتنا .

- تدافع عنه حتى اللحظة الأخيرة ، مع العلم انه استغنى عن خدماتك .

- لا يوجد ما أدافع عنه ، أنا واقعي . فكري معي ؛ من سيحميكنّ في المستقبل؟

- ماذا؟

- اسمعي ، خلال العقود الثلاثة الأخيرة والناس تغادر . لقد ترك الشيوعيون البلد ، ورحلت عوائل كثيرة من الشيعة ، وهاجر المثقفون والعلماء ، واستقل الاكراد . حتى يقال إن نسبة الأناث صارت أكثر من خمسين بالمائة من الشعب نتيجة للحروب التي خضناها . فماذا ستفعلن يا أختي؟

- لا تناديني بأختي . خدعتموني!

- الحياة صعبة يا دلال .

صرخت فيه بأعلى صوتي :

- وادعيتما بصيرة روحانية ثاقبة؟!

وقف في مكانه ينظر إليّ . قلت :

- هل اعتقدتَ حقاً أنك مُكرم بعين ثالثة؟

راح صوتي يعلو ويعلو :

- أنتَ تحمل ثقبكَ في جبينك وحسب!

بعد وفاة العم سامي ، لم يبق في العمارة سوانا . دخلت على خالتي في غرفة الجلوس . نظرتُ إلى ساعة الحائط ؛ عاطلة يخّر من بطاريتها حامض النتريك . كانت خالتي تقف بجسمها المضغوط على كرسي يواجه الشباك الكبير . لقد غطت الزجاج بورق طباعة الباترون الخفيف من أعلى إلى أسفل . في يدها قلم فحم غليظ تخطط به أشكالاً تشبه أنصاف حبات قرنبيط ؛ تعتقد أنها تنسخ الغيوم . منذ أن اختفى أبو غايب بأخباره وهي تحاول أن ترسم الغيوم تلهي نفسها بأنها تتغير من يوم إلى آخر . يكاد جهاز التلفزيون يهتز من صوت التصفيق المنبعث منه بعد ظهور نتائج الإنتخابات . يحظى الرئيس هذه المرة بكل الأصوات والنتيجة مائة بالمائة ، وراحت خالتي تهلوس : «تصفيق ، تصفيق . القردة تصفق ، كلاب البحر تصفق ، وأول حركة يقلدها الصغار هي التصفيق!» بدأ بعد ذلك برنامج عن توقع خراب بعض أنظمة الكومبيوتر في أوربا مع حلول عام ٢٠٠٠ .

فجأة شعرَت بوجودي . قالت بصوت مرهَق :

- دلال ، عدتِ؟

- نعم يا خالتي .

وجهها هرم عدة سنوات :

- يا دلال ، ماذا سأرسم عندما يحل موسم الصيف؟

طلبت منها أن تنزل عن الكرسي . شيء ما يتجعد فيها وهي تقترب لتجلس بجانبي :

- أرجوك خالتي ، كفاكِ عذاباً .

راحت تنظر إليّ بعينين مطفأتين :

- تخرجتِ؟

- لا .

ربتُّ على كتفها الصغيرة دون كتافيّة :

- تركتُ الدراسة .

رفعَت حاجبيها بصعوبة :

- وكيف سنعيش؟

- لقد وجدتُ وظيفة..

استجابت بابتسامة ضئيلة وأنا أشرح لها :

- سأعمل في ورشة يعزلون فيها مواد وأشياء مستهلَكة ليعاد تصنيعها . يجب أن تُفرز الأشياء حسب نوعها . يوضع البلاستيك في حاوية ، والزجاج في حاوية ، والحديد في حاوية ، والأقمشة في حاوية ، والخشب في حاوية ، وهكذا .

هزت رأسها كأنها تعطي موافقتها ، ثم قامت لتصلي . فرشت سجادتها باتجاه الغيوم المعلقة أمامها وراحت تسجد .

بعد الركعة الثانية قطعت صلاتها فجأة واستدارت نحوي ؛ سألتني بشرود :

- وأين الموقع؟

- في البناية التي كانت مصنعاً لعيدان الأسنان .

انصهرتُ في عملي العضلي فصرت بعد سنتين مثل آلة لا تفكر . أصبحتُ أميّز أنواع الخشب من ملمسه ، وأنواع الحديد من وزنه ، وأنواع النايلون من لونه والبلاستيك من رائحته . أشعر بتعب . خلعت الكمامة ، التي غدت جزءا من وجهي ، ورميتها جانباً فهوَت على كدس مرتبك من صحف قديمة عليّ ترتيبها وربطها في رزم . استقرت الكمامة

على صورة جورج بوش الأبن خلال احتفالات تسلمه مقاليد الحكم . تشنّج في رقبتي يزعجني . سمعتُ جلبة تصدر من البناية المجاورة فأسرعت إلى الشباك لأتبين الأمر .

امتلأت الساحة الأمامية لمبنى مختبر التحليلات الفيروسية بسيارات كبيرة . قام موظفو المختبر بفتح البوابة الرئيسية حيث اصطفت سيارات جيب تحمل علامة الأمم المتحدة على جوانبها . ترجل رجال أجانب يرتدون قبعات زرقاء حاملين أكياساً وأجهزة وكرّاسات يتبعهم مصوّر تلفزيوني . إنها لجان فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل . لقد عادوا .

ذرعتُ الغرفة جيئة وذهاباً اتفرج من الشباك . جلت بنظري من حولي ؛ فلم أجد غيري وكرسيي وسبعين كيلوغراماً من ورق الجرائد ستخضع لعملية إعادة تصنيع اليوم . عندي فترة راحة قصيرة . شربتُ القهوة . قلبتُ الفنجان لأبحث عن دليل . همستُ فيه : «هل ستنشب حرب أخرى؟!»

أحدهم يطرق على الباب . لا بد انه حمادة . أطفأت سيكارتي واخفيت ما تبقى منها لأدخنها فيما بعد . فتحت الباب لبائع الجرائد . يدخل وهو مرهق حاملاً على ظهره كدس جرائد . يضعها على الأرض ويجلس عليها . أخرج سيكارتين كان قد حشرهما في جاربيه . قدم لي واحدة فقلت له :

- أنت صغير على التدخين يا حمادة .
- لستُ كذلك ، ولا تناديني هكذا . أسمي حامد .
- حقاً ، لقد كبرت كثيراً . كيف حال والديك؟

- مرضى .

- للأسف .

دفعت له ثمن كدس الجرائد . قبّل النقد ثم وضعه في جيبه .

سألته :

- ما هي آخر الأخبار؟

- لا تبشر بخير .

- أين قرأت ذلك؟

المراهق الهزيل يحدق في جمرة سيكارته المشتعلة :

- لم أقرأها . الناس يتكلمون .

- فتىً بعمرك يجب أن يكون قادراً على قراءة جريدة .

- تعلمين أنني لا أستطيع .

- هل جربت؟

- لا أريد .

- إن كنتَ لا تجيد القراءة كيف ستعرف ما يريده العالم منا؟

- أنظري خارج الشباك .

- فعلت ، أكثر من مرة .

- فات الأوان .

- لم يفت الأوان على شيء . ما يزال أمامك الوقت .

- ولكن . . .

- اسمع . . .

- ما الفائدة؟

- إن سمحت لي أن أعلمك القراءة والكتابة ، فسأدفع لك الضعف لقاء الجرائد التي تأتي بها .

- لا أعلم . . .

قاطعته متوجهة نحوه :

- هيا ، سأعطيك الدرس الأول .

سحبته من يده وقدته حتى الكرسي :

- اجلس . هكذا نبدأ .

تناولت قلماً وورقة :

ردِدْ بعدي ؛ ألف ، باء ، تاء . . .

الأسماء، والشخصيّات، وتسميات الأمكنة، والأحداث، وخلطات الأعشاب الواردة في هذا العمل الروائي هي من نسج خيال المؤلّفة، وأيّ تشابه يجده القارئ من الواقع إن هو إلاّ مجرّد صدفة غير مقصودة.

عنوان المؤلّفة وبريدها الألكترونيّ

www.betoolkhedairi.com

betool@betoolkhedairi.com

G H A Y E B

رواية
NOVEL



ولدت بتول الخضيري ، عام ١٩٦٥ في بغداد ، من أب عراقيّ وأمّ أسكتلنديّة . حصلت على بكالوريوس في الأدب الفرنسيّ من الجامعة المستنصريّة . أثناء عملها في مجال الأعمال الحرّة الخاصّة ، تنقّلت بين العراق والأردن وإنكلترا ، وتعيش حاليّاً في عمّان . ترجمت روايتها الأولى « كم بدت السماء قريبة » من العربيّة إلى الإنكليزيّة والإيطاليّة والفرنسيّة والهولنديّة ، وكانت موضوع دراسة وتحليل في عدد من الجامعات الأمريكيّة .

تتناول « غايب » أحوال عائلات عراقيّة تعيش في شقق سكنيّة بعمارة وسط بغداد . كوميديا سوداء تزخر بمقارنات بين زمن الخير في عراق السبعينات والزمن المتعَب في عراق الحصار والحروب . أغلب الشخصيّات نسائيّة بسبب اختفاء الرجال في ظروف غير طبيعيّة ، وتصبح قارئة الفنجان بمثابة المحلّل النفسيّ لنساء العمارة . صور سينمائيّة تعكس صراع سكّان الشقق من أجل البقاء تحت ضغط حصار اقتصاديّ وفكريّ . ما بين السرد الواقعيّ للحدث ، والهلوسة السورياليّة للشخصيّات ، يتخبّط الجميع في كولاج دادائيّ لخراب البنية التحتيّة ، وما ترتّب عليه من تهاوي البنية الاجتماعيّة .

ISBN 9953-36-573-3

